

الدكتور
محمد أحمد النابلسي

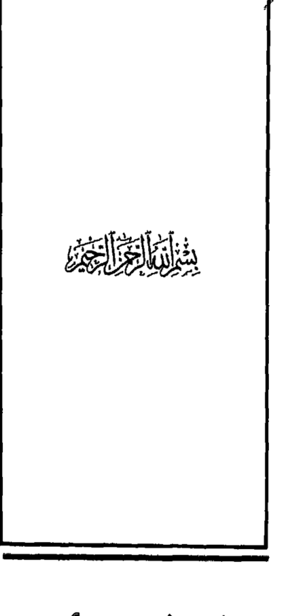
الثلاثاء الأسود

خلفية الهجوم على الولايات المتحدة الأمريكية



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان
دار الفكر
دمشق - سورية

Sept. 12. 2001



الثلاثاء الأسود

خلفية الهجوم على الولايات المتحدة الأمريكية

الدكتور
محمد أحمد النابلسي

الثلاثاء الأسود

خلفية الهجوم على الولايات المتحدة الأميركية



الرقم الاصطلاحي : ١٥٣٢,٠٣١
الرقم الدولي : ISBN: 1-57547-990-7
الرقم الموضوعي: ٣٢٠
الموضوع:العلوم السياسية
العنوان: الثلاثاء الأسود
التأليف: د. محمد أحمد النابلسي
الصف التصويري: دار الفكر-دمشق
التنفيذ الطباعي: مطابع المستقبل-بيروت
عدد الصفحات: ٣٦٠ص
قياس الصفحة: ١٤×٢٠ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر- دمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
e-mail: info@fikr.com



الطبعة الأولى
رجب ١٤٢٢هـ
تشرين ٢ (نوفمبر) ٢٠٠١م

المحتوى

الموضوع | الصفحة

المقدمة

علائم الفوضى الأميركية الداخلية بدأت مبكرة جداً. ولم تتحول إلى الكمون إلا بفضل الرفاهية والرخاء، اللذين جاءا نتيجة الحرب العالمية الثانية. ليحولا هذه الدولة القاصية إلى دولة مركزية. ومع هذا التحول توليها زعامة العالم الحر الذي خرت إمبراطورياته صريعة الحرب العالمية. فانتقل العداء وتوجهت مصالح الأميركيين من مخالفة أوربة إلى معاداة الشيوعية. فهذا البلد لايستطيع العيش بدون عدو، كونه يوجه مصالحه عكس وجهة مصالح العدو الذي يختاره. وبالرغم من هذه الحاجة الهوسية للعدو، فإن التهديدات الحقيقية لأميركا لم تكن يوماً خارجية. بل هي كانت داخلية على الدوام، ففي العام ١٩٢٠م حدث أول عمل إرهابي داخلي حين انفجرت عبوة ناسفة في وول ستريت (البورصة). وأعلن يومها أن الفاعل مجموعة متطرفة (آرية معادية لليهود). وتوالت الأحداث الداخلية لتصيب الولايات

المتحدة بخسائر موجعة وأكثر إيلاماً من كل الحوادث الخارجية. ومن أهم المفاصل الداخلية المهددة نذكر: حوادث ليتل روك العنصرية (١٩٥٧م)، والثورة الطلابية الداعمة لمارتن لوثر كنغ (١٩٦٤م) وإضراب عمال جنرال الكتريك (١٩٦٩م) والمعارضة الحادة لحرب فيتنام لغاية نهايتها، ثم حوادث لوس أنجلوس العنصرية، وانفجار أتلانتا (١٩٩٤م)، وانفجار أوكلاهوما (١٩٩٥م)، وحوادث سينسيناتي العنصرية (٢٠٠١م)، وهذه مجرد أمثلة على مدى إيلام الحوادث الأميركية الداخلية.

من هنا كان من الطبيعي توقع تنامي خطر هذه الأحداث مع فقدان العدو الذي يشكل حاجة هوسية لهذا البلد. ومن هنا كانت صيحة هنتنغتون في مقالته تآكل المصالح الأميركية. وفيها سؤال عما إذا كان انفجار أوكلاهوما ممكن الحدوث لو كان لأميركا عدو خارجي؟.

الرئيس كلينتون بدا مستوعباً لهذا السؤال ومحركاته، لذلك رأيناه يختلق الأعداء في محاولة لتصدير الفوضى الداخلية إلى الخارج وللحؤول دون تفجرها في الداخل. ونجح في ذلك أي نجاح. بل إنه تمكن من تحقيق أول فائض في ميزان المدفوعات الأميركي منذ العام ١٩٥٦م، وكان ذلك عام ١٩٩٩م باستنزاف الأموال الأوربية. لكن هذا السلوك الكلينتوني دفع بالكثيرين، ونحن

منهم، إلى التساؤل عما إذا كان من الممكن الاستمرار في تصدير هذه الفوضى إلى مالا نهاية؟!. وطرح السؤال يبطن الإجابة بالنفي. ومن هنا قولنا إن كلينتون سيكون آخر الرؤساء الأميركيين المحترمين. ولم يخيبنا بوش الذي بدأ مواجهة النكبات منذ استلامه الحكم وحتى اليوم. فقد كان مقدراً للفوضى الداخلية الأميركية أن تندلع، وأن تتفجر بغض النظر عن كبسولة التفجير. إذ تجلت الفوضى الأميركية واضحة من خلال فوضى الانتخابات الأخيرة التي اقتضت العودة إلى تاريخ الانتخابات، وإلى طرح ضرورات المراجعة مع ترشيح يهودي لمنصب حساس. وزيادة الفقر والبطالة، وانخفاض الإنفاق، وعودة الرغبة في التسلح، ونقيضة خفض الضرائب. لذلك رأينا أن ثلاث مجموعات من الأخطار تهدد استمرارية الأمن الأميركي. وحددناها كالتالي:

١- اضطرابات داخلية (بدأت بسينسيناتي ومرت بالثلاثاء مرشحة للاستمرار بأشكال عديدة أخرى).

٢- الانهيار الاقتصادي، حيث لازم الركود توقع فوز بوش الابن وتكرس بعدها.

٣- فقدان بوش للشخصيات الهامة في فريقه الرئاسي.

وتتضخم هذه الأخطار من خلال ثغرات النظام الأميركي

الرأسمالي، ومن خلال مراكمته للأعداء. فمن أعداء الحكومة الفيديرالية في الداخل يمكننا أن نعدد كلاً من الميليشيات البيضاء (العنصرية المعادية لليهود وللملونين) ومهاجري أميركا اللاتينية البائسين، والسود المعانين من عنصرية مزمنة. لكن الفئة الأهم هي مجموعة الأميركيين ذوي الأصول العرقية المتعرضة لاضطهاد السياسة الخارجية الأميركية، وضغوطاتها البالغة حدود التهديد بالمجاعة (الصين وروسيا خاصة) إضافة إلى قائمة طويلة من الأعداء الذين لايختصر خطرهم باعتماد الحكومة الفديرالية مصطلحاً موحداً للرمز إليهم عنيت به مصطلح (الإرهاب). ففي نظر الحكومة الأميركية هؤلاء كلهم إرهابيون داخليون. وهي كانت تخصص للسيطرة على إرهابهم مبلغ ستة مليارات دولار سنوياً. وهو مبلغ أثبت الثلاثاء الأسود لاجدواه، وانعدام فعالية القائمين عليه. وربما لهذا السبب لجأ الرئيس السابق كلينتون إلى تصدير الفوضى إلى خارج الولايات المتحدة. أما بوش فقد أراد سياسة مخالفة أدت إلى انفجار الفوضى الداخلية الأميركية. فقد ضرب الإرهاب ضربته ليصيب الجبار الأميركي في مقتل. مما أجبر بوش على العودة إلى سياسة تصدير الفوضى ولكن بعد فوات الأوان. فهل ينفع الاختصار هنا باعتبار كل الفئات سابقة الذكر إرهاباً؟. وهل يقتنع الجمهور الأميركي بأن بن لادن هو العدو!؟.

إن الولايات المتحدة مضطرة لتصنيف الإرهاب وتوزيعه إلى فئات وأنواع كي تكتشف الفاعل المدبر لحوادث نيويورك وواشنطن. وهي لاشك آسفة لأنها لم تبتدع هذا التصنيف وتعمل من أجله قبلاً. وهي أكثر أسفاً لعدم ربطها حالات التجسس الأخيرة من روسية ويهودية وصينية وغيرها. ومهما يكن فإن هذا الطرح النظري لايفي بعرض محتويات هذا الكتاب الذي يحتوي على تطبيقات عملية وتحليلات مباشرة للسلوك السياسي الأميركي في مواقف ووضعيات محددة. كمثل كوسوفو، وتعديلات استراتيجية الناتو، وتسخير العالم لخدمة المصالح الأميركية، وتصدير الفوضى الملازمة لها. ومع تحليل شخصيات بوش وفريقه الرئاسي. وهذا مادفعنا للتأكيد في أكثر من مقالة على مقولتنا: ((إن سنوات شديدة الصخب تنتظر الولايات المتحدة التي لن تكون بلداً آمناً خلال السنوات المقبلة)).

إن المقالات التي يضمها هذا الكتاب كنا قد نشرناها في جريدة الكفاح العربي على مدى الفترة الممتدة من العام ١٩٩٧م ولغاية العام ٢٠٠١م.

لذلك نرجو من القارئ الالتفات إلى تاريخ نشر المقالة التي يقرؤها، بغية وضعها في إطارها الزمني الصحيح، واستشفاف التحليل المستقبلي والتوقعات المسبقة لهذه المقالات.

إذ إن أهمية الكتاب إنما تكمن في هذه التوقعات المسبقة، التي يأتي تحقيقها حافزاً لنا لاعتماد النظريات المستقبلية المؤدية إليها. كونها أثبتت فعاليتها وصحة توقعاتها. مع التنبيه إلى أن الكتاب يحتوي على توقعات متأخرة لما تزل تنتظر بعض الوقت لحين حدوثها. وحسبنا أننا قرنا كل مقالة بتاريخ وجهة نشرها تاركين للقارئ مهمة التحليل الرجعي للأحداث ليقيمه على طريقته الخاصة.

والله ولي التوفيق

طرابلس – لبنان في ٢٨/١٠/٢٠٠١م

المؤلف

الفصل الأول

الاستقراءات المستقبلية

تتوقع زمن الفوضى الأميركي

١- قراءة تمهيدية

التدخل الأميركي في الشرق

قراءات مستقبلية

كيف ينظر الأميركيون للشرق؟ وما مدى تناقض مشاعرهم وعواطفهم حياله؟ وهل صحيح أنهم يقسمونه كما السياسة إلى أوسط وأقصى وأصفر ومسلم وغيرها؟. كيف يتمازج عبق الأساطير مع عنجهية التراث وعفوية الحياة الغريزية.

بعضهم يأتي إلى هذا الشرق بهدف سياحة المخدرات (الهلال الذهبي). ومنهم من يهتم بوخز الإبر وبالطب العربي وبكتاب الجنس الصيني، وآخرون بالمصالح والنفط خصوصاً. حتى تبدو الهيبة والتهيب من العرق الأصفر والتوجس والحذر من العرب والمسلمين.

هذه هي الصورة الهوامية للشرق في عقل المواطن الأميركي العادي. وهي صورة جهد الإعلام لتشويهها بشتى الطرق وبدوافع مختلفة. فالصين لقبت - منذ الحرب العالمية الأولى- بالخطر الأصفر. واليابان منافسة يجب التحكم فيها عبر إلغاء تراثها لدرء خطرها. أما العرب فإن إسرائيل كفيلة بتفجير تناقضاتهم والمساعدة على امتصاص ثرواتهم. وما بقي منها يمتصه الفساد والعمولات والملاهي. ومع ذلك تبقى الصورة الهوامية هي المهيمنة لأن محوها لايتم بسهولة الدعاية الإعلامية. وهذا ما يفسر لنا ذلك التناقض الملفت وثنائية العواطف المتبدية في الكتابات الأميركية، والغربية عموماً، عن العرب المعاصرين وعن أحوالهم.

بعد حوادث الثلاثاء الأسود أدركنا مدى أهمية هذه الفكرة المتناقضة عن العرب والمسلمين. كما أدركنا أثر هذه الكتابات على الجمهور الذي سارع منذ أوكلاهوما للتعجل بتوجيه التهمة إلى الشرق أوسطيين (جماعة ألف ليلة وليلة وفق اللغة الهوامية).

فهل لنا أن نتحرى أهم هذه الكتابات المعجلة لاتهامنا وسوقنا إلى قفص الإرهاب متهمين مدانين بدون قرائن!؟.

عودة هنا إلى كتب قرأها الباحث المستقبلي محمد أحمد النابلسي في (الكفاح العربي) وفق منهجية نقد تحليل نفسي. وهي قراءات نستعيدها لعلاقتها بوضعية الذئب البريء من دم يوسف. حيث الإدانة الجماعية هي تعميم يخرج عن العقلانية ويدخل في إطار استغلال الفرصة، حتى الكارثة، لتحقيق المصالح. ونعمد في عرضنا إلى عنونة الفقرة باسم الكتاب المناقش وتاريخ نشر نقده تاركين اسم المؤلف لذكره في سياق النص:

١- بن لادن، الرجل الذي أعلن الحرب على أميركا ١١/٩/١٩٩٩م

يبدأ النابلسي عرضه لهذا الكتاب، لمؤلفه يوسف بودانسكي، بالإشارة إلى مقاربة الإعلام الأميركي لبن لادن عبر مقارنته بغيفارا. فيعرض لنقاط التشابه بينهما (العداء لأميركا والعمل على تخوم مصالحها وتهديد هذه التخوم والزهد السلطوي والعيش في البراري والاستعداد للانتقال في القتال من بلد الى بلد. والأهم إحراج الولايات المتحدة بإجبارها على السعي لمواجهة شخص فرد). ويركز بودانسكي على خلافة بن لادن ومستقبل القاعدة من بعده

ليرى أن خلافته مؤمنة، وليستنتج ((**أن التخلص من بن لادن لايحل المشكلة**)). ويكمل ملمحاً إلى تعاون بن لادن مع المخابرات العراقية إلا أنه ينتهي بذكر عوامل الجذب في شخصيته. فهو الميليارديرالزاهد والضحية البطل والميت مسبقاً الذي تبلغ شجاعته عدم الاكتراث بحياته. وكلها عناصر ترسم صورة لبطل. ولعل أهم ما يذكره بودانسكي هو قوله: ((**يبدو أن بن لادن قد نقل الحرب إلى داخل الولايات المتحدة وذلك باعتراف تقرير مخابرات أميركية مطلع العام ١٩٩٩م . كما أن أيمن الظواهري أنشأ في أوروبا منظمة السيوف الإسلامية لتكون رأس حربة متقدم لضرب المصالح الغربية**)).

النابلسي من جهته يعدُّ مناقشة الكتاب للموضوع سطحية مكتفية بالمعلومات الصحفية ومهملة لفوضى التوجه الاستراتيجية حين صدوره. ويركز على النقاط التالية:

- هنالك هدنة بين بن لادن وأميركا قوامها الخوف المتبادل.

- هل تستشعر كل من روسيا والصين خطر اتساع المساحة القتالية لبن لادن؟.

- هل تعدُّ حركة الإسلام الداغستاني مقدمة أميركية لمسرحية كوسوفو جديدة؟. وعندها تدخل المنطقة في حدود الصلاحيات الجديدة للحلف الأطلسي (يبين السلوك الأميركي بعد ذلك الثلاثاء أن هذا

الإدخال هو من الأهداف الاستراتيجية في تلك المنطقة. حيث استغلت الإدارة الأميركية حوادث الثلاثاء لتحقيق هذا الهدف والدخول إلى المنطقة).

- هل يمكن للصين أن تسكت عن هذا التدخل الأطلسي على حدودها؟.

كتاب بودانسكي لم يجب عن أسئلة النابلسي التي تجد إجاباتها في السلوك الأميركي الراهن.

٢- الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة/ ٢٠٠١/٤/٢٣

المؤلفان فولر وليستر يعلنان أن إسقاط طرح صدام الحضارات كان إعلامياً لأنه لايزال عالقاً في أذهان الاستراتيجيين الغربيين. وهما يؤكدان على سلبية إخضاع الدول الإسلامية للحصار الأوروبي. وخصوصاً على دعمه لإسرائيل الذي يبرر شعور العرب الفعلي بالاضطهاد الغربي. كما يؤكدان على أن الإحراج الناجم عن هذا الحصار يؤدي إلى دعم وتقوية الإسلام السياسي. أما مسألة التطرف فقد يكون الإسلام أسرع استجابة لها، لكنها مسألة حاضرة في مختلف الثقافات ومنها البوذية واليهودية وحتى الحركات الدينية المسيحية داخل أميركا. ويصل الكتاب إلى

السؤال عن دور المسلمين المقيمين في الغرب. أهو دور حواري توفيقي أم هو مشجع للاحتكاك؟.

النابلسي لايعدّ هذا السؤال بالبراءة البادية عليه. فهو إيحاء تحذيري من خطر المهاجرين المسلمين، العرب خصوصاً، فالاحتكاك ليس وليد تاريخ عداء بل هو وليد اضطهاد وسيطرة راهنة ومعيشة على مقدرات البلاد العربية والمسلمة عبر أقنعة عسكرية وغير عسكرية.

ويخلص المؤلفان لتقرير واقعة (أثبتتها الأحداث التالية للثلاثاء) **أن الغرب والإسلام يعيشان حالة حصار متبادل تقتضي استكشاف القواعد الأساسية للتعايش بينهما في ظل نظام عالمي جديد من التفاعل المتبادل** (يبدو للمراقبين أن أحداث الثلاثاء ستعجل تنفيذ هذا الاقتراح).

٣- أفغانستان ، أميركا والإرهاب الدولي/ ١٩٩٩/١/٢١م

يخلص مؤلف الكتاب جون كولي (مراسل محطة سي بي أس) إلى القول بأن الولايات المتحدة لم تتخلَّ عن العمليات السوداء بل هي أوكلتها للآخرين. فيبين دور المخابرات الأميركية في اغتيال السادات وضياء الحق وشراكتها في تجارة المخدرات ... إلخ من

العمليات السوداء. (نسجل هنا ملاحظة حول سلوك إدارة بوش التي بدت وكأنها تريد العودة إلى العمليات السوداء بدون وسطاء).

يخلص النابلسي في تعليقه على هذا الكتاب بملاحظة: **إن سلوك الولايات المتحدة مع دول الاتحاد الأوروبي وتوريطها في حرب كوسوفو وتوريط روسيا في الشيشان ستكون لهما عواقب وخيمة على العلاقات الأميركية.**

٤- الإسلام والغرب، خرافة المواجهة/ ١٩٩٧/١٠/٣١م

مؤلف الكتاب فريد هاليداي ينطلق من اعتراضه على المسلمات الغربية في النظر للإسلام. في محاولة لتكوين رؤية خالية من الأفكار المسبقة. من هنا نظرته للإسلام كنظام سياسي اجتماعي متغير في الزمان (الأموي والعباسي وبعدهما) والمكان (العربي والفارسي والطوراني). فيثير مسألة الصراعات داخل الشرق الأوسط ليجد أن ضحاياها تفوق كل الصراعات الخارجية. ويدلل على ذلك بحرب الخليج الثانية (بين دولتين إسلاميتين) حين بقي الإسلام حيادياً فيها.

تعليق النابلسي على الكتاب يقول: **((... إن الإصرار على شائعة صدام الحضارات يعد بتحويلها إلى واقع عالمي. حتى يبدو العالم وكأنه يسير نحو حرب باردة جديدة. حيث لاحساب لكمية الأسلحة بل للقدرة على تحقيق الأذى...)).**

٥- إله المعارك ١٧/١/١٩٩٨م

يشير المؤلف بيتر بارتنر إلى أن الحروب المعلنة مقدسة لم تكن في الواقع كذلك، بل هي كانت حروب مصالح. بما يتضمن التأكيد على استمرارية جهوزية المنطلقات الدينية لتغطية الصراعات الراهنة بين الأغنياء والفقراء.

٦- الأميركيون يعودون للشرق الأقصى ٣/٨/٢٠٠٠م

مقالة للنابلسي يقرأ فيها السلوك الأميركي الذي يعكس رغبة لاتقاوم بالعودة إلى الشرق الأقصى. بدءاً من الإثارة المفتعلة لأزمة تيمور الشرقية مروراً بإثارة المشاكل في الفيليبين. حيث يجزم الباحث بالرغبة الأميركية لإعادة القواعد الأميركية إليها. ويخلص إلى نتيجة مؤداها أن الأميركيين يصطنعون المشاكل في الشرق الأقصى ليبرروا دخولهم إليه. وللتخلص من إحراج هذا الدخول أمام الصين التي لاتحتمل هذا التواجد على تخومها.

لكن الأهم في المقالة هو التصور المستقبلي لدور إسرائيل في المنطقة. والذي يذكره الباحث قبل أكثر من سنة من دخول القوات الأميركية إلى المنطقة (بحجة الانتقام للثلاثاء). إذ يقول النابلسي ما نصه: ((**هذه المنطقة محظورة على إسرائيل وتدخلها في الشرق الأقصى سيكون وخيم العواقب عليها. فهل ترتكب إسرائيل خطيئة التدخل في منطقة محظورة عليها أميركياً**))؟

أما عن علاقة السياسة العربية بما يجري في تلك المنطقة فيقول النابلسي: ((... **لقد باتت أميركا مطمئنة لمصالحها في منطقتنا. فإذا ما استمرينا بتأمين هذا الاطمئنان فإننا سنصبح خارج اللعبة. فلو أردنا دخولها فإن علينا أن نخفض مستوى هذا الأمان. وعندها ستكون إسرائيل هي المحركة للمشهد الشرق أوسطي كي تستعيد بعضاً من أهميتها**... (وهذا ما حدث دون مشاركة فعلية من قبلنا إذ إن أحداث نيويورك وواشنطن أفقدت أميركا كل اطمئنانها في المنطقة ليبقى علينا أن نعرف كيف نحصل على حقوقنا قبل أن نعيده اليها!؟).

٧- الولايات المتحدة،حروب رمزية مقسطة/ ٨/١٠/١٩٩٩م

في هذه المقالة يعدّ النابلسي أنّ سلخ تيمور الشرقية (سكانها ٦٠٠ ألف نسمة) عن أندونيسيا (سكانها ٢١٠ ملايين نسمة)

هي تجربة مختبر. لابد لها من أن تستتبع عمليات أميركية أكبر لتفتيت دول الشرق الأقصى وافتعال المشاكل فيها لتبرير التدخل الأميركي بمعزل عن الإحراج الصيني. إلا أنه ينهي مقالته بهذه العبارة: ((**إن الأهمية القصوى للمسألة التيمورية هو دخول الولايات المتحدة إلى المنطقة المرشحة لقيادة العالم خلال القرن المقبل.. لكن ثقافة المنطقة شرقية قديمة لاتحتمل الحروب الرمزية.. فهي ستجبر الأميركيين على خوض مواجهات بشرية مباشرة**)).

حسين نصر الله

الكفاح العربي

شذوذ لنكولن جعل فضائح كلينتون نوعاً من بطولات الكاوبوي!

٢- قوة بوش الابن جعلت من آل غور حصاناً ميؤوساً من فوزه

٢٠/٦/٢٠٠٠م

قد لا تكون أخلاقيات كلينتون أسوأ من سابقيه[1] لكنها كانت أكثر فضائحية (بتضخيم جمهوري ويهودي مبالغ) ومن أهمها نذكر:

١- فضائحه النسائية: وفي طليعتها مونيكا، اليهودية التدبير، وباولا جونز وهي قائمة يبدو أنها لن تنتهي بسهولة، ويتضخم أثر هذه الفضائح بسبب انفجارها في أثناء فترة رئاسته.

---

(١) راجع مقالتنا: هفوات الرؤساء الأميركيين في كتابنا (سيكولوجية السياسة العربية).

٢- فضائحه المالية وأبرزها (وايت ووتر) المشتركة مع زوجته وعشيقها المتوفى في ظروف غامضة، ظاهرها انتحار.

٣- الديون التي تثقل كاهل الرئيس والتي تقدر ببضعة ملايين من الدولارات. يقدر بعض المستشارين صعوبة وفائها.

٤- فضائح زوجته هيلاري التي تتراوح (بحسب الصحافة الأميركية) ما بين الخيانة الزوجية، والعلاقات السحاقية، والفضائح المالية، والتعدي الوقح لحدود دور الزوجة الأولى، والاعتداء على الرئيس جسدياً بالضرب - توجد صور بهذا الخصوص، ثم طموحات غير مألوفة لدى الرأي العام الأميركي. ومنها الطمع بعضوية الكونغرس وبعدها طموح الترشيح للرئاسة المقبلة، وهذه الطموحات تعد في غاية الوقاحة في بلد يتجنب تسليم امرأة إدارة شركات أو مسؤوليات رئيسية، ولا يخفف من ذلك تعيين أولبرايت المتقاعدة من أنوثتها واليائسة السن من سنوات طويلة.

لكن الناخب الأميركي سيغفر كل هذه الفضائح للأسباب الآتية:

١- النجاح الاقتصادي لسياسة كلينتون ويتمثّل في: الفائض الاقتصادي، وزيادة الحصة من الناتج التجاري العالمي، ومعها زيادة الرخاء الأميركي، وأيضاً أرباح العولمة وحروبها الرمزية.

٢- نجاح كلينتون في تجنب الحروب التقليدية وإبدالها بحروب رمزية سمحت لأميركا باستخدام تفوقها العسكري وقدراتها الاقتصادية والمخابراتية، دون تقديم ضحايا بشرية تفجر الكابوس الفيتنامي.

٣- توريط دول الأطلسي في الحلف العالمي الجديد، وتحويلها إلى دول تابعة للولايات المتحدة.

٤- توسيع إطار السيطرة الكاملة الأميركية؛ سواء عن طريق توسيع حلف الأطلسي، ضم أستراليا ودول أوروبية جديدة، أو عن طريق العولمة الاقتصادية، أو السيطرة الاستخباراتية.

هذه الوقائع النفعية لا تعفي كلينتون وزوجته من الفضائح فقط، بل إنها تحول هذا الرئيس إلى (النبي المختار) للتوراة الجديدة، أي للدستور الأميركي. وهذا سيعني تمسك الناخب الأميركي بسياسة كلينتون وبتوجيهاتها أكثر من أي اعتبارات أخرى. ولقد نجح الديمقراطيون بتكريس براءة كلينتون من فضائح عبر الشائعة التي نشروها بخبث حول معاناة إبراهام لنكولن الشذوذ الجنسي، مما يجعل من فضائح كلينتون نوعاً من بطولات الكاوبوي!

وعلى الرغم من ارتفاع الأسهم الديمقراطية في الانتخابات المقبلة فإن حظوظ آل غور (نائب كلينتون) تبقى معدومة. وذلك لقائمة طويلة من الأسباب وفي طليعتها:

١- جهله التام لاستراتيجية التجنب الكلينتوني (Avoidance) وتفضيله للحروب الرمزية، مما جعل آل غور يقع دائماً في سوء التقدير، وتوقع حدوث مواجهات تقليدية، الأمر الذي جعله يبدو غالباً بصورة الساذج، والمتسبب بإحراج الرئيس وإدارته.

٢- التفضيل الواضح والصريح لريتشارد هولبروك من قبل كلينتون مقابل نفور هيلاري منه، وتفضيلها لأولبرايت. مما أتاح لهولبروك أن يبدو أكثر ذكاء واستيعاباً من آل غور، ومن أولبرايت معاً. لكن رعونة هولبروك تستبعده وتحد طموحه في وزارة الخارجية.

٣- في ظل الفائض الاقتصادي البالغ ١١٥ ملياراً، الكفيل بالحد من حظوظ جورج بوش الابن لعجزه عن الحفاظ على هذا الفائض، كان يمكن إنماء حظوظ ترشيح كل من هيلاري وهولبروك وأولبرايت، لكن أزمة هؤلاء أن كلاً منهم قد استبعد الآخر عبر صراعات خفية، وعبر العلاقات الخفية لكل منهم، وهذا ما سيجعل الديمقراطيين يبحثون عن وجه ديمقراطي جديد ومقبول وغير محروق. ولقد أشارت استفتاءات الديمقراطيين إلى مفاجأة جديدة، هي كناية عن شخصية جديدة من غلاة الديمقراطيين واسمه بيل برادلي!

باختصار شديد نلخص الصراع على الرئاسة الأميركية بأن بوش الأب وفريقه (الحزب الجمهوري وأثرياء النفط في تكساس وتوابعهم) يسعون للانتقام من خسارة بوش أمام كلينتون. وفق حملة تم الإعداد لها طوال سنوات، وسخرت لها وسائل وإدارات المعلوماتية كافة، ووزعت خلالها الوعود على اللوبيات والتكتلات الإنتاجية كافة. وبالإضافة إلى كل ذلك فقد كان اختيار جورج بوش الابن موفقاً بعد تهيئته، وبعد تعزيز الجانب العاطفي الرابط بين أبيه وبين عظمة الولايات المتحدة ومطالبتها بسيطرة تعادل قوتها العسكرية. إلا أن نقاط الضعف والخطأ في هذه الحملة بدأت تبرز بصورة فاضحة من شأنها أن تدفع الكثير من المحللين لتأكيد تفضيل بوش الابن.

وعلى الرغم من إشارتي في مقالة سابقة[1] إلى تفوق حظوظ بوش الابن إلا أن سلسلة معطيات - مفاجآت جديدة، يبدو أن فصولها لم تنته بعد، كانت كفيلة بقلب هذا التوقع إلى عكسه. وأهم هذه المفاجآت والمعطيات الجديدة هي:

١- الفائض المشار إليه من قبل في ميزان المدفوعات الأميركي (١١٥ مليار دولار) وهي رفاهية لا يمكن للمواطن الأميركي العادي التخلي عنها.

---

(١) الكفاح العربي في ٦/٩/ ١٩٩٩م.

٢- البدء بإثارة فضائح بوش الأخلاقية التي تبدو كثيفة وذات توابع. إذ يبدو أن المسألة لا تقف عند حدود إدمان الخمر والنساء وتعاطي الكوكايين، والفشل في إدارة شركة نفط، والتعرض لاضطراب مزاجي دوري. بل إن الفضائح تبدو أعمق من ذلك بكثير، والأمور مرهونة بأوقاتها.

٣- بدأت بعض الأوساط الأكاديمية ومراكز القرار تطرح السؤال حول تردد بوش في خوض عاصفة الصحراء، وبين الأزمة التي هددت أثرياء النفط (ومنهم آل بوش) بالإفلاس في حينه، إذا لم يحصل ما يوقف تدفق نفط الخليج.

٤- يجهز الديمقراطيون أوراقهم لإعادة محاكمة بوش الأب فيما يتعلق بسجله في مجال الحقوق المدنية.

٥- إطلاق فضيحة شذوذ إبراهام لنكولن بما يعتبر صفعة، من نوع ضربة البلياردو التي تصيب كرات عدة في آن معاً، هادفة لإبراز أهمية النجاح الاقتصادي الذي حققه الديمقراطي كلينتون، واعتبار ما عداه شعارات فارغة.

وتبقى المفاجأة الأكبر والأخطر بالنسبة إلى الجمهوريين هي مفاجأة تغيير الديمقراطيين لمرشحهم الرئاسي[1] . والواقع أن

---

(١) رشحوا ليبرمان بدلاً من تغيير غور.

استبدال آل غور، نائب كلينتون، بات ضرورة ملحة بالنسبة إلى الديمقراطيين. بل ربما رأى الحزب الديمقراطي ضرورة تغيير طاقم كلينتون بكامله. فهذا الرئيس، على غرار رؤساء سابقين عدة، يهتم بتحقيق برامجه دون أن يعبأ بحماية مرؤوسيه.

ولو عدنا بالذاكرة إلى المواقف الصعبة والمفصلية في فترة حكم كلينتون لوجدنا أن طاقم معاونيه كان يظهر دائماً بصورة الزوج الغبي المخدوع. ولو أخذنا تحديداً أزمة تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٨م العراقية لوجدنا الطاقم بأكمله (آل غور وأولبرايت وكوهين... إلخ) يشبع الإعلام العالمي بتصريحات عن ضرورة الضربة واقترابها. وبعدها بدوا جميعاً كشلة مغفلين، عندما أوجد كلينتون لنفسه طريقة للخروج من مأزق تلك الضربة. وفي حينه سارعت الآلة الإعلامية لتسريب خبر مفاده أن أولبرايت قد بذلت جهوداً فائقة لإقناع كلينتون بوقف الضربة، في حين كان آل غور أشد المتحمسين لها، والخبر كاذب بالطبع.

ومهما يكن فإن كلينتون كان يتصرف دائماً وفق سلوك نرجسي لا يراعي أو يحاول حماية آل غور كخليفة له. وهذا كان واضحاً طوال سنوات أمام الجميع. وهذه الظروف مجتمعة تنزع من آل غور وضعية المرشح الأوحد. بل إن وجود منافس بقوة بوش الابن تجعل من آل غور حصاناً ميؤوساً من فوزه. ولقد بدأ

ذلك ينعكس في أوساط مؤيدي الحـزب الديمقراطـي. حيـث بـرز منافس خطر لآل غور يدعى بيل برادلي. إذ تمكن هذا المنافس من تحقيق سبق في جميع التبرعات لترشيحه فجمـع مبـالغ فـاقت تلـك التي جمعها آل غور. إذ جمع لغاية نهايـة أيلـول (سـبتمبر) المـاضي مبلغاً يقارب سبعة الملايين دولار. الأمر الذي يجعله منافسـاً جديـاً لآل غور. ويضاف إلى رصيد برادلي ما يأتي:

١- دخل الكونغرس في العام ١٩٧٧م بعد منافسـة حـادة مـع الجمهوريين، وبقـي فيـه طـوال ١٨ عامـاً، خـاض خلالهـا غمـار تجارب لجان عدة أهمها لجنة المختارة حول النشاط التجسسي.

٢- أنه خاض مواجهة مع الرئيس بوش بشأن الحقوق المدنيـة. وقد تبنى بحماس قضية رودني كينغ.

٣- أنه نال عدداً من الأصـوات في انتخابـات الكونغـرس. في نيوجيرسي، في العـام ١٩٨٤م، لـم يحصـل علـى مثلـه أي مرشـح ديمقراطي في هذه الولاية.

٤- أن لدى برادلي تصورات ومشـروعات محـددة في القضايـا المفصلية وأهمها:

أ - النظام الضريبـي، لـه كتـاب (الضريبـة العادلـة) يحـدّد فيـه نظريته.

ب - العلاقة مع روسيا، يدعو لإدخالها في صيغة تحالفية.

جـ - الرعاية الصحية، يُدافع عنها بتطرف.

د - رئيس معهد (أمور القيادة) في جامعة مريلاند.

هـ - درس السياسة الخارجية في جامعة ستانفورد.

وفي رأينا الشخصي أن برادلي يستمد حظه الأكبر من بقائه خارج شيزوفرانيا الطاقم الحالي، بما فيه آل غور، المنفصم بين نرجسية كلينتون وبين طموحات هيلاري. حيث يشير تحليل شخصيتها إلى كونها من النوع الذي يخفي دائماً مفاجآت غير سارة. وهذه الأسرار ستنفجر في وجهها إن هي أصرت على الترشح عضو كونغرس عن مدينة نيويورك.

في النهاية ملاحظة لابد منها، وهي أن كلينتون هو آخر الرؤساء الأميركيين المحترمين، وعلى الرغم من رغبة الأميركيين العارمة في الحفاظ على فائض الـ١١٥ مليار دولار. وسعيهم لانتخاب ديمقراطي لهذا الهدف. وعلى الرغم من أن هذا السعي سيشل، أو هو سيحد على الأقل، من دور اللوبي اليهودي في هذه الانتخابات، **فإن ما فعله كلينتون غير قابل للتكرار. فالفوضى التي نجح كلينتون في تصديرها للخارج سوف ترتد إلى الداخل الأميركي خلال السنوات المقبلة. وتهربه من الحروب والمواجهات البرية سيتحول إلى ضربات داخل الولايات المتحدة (إرهاب).**

وبهذا يمكننا القول: إن التاريخ يعيد نفسه، فالقانون الذي يمنع كلينتون من ترشيح نفسه للمرة الثالثة يحميه من السنوات الصاخبة التي تنتظر بلاده مع بداية الألفية الثالثة. وذلك على غرار ما فعله الموت مع سلفه تيودور روزفلت عندما أنقذه من رئاسة ذلك البلد في العشرينيات الصاخبة.

٣- ثورة الجنس الآري

أو الثورة الثانية في أميركا

الحكومة الفيدرالية

عميلة الصهيونية والعنف وسيلة التغيير*

... من الضروري التصدي للحكومة الأميركية التي تقمع الشعب الأميركي وتقتل أبناءه... فهذه الحكومة الفاسدة قاتلة... وكاذبة... لذلك أناشد الشعب الأميركي أن يتخذ خيار الحرية والموت...

هذه الكلمات ليست لناطق باسم الإرهاب الشرق أوسطي أو حتى العالمي، بل هي مقتطفات من خطبة المواطن الأميركي لويس بيم، التي ألقاها بتاريخ ٢٣/١٠/١٩٩٢م، في منطقة جبلية (روكي) في ولاية كولورادو الأميركية.

---

* منشورة في جريدة الكفاح العربي في ٣/١/١٩٩٨م.

في ذلك الاجتماع اتفق المتطرفون على إنشاء (حركة ميليشيات المواطنين الأميركيين)، وهي الحركة التي نفذت بعد ذلك التاريخ، أشد أعمال الإرهاب الداخلي إيذاء. وكان انفجار أوكلاهوما (١٩٩٥م) قمة هذه الأعمال.

ومن الطبيعي القول بأن قرار إنشاء الحركة لم ينشأ عن ذلك الاجتماع، فهذا الأخير كان مجرد لقاء إعلاني-تنظيمي، لحركة نشرت مبادئها طوال سنوات. لذلك لابد للمتابع من عودة إلى بدايات الإرهاب الداخلي الأميركي.

١- بدايات الإرهاب الأميركي الداخلي

يكتسي هذا الإرهاب صفة النازية الجديدة، إذ يدعو إلى نقاء تفوق الجنس الآري. ويعتبر نفسه ناطقاً باسمه. فإذا ماتوغلنا في تاريخ أميركا لوجدنا أن هذه العنصرية، كانت ممارسة بصورة مشروعة في أميركا، وأدت إلى قيام الحرب الأهلية الأميركية. هذه الحرب التي وضعت بعض الحدود للممارسات العنصرية دون أن تلغيها. ولربما ساهم الصعود الأميركي الذي أبرز الولايات المتحدة دولة عالمية عظمى، في انشغال هؤلاء العنصريين بممارسة إرهابهم خارج بلادهم. خصوصاً مع الرخاء الاقتصادي الذي نعموا به خلال تلك الفترة.

هذا ويرد موريس ديز، مؤلف كتاب (الميليشيات الأميركية) انبعاث العنصرية الأميركية الداخلية إلى بداية الثمانينيات. متجاهلاً بذلك أحداث الشغب العرقية التي شهدتها الولايات المتحدة في العشرينيات. ولهذا التجاهل مبرراته، وفي طليعتها تحول هذه الممارسات إلى العنف. ويركز ديز على زعيم هذه الحركة لويس بيم.

٢- دراكولا... الأميركي

يعتبر لويس بيم، الناطق باسم شعوب الجنس الآري، التي تعيش في الولايات المتحدة ويتزعم أفراد جماعته. وهو قد بدأ تاريخه الإرهابي بالتحرش بالملونين في منطقة خليج غالفستون في العام ١٩٨١م، حين بدأ بتكوين عصابات من الشبان حوله. حتى توصل إلى جمع ٢٥٠٠ عنصر مسلح يتفقون معه على تفوق الجنس الآري، وعلى ضرورة تكريس هذا التفوق. كما عرف هذا الزعيم الحبس في ولاية أركنسو. وما إن خرج من الحبس حتى ذهب مع مجموعة من أنصاره إلى النصب الكونفيديرالي في الولاية حيث هتفوا: (فلتذهب الحكومة الفيديرالية إلى الجحيم) بعد هذه الحادثة، بدأت جماعة بيم، تتخذ شكل التنظيم المسلح ذي المبادئ المعلنة بوضوح. فراح بيم يستغل الأزمات الاقتصادية

الأميركية، ويفسرها على أنها نتائج مؤامرة شيوعية-سامية، تشارك فيها الحكومة الأميركية. وعلى هذا الأساس كان بيم، يدعو هؤلاء المتضررين للانضمام إلى تنظيمه باعتباره الحل الأوحد لكل البيض الأميركيين ولأزماتهم.

٣- دستور الإرهاب الأميركي

هذا الدستور عبارة عن رواية بعنوان: (يوميات تيرنر) لمؤلفها ويليام بيرس، الذي يعتبر أحد المنظرين الرئيسيين للميليشيات الأميركية. وتتحدث هذه الرواية عن ثورة الجنس الآري. وهي تبدأ بنسف مبنى فيديرالي أميركي كبير، وتنتهي بحرب إبادة ضد الملونين الأميركيين، وضد أعضاء الحكومة الفيديرالية.

ويعتبر المؤلف بيرس، أن الحركة تعبر عن وجدان الأميركيين البيض الذين وإن كانوا غير منخرطين فعلياً في هذه الميليشيات، قد ضاقوا ذرعاً بسيطرة اليهود على أميركا، وبتصرفات الحكومة الفيدرالية التي تراعي مصالحهم. وهو يؤكد أن الخلاص من هذه الحكومة لايتم بالطرق الديمقراطية (الانتخابات) بل عن طريق الرصاص والدم والعنف (بما يدعوه أعضاء هذه الجماعات بالثورة الثانية).

انطلاقاً من هذه المبادئ، فإن هذه الميليشيات تعد العدة لمواجهة شاملة مع الحكومة الفيديرالية، وفي سبيل ذلك فهي تكدس الأسلحة، وتسعى لتنظيم هيكليتها بصورة أفضل. حتى توصلت إلى إنشاء (التحالف القومي للنازيين الجدد في أميركا) بزعامة بيرس، الذي يعتبر أن شعب الله المختار هو أعضاء هذه الميليشيات وليس غيرهم. فهو يعتبر اليهود (أبناء الشيطان).

أما عن استراتيجية هذا التحالف، فهي تتجلى بإخفاء الوجه العسكري، وعدم التركيز عليه، خوفاً من مواجهة مبكرة مع الحكومة، وفي المقابل فإن هذه الحركة تعمد لاستثارة خوف ونقمة الرأي العام، وتضخم الأزمات وإبراز دور الحكومة فيها. وبذلك توصلت الحركة إلى طرح نفسها على الصعيد السياسي كناقدة محتجة على ممارسات الحكومة الفيديرالية. وباكتسابها هذا البعد السياسي أصدرت فروع الحركة في الولايات المتحدة صحفها الخاصة. ومن هذه الصحف صحيفة (المواجهة) التي نشرت عقب انفجار أوكلاهوما رسالة لأحد قرائها يقول فيها: ((... إن عمليات عنف ستجري في كل مكان من أميركا، وأنها ستشهد صراعاً دامياً بين الأجناس، ينتهي بانتصار الجنس الآري الأبيض، ويهلك الآخرون جميعاً... إن الميليشيات الأميركية ستجعل النظام العالمي الجديد يدفع ثمن كل شبر يسيطر عليه في

أميركا، لأن هذه الميليشيات ستفرغ شحنة السخط والكراهية التي تملأ قلوب أعضائها ضد الحكومة الفيديرالية، وضد الغرباء في أميركا التي تقف أمام مفترق طرق شديد الخطورة)).

٤- المواجهات الأولى بين الإرهاب والحكومة

كما أسلفنا، فإن المشاعر العنصرية ومحاولات تنظيمها، كانت أقدم من ظهورها الفعلي، ومن هنا فإن الحركيين يعتبرون أن العام ١٩٨٣م هو تاريخ سقوط أول شهيد لحركتهم، وهو المدعو غوردون كاهل، الذي قتل بعد أن حاصره مئة شرطي دون أن يستسلم. أما عن المواجهة الأولى الفعلية بين الحركة وبين الحكومة فهي تعود إلى شباط (فبراير) ١٩٩١م. وحدثت في ولاية إيداهو، حين امتنع راندي ويفر من الحضور إلى المحكمة لمحاكمته بتهمة بيع سلاح. فتوجه مع زوجته وابنتيه سارة وراكيل وابنه سام، وصديقه كيفن هارس، إلى كوخه في منطقة روبي ريدج. وكان راندي قد خزن كميات هائلة من الأسلحة في ذلك الكوخ، لمواجهة الحكومة الفيديرالية عميلة الصهيونية، وهو تعبير متداول بين أفراد الميليشيات. وكانت المواجهة من ٢١ إلى ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٩١م، وأسفرت عن مقتل زوجة راندي وعن استسلام الباقين. وتحول موت فيكي الزوجة إلى قضية لكل

المتطرفين، على اعتبار أن اغتيالها دليل على عداء الحكومة الفيديرالية.

٥- التيارات داخل الميليشيات

يتفق أعضاء الميليشيات على عدة ثوابت خاصة بهم، وهي:

١- العداء للحكومة الفيديرالية وللصهيونية.

٢- ضرورة الخلاص من الملونين (النقاء العرقي).

٣- العمل على سيادة الجنس الأبيض.

٤- اعتماد العنف وسيلة للتغيير.

لكن هذه الحركات تتمايز عن بعضها خارج هذه الحدود العريضة. كما أن لكل ولاية تنظيماتها المحلية الخاصة بها. وعلى سبيل المثال نذكر:

أ- التيار المعتدل (نسبياً) ويقوده جون بيرش. وهو يعتبر معتدلاً لعدم مساهمته في أعمال عنف ممتدة.

ب- التيار المتطرف ومن أبرز فروعه:

أ- حركة الوطنيين المسيحيين وتتوزع بدورها على عدة تيارات.

ب- حزب الشعب. ويقوده الجنرال بوجريتش (مقاتل في فييتنام ومرشح للرئاسة عام ١٩٨٨م).

جـ- تنظيم الهوية. ويقوده وليام بيتر جال (مساعد سابق للجنرال ماك آرثر).

د- الحزب الوطني الأبيض. ويموله المليونير روبرت دي بون.

هـ- جماعة حليقي الرؤوس.

ولكي نكون فكرة عن الخلاف الفكري بين هذه الحركات وبين جهاز القيم الأميركي، فإننا نورد باختصار شديد مبادئ الحركة التي أسسها راندي ويفر (المشار له آنفاً) تحت اسم (الأمم الآرية البيضاء). وهو يعتبر أن أميركا هي أورشليم الجديدة، وأن الدستور الأميركي مستمد من العهد القديم، وقد أنزله الرب على الأجداد المسيحيين الأوائل، الذين قدموا إلى أميركا الشمالية. وبالتالي، فإن لقب المواطن الأميركي يجب أن يحصر في البيض فقط. وللهروب من الملونين والغرباء الذين يلوثون أميركا، فإنه من الأفضل العيش في الجبال. كما رأى راندي أنه إذا كان من المتعذر الخلاص سريعاً من غير البيض، فإن الخطورة الأولى تكمن في إقامة دولة خاصة بهم، في شمال غرب أميركا. مع الإصرار على ضرورة استعادة السيادة للمواطنين الأميركيين (البيض). الأمر الذي يحتم نشوب مواجهة بينهم وبين اليهود بصورة خاصة.

حكومة ظل إرهابية

بعيداً عن الآراء المتطرفة للعنصريين الأميركيين، نجد وقائع عديدة تطرح نفسها بإلحاح. من أهم هذه الوقائع نذكر:

أ- أثبتت دراسة عرضها مؤتمر علماء النفس الأميركيين، أن البيض يتساهلون بدرجات متفاوتة مع الملونين، لكنهم جميعاً غير قادرين على التقبل الكلي لغير البيض. مما يعني وجود درجات مختلفة من العنصرية.

ب- إن الجريمة المنظمة تملك فعالية مؤثرة في الاقتصاد والمجتمع الأميركيين. وهي تتكامل غالباً مع مجموعة المصالح، ولكنها تتناقض مع القوانين الفيديرالية.

جـ- هنالك في النظام الأميركي جماعات ضغط مختلفة المشارب والأهداف. تهاجم الحكومة الفيديرالية بقسوة أحياناً. وهي تستخدم الوسائل المتاحة لها في هذا الهجوم.

د- إن الإعلام الأميركي لايخلو من جرعات انتقادية للحكومة تتكثف أحياناً.

هـ- كان العدو الشيوعي، يجمع الجمهور الأميركي حول حكومته الفيديرالية، لمواجهة هذا العدو. ولقد فقدت الولايات المتحدة عامل الجمع هذا مع فقدانها للعدو الشيوعي.

و- يعترف المفكرون الأميركيون، بأن القيم الأميركية، مبنية على نقض ومخالفة قيم الأعداء. وعند افتقاد هؤلاء الأعداء، فإن نكسة ما تصيب جهاز القيم الأميركي.

هذه العوامل، وعديدة غيرها، تشير إلى أن العداء للحكومة الفيديرالية، ليس محصوراً بالميليشيات وحدها. بل إن هذا العداء يجمع أطرافاً عديدة أخرى في مايشبه حكومة ظل، تعادي الحكومة الفيديرالية، وتطرح ثقافة (وبالتالي قيماً) جديدة، تحمل مشاعر حقد دفينة تجاه الآخر. ولعل أخطر مافي ثقافة الحقد هذه، أنها تتوجه إلى أعداء داخليين، عندما تقع في مأزق غياب العدو الخارجي.

وأجد من المناسب هنا التذكير بمقولة المستقبلي الأميركي صموئيل هنتنغتون في مقالته الأخيرة (تآكل المصالح الأميركية)، إذ يقول: ((... لقد سارع الأميركيون إلى اتهام جهات شرق أوسطية بانفجار من صنع أميركي، والمفارقة هي أن هذا الانفجار لم يكن ليحصل لو كان هناك فعلاً عدو خارجي...)).

٤- عقدة البحث عن عدو*

هل بدأ تآكل المصالح الأميركية**

في لقاء حصل في نهاية الثمانينيات همس مستشار (غورباتشوف - جيورجي آباتوف) في أذن أحد المسؤولين الأميركيين بالعبارة التالية: ((... إننا نصيبكم بخطب جلل... فنحن نجردكم من العدو)).

من حينها وأكاديميو وكالة الاستخبارات الأميركية يبحثون عن عدو. فهؤلاء كانوا يعتقدون أن التاريخ لم يقدم أي نموذج لأحادية القطب العالمي. وبالتالي فإنهم كانوا مؤمنين باستحالة إلغاء أحد قطبي الحرب الباردة، أو تحويله إلى الشلل في تأثيره

* منشورة في جريدة الكفاح العربي يومي ٢٠و ١٩٩٧/١١/٢١م.

** صموئيل هنتنغتون: تآكل المصالح الأميركية - مقالة بالإنجليزية في مجلة (شؤون خارجية). الأميركية.

العالمي. وأن مثل هذا الشلل قد يحدث تدريجياً ريثما يتكامل قطب عالمي جديد، ليصبح جاهزاً للحلول مكان القطب المهدد بالشلل.

لكن الفراغ حصل، والعدو المفترض لم يتكامل، أو هو على الأقل لم يتظاهر بشكله التنافسي - الصراعي. فكان انتصار الولايات المتحدة مثيراً للهلع، لأن المفكرين والسياسيين الأميركيين لم يشكوا لحظة بوجود العدو، ولكنهم لايزالون عاجزين عن تحديده. وطرحت هذه الأوساط فرضيات عدة منها:

١- **الجريمة المنظمة**: التي تحولت إلى مؤسسات عابرة للقارات، تهدف إلى الربح المعتمد على اختراق القوانين، وخصوصاً العالمية، وقوانين القطب المستوحد على الأخص. وهذا العدو غير ممكن تحديده في الزمان والمكان. فهو فاعل داخل الولايات المتحدة ذاتها.

٢- **البعث الشيوعي**: من المعروف والمسلم به أن فشل التطبيق لا يعني فشل النظرية. ولدى المفكرين الأميركيين عشرات الأمثلة عن انبعاث بعض الحركات السياسية بعد جيل أو جيلين على اندحار تطبيقاتها. ويبقى السؤال عن مكان هذا الانبعاث: أهي الصين؟ أم كوبا؟ أم دول العالم الثالث التي اعتمدت مذاهبها الخاصة في الاشتراكية؟ أم أنها الدول العربية التي اعتمدت اشتراكية قومية؟.

٣- الإسلام: الذي مهما قيل عن ضعف دوره العسكري، وعن اختلاف تطبيقاته (التي تحوله إلى عدة إسلامات وليس إسلاماً واحداً) فإنه الطرف الوحيد الرافض مبدئياً للأحادية، لأن تعاليمه ترفضها. لكن الحفاظ على الخصوصية شيء، وخوض الصراع العالمي شيء آخر.

حول هذه الهوامات الثلاثة للعدو تمحورت التصورات الأميركية، التي راحت تطلق رصاصها في هذه الاتجاهات الثلاثة عند صدور أي حركة من أحدها.

لكنها كانت رصاصات الخائف، الذي يطلق عياراته، بسبب فقدانه أعصابه، وهو يعلم أنها طائشة ولكنها تمده بمشاعر الأمان.

على هذا الأساس خاضت الولايات المتحدة حرب كارتيل المخدرات، فكانت النتيجة ازدياداً كبيراً في كمية المخدرات المهربة إلى داخل الولايات المتحدة، وخاضت حرب الخليج الثانية، واستغلتها لتأمين مصالحها، وتدعيم قدرتها الضاغطة باتجاه سلام يريحها من العبء الإسرائيلي، ولكنها خسرت في المقابل قواعد لعبة الاحتواء المزدوج، ومعها القدرة على التحكم في محاولات انتقال النفوذ.

أما الإسلام، فإني أرد القارئ لتقرير نشرته الكفاح العربي (المجلة) لمراسلها في واشنطن (سمير كرم) قبل بضعة أشهر من نشوب أزمة الكويت، وفيه أن تراجع الأسعار العالمية للنفط يهدد أثرياء تكساس، لذلك فإنهم يضغطون على أصحاب القرار لافتعال أزمة في الخليج، تمنع تدفق نفطه بما يحقق ارتفاع الأسعار. وفي تقرير آخر (لسمير كرم أيضاً) أن الوكالة الأميركية تحدد نقطتين ضعيفتين في الخليج هما: ١- الكويت و ٢- البحرين. وها هي البحرين قد بقيت منتظرة.

أما عن مناسبة هذه المراجعة، فهي مقالة جديدة لصموئيل هنتنغتون (صاحب مقولة صدام الحضارات) في مجلة شؤون خارجية (أشهر المجلات العالمية السياسية) تحت عنوان: (تآكل المصالح الأميركية The Erosion of American Interest). والمقالة هي عبارة عن دراسة أكاديمية من فرع المستقبليات، وهي تبدو كتتمة منطقية لمقالته السابقة (صدام الحضارات) التي طرح فيها الإسلام عدواً للحضارة الغربية، والتي أثارت جدلاً، متعدد الأصعدة، غير مرشح للانتهاء في السنوات المقبلة القليلة.

في هذه المقالة، ينتقل المؤلف من تحديد هوية العدو، إلى شرح الضرورة الحيوية لوجوده، وإلى تبيان خسارة الولايات المتحدة من غياب هذا العدو.

أ- مقالة (تآكل المصالح الأميركية)

تأخذ هذه المقالة اتجاهاً أكاديمياً، يعتمد مبدأ التحليل الثقافي بحيث يبدو الموضوع وكأنه شأن أميركي خالص. لكن المؤلف يعتمد مسلمة علماء النفس القائلة بأن الذات تتموقع بالنسبة للآخر. ويتخذ هذه المسلمة منطلقاً لعرض العديد من التشابكات والتداخلات، ليتحول الموضع من شأن محلي ظاهرياً إلى مسألة عالمية في جوهره.

يبدأ المؤلف مقالته باستعراض فرضيات تعريف المصالح الأميركية عقب نهاية الحرب الباردة، والتي أثارت جدالاً لم يحسم بعد، بسبب التشويش وعدم وضوح الرؤية في تحديد اتجاهات الأحلاف الفرعية للاتحاد السوفياتي، الأمر الذي أدى إلى تعقد وتشابك الواقع والأوضاع. ونشوء مناخ عالمي جديد غير محدد المعالم.

وعدم التحديد هذا يفتح الأبواب واسعة أمام إطلاق التفسيرات والأوصاف المتباينة كمثل وصف (نهاية التاريخ). أو وصف الصراعات الراهنة بأنها ناجمة عن الفقر، أو فرضية النكوص (العودة) إلى السياسات التقليدية وقواها، أو تحول الصراعات إلى الاتجاه العرقي، أو نشوئها بين دعاة العولمة ودعاة التفكك، وأخيراً (صدام الحضارات الذي طرحه المؤلف).

ويخلص هنتنغتون إلى أن العالم الراهن هو مزيج من كل هذه الصراعات، وفي هذا تراجع عن تأكيداته السابقة، على سير العالم باتجاه صدام الحضارات، وضرورة الاستعداد لهذا الصدام.

على أن الاعتراف بوجود عدة محركات للصراعات، يستوجب أخذها في الحسبان لدى تحديد مصالح أي طرف وتأكيد مصالح الولايات المتحدة التي تمثل قطباً عالمياً أُحادياً على علاقة بكل هذه الصراعات. وبما أن المصالح القومية تنبع من الهوية الوطنية، فإن من واجب الأميركيين أن يتعرفوا إلى أنفسهم وأن يعرفوا من هم بالضبط، قبل أن يحاولوا تحديد مصالحهم القومية.

عند هذا الحد وجد المؤلف أن من واجبه أن يعرض رؤيته للهوية الأميركية. وفي العرض رأى لهذه الهوية مكونين أساسيين.

أولهما الثقافة: وهي مجموعة القيم والنصوص التي أرساها المستوطنون الأوائل القادمون من شمال أوربة وبريطانيا خصوصاً. وهم الذين كانوا في أغلبيتهم الساحقة من البروتستانت (الإنجيليين). وهذه الثقافة بنيت على نظام رمزي يضم اللغة الإنجليزية والتقاليد التي نظمت العلاقة بين الدولة والدين.

أما ثاني المكونات فهو العقيدة التي اتسع مفهومها ليشمل كل الأفكار والمبادئ التي شكلت نصوص الوثائق الأولى للأميركيين.

كمثل الحرية والمساواة والديمقراطية والدستور والليبرالية، والحكومة محدودة النفوذ، واحترام المبادرات الفردية.

ويعترف المؤلف أن التغيرات التي أعقبت نهاية الحرب الباردة، قد أصابت جذور الهوية بالاهتزاز، وبالتشكيك (إذ كانت هذه الجذور باقية لغاية الآن). مع هذا الاهتزاز بات الأميركيون يفتقرون إلى (شعور مؤكد) بهويتهم الوطنية. مما جعلهم حائرين في تحديد مصالحهم القومية وتعريفها بالوضوح اللازم. من هنا كان طغيان سياسة المصالح التجارية وسيطرتها على الخارجية الأميركية.

ويعود المؤلف ليرد فقدان القدرة الأميركية على التوجه إلى غياب العدو، فيورد قولاً للروائي الأميركي (جون أبدايك) مفاده: ((ما هي الحكمة في أن يكون المرء أميركياً... دون أن تكون هناك حرب باردة؟!)). فالمؤلف يوافق على هذا القول لأن سقوط (إمبراطورية الشر) ألغى تهديداتها لنظام القيم الأميركية، فما هو المعنى حقاً في أن يكون المرء أميركياً...؟ ثم يستطرد المؤلف ليوضح أن الأميركيين قد أقاموا ((عقيدتهم على أساس أن تكون نقيضاً لآخر غير مرغوب فيه. ففي عصر الاستقلال ميز الأميركيون أنفسهم عن البريطانيين ثقافياً وسياسياً، باعتبار أن عقيدة البريطانيين كانت تمثل الظلم والأرستقراطية والقهر...

فاعتنقت أميركا النقيض المتمثل بالديمقراطية والمساواة والنظام الجمهوري. وعاشت أميركا حتى نهاية القرن التاسع عشر على أنها نقيض للآخر الأوربي.

من منطلق أن هذا الآخر كان يمثل الرجعية والجمود، وقيود النظام الإقطاعي، وانعدام المساواة، طرحت أميركا نفسها ممثلاً للمستقبل بتقدميته وحريته ونظامه الجمهوري واعتماده مبادئ المساواة.

لكن الأمر اختلف مع بدايات القرن العشرين حيث بدأت الولايات المتحدة تلعب دوراً دولياً أكثر إيجابية وتقدماً. واقترن هذا الدور بتراجع الاستعمار وببعض التقدمية الأوربية. فطرحت أميركا نفسها رائدة للحضارة الأوربية - الأميركية، وباتت تتصدى لمن يتحدى هذه الحضارة وقيمها.

في البداية كانت الإمبراطورية الألمانية هي التحدي وتلتها النازية. فإذا ما انتهت الحرب العالمية الثانية بإنهاك شديد للدول الأوربية طرحت أميركا نفسها قائدة للعالم الديمقراطي الحر، في وجه عدو آخر غير مرغوب فيه هو الاتحاد السوفياتي وعالمه الشيوعي.

هل تبدأ الثورة العالمية الجديدة من داخل الولايات المتحدة

بين الأهداف الأساسية للسياسة الخارجية الأميركية الدعم الأميركي المستمر لإسرائيل. وكذلك مشروع مارشال والحلف الأطلسي، وتطوير برامج الأسلحة النووية والصاروخية، وعمليات المخابرات والمساعدات الخارجية، وإزالة أو تقليص معوقات التجارة، وبرنامج الفضاء، والتحالف العسكري مع اليابان وكوريا، ونشر القوات الأميركية فيما وراء البحار، وحرب فيتنام والانفتاح على الصين ودعم المجاهدين الأفغان.. إلخ.

ويقرر المؤلف أن كل هذه المحاور عرضة للاضمحلال والاختفاء بعد نهاية الحرب الباردة (لانتفاء مبرراتها). فإذا كانت الحرب الباردة قد ساعدت على بلورة هوية أميركية مشتركة، لعبت دور الموجه لحكومتهم، فإن نهاية هذه الحرب قد عرضت كل المحاور المرتكزة إلى قيم سابقة، للاهتزاز، بما فيها الهوية نفسها.

ويرى هنتنغتون أن من عناصر هذا الاهتزاز، مظاهر ازدياد معارضة الأميركيين للسلطة الفيديرالية، التي تشكل رمز هذه الهوية. وهو يتساءل عن دور هذا الاهتزاز في قيام الوطنيين

المتعصبين بتفجير أوكلاهوما، وعما إذا كانوا سيقدمون على مثل هذه الأعمال بوجود تهديد خارجي حقيقي؟.

ويشير المؤلف هنا إلى أن إلصاق تهمة انفجار أوكلاهوما بالمسلمين والعرب، إنما كان نتيجة الحاجة النفسية للاعتقاد بوجود عدو جديد خارجي.

لكن السخرية (كما يرى المؤلف) أن حادثة التفجير ربما تكون - ولو جزئياً - نتيجة لغياب مثل هذا العدو! كما يرى أن الرئيس العراقي صدام حسين لم يعد كافياً ليكون ممثلاً لهذا العدو. كما أن الأصولية الإسلامية لا تكفي أيضاً، خصوصاً أن قواعدها بعيدة جغرافياً. أما الصين فهي في وضع أكثر تعقيداً من أن تشكل خطراً وشيكاً نظراً لأنها غارقة في مشاكلها.

ويخلص هنتنغتون من هذه المقدمات إلى التنبيه من احتمالات تفسخ المجتمع الأميركي، وهو يرى فئتين من العوامل المشجعة على هذا التفسخ: الفئة الأولى وتتمثل بالتغيير الذي طرأ على حجم الهجرة إلى الولايات المتحدة والمصادر الجديدة لهذه الهجرة (خصوصاً من الدول الشيوعية السابقة).

أما الفئة الثانية فتتمثل بتعاظم الاتجاه نحو التعددية الثقافية في المجتمع.

أما الهجرة إلى الولايات المتحدة فقد زادت بشكل درامي، وأدت إلى تغيير قوانينها في العام ١٩٦٥م، وتحولت موجات الهجرة الحديثة إلى مصدرين رئيسيين هما آسيا وأميركا اللاتينية، خصوصاً أن لهؤلاء الوافدين معدلات مواليد مرتفعة، الأمر الذي يهدد التوزيع الديموغرافي للمجتمع الأميركي. ويعود المؤلف إلى تقديرات مكتب الإحصاء الأميركي التي تقول: إن نسبة تعداد الأميركيين البيض ستنخفض بحلول منتصف القرن الواحد والعشرين من ثلاثة أرباع السكان - كما هي الآن - إلى نصف السكان. وسيتوزع النصف الآخر كما يلي: ٢٥٪ من ذوي الأصول اللاتينية، و١٤٪ من السود، و٨٪ من الآسيويين مع مهاجري جزر المحيط الهادئ. وهذا التغير سيحمل معه تغييراً في الخريطة الدينية الأميركية، خصوصاً أن المسلمين يتزايدون بكثرة. ومع هذا التغيير الديموغرافي والديني هناك تغيير في مواقف المهاجرين الجدد. فهؤلاء كانوا يشعرون بالتمييز، عندما لا تتاح لهم فرص التكامل في المجتمع الأميركي، لكنهم باتوا يحسون بالتمييز عندما لا يسمح لهم بالاحتفاظ بخصوصيتهم بعيداً عن التيار العام للمجتمع. وبهذا ينتقل المؤلف إلى الفئة الثانية من عوامل التفسخ، والتي برزت عقب انتهاء الحرب الباردة، وهي تعاظم الميل نحو التعددية الثقافية، حتى إنه يسجل أن إيديولوجيات

هذه التعددية تنكر أو تستنكر عملية الاستيعاب الثقافي للمهاجرين الجدد، كما تنكر أصلاً وجود ثقافة مشاركة (أي إنها ترفض الهوية الأميركية ولا تعترف بها) وهي ترغب في تكوين ثقافات فرعية متميزة عن التيار العام، طبقاً لتميزها العنصري أو العرقي. ويشير المؤلف إلى حدة هذا الاتجاه لدرجة اعتباره الرئيس كلينتون أول رئيس أميركي يشجع التنوع والاختلاف، بدلاً من تدعيم الوحدة الثقافية للبلاد كما فعل أسلافه.

انطلاقاً من هذه النقاط، يوضح هنتنغتون أهمية وحجم التحولات الراهنة وتهديداتها، متعددة الصعد، للهوية الأميركية، ودور هذه التحولات في التغيرات التي ستطرأ على تعريفات المصالح القومية الأميركية في المستقبل المنظور، والتي يحدد لها المؤلف النقاط - المنطلقات التالية:

أ- ترتبط المصالح القومية (التي يهتم الأميركيون بالدفاع عنها) بنواحي الأمن والرخاء المادي، والجوانب الأخلاقية ومبادئها.

ب- كان شبح الحرب الباردة يؤمن الحشد الجماهيري للحكومة الأميركية، وعليها أن تجد الآن الهدف (أو الأهداف)، التي تؤمن لها استمرارية هذا الحشد.

جـ- أكدت دراسة في جامعة هارفارد (١٩٩٦م) الفرضيات القائلة بأن نهاية الحرب الباردة، غيرت فعلياً في طبيعة المصالح الأميركية، وهو تغيير يجب وعيه كي يمكن التحكم به.

وهنا لابد من طرح الأسئلة التالية

١- إذا كان العراق لم يعد كافياً للعب دور كفاية الحاجة النفسية الأميركية لعدو، فلماذا استمرار الحصار على الشعب العراقي؟ وهل كان هذا الشعب في يوم ما، مصدراً لشعور الأميركيين بالخطر، أم أنه ذهب ضحية سوء تقدير أميركا لمصالحها؟ (لكن المخالفة المنطقية الأكبر هي الإصرار على الربط بين الشخص والأمة).

٢- إذا كان المؤلف مقتنعاً بأن الأصولية الإسلامية لا تشكل عدواً فقط بسبب بعد قواعدها الجغرافية. فإن ذلك يعني أنه بتجاهل راهنية عصر المعلومات.

٣- يرى أن الصين لا تشكل خطراً وشيكاً. وهي عكس الرؤية التنبؤية للرئيس نيكسون الذي قال في مذكراته: (احذروا المارد الصيني إذا أفاق) والذي أصر على التقارب مع الصين وهندسته تجنباً لهذا الخطر. مع إضافة أن شيوعية الصين هي شيوعية - قومية. ويمكن للباحث أن يغير رأيه إذا نظر للجانب القومي لهذا البلد وليس إلى الجانب الشيوعي.

٤- يتكلم المؤلف عن رغبة المهاجرين الجدد في إرساء ثقافات فرعية وكأنها حديثة، أو كأنها نتيجة للحرب الباردة. ويعترف في المقابل بأن هؤلاء، ظلوا لسنوات يشتكون من عزلهم (وبالتالي إجبارهم على إقامة ثقافاتهم الفرعية) عن التيار العام الأميركي.

٥- يعتبر المؤلف أن الرئيس كلينتون هو أول رئيس يشجع التنوع والاختلاف. وهذه تهمة غير عادلة، بدليل وجود وقوة تأثير اللوبي اليهودي مثلاً، ومساهمة قائمة طويلة من الرؤساء الأميركيين في دعمه وتشجيعه.

جـ - صدام حضارات أم صدام قوميات؟

أهمل المؤلف جملة التغييرات السياسية - الجغرافية التي أعقبت نهاية الحرب الباردة، وهو يبحث عن تعريف جديد للمصالح الأميركية. فقد تكلم المؤلف على اهتزاز جذور الهوية الأميركية بعد فقدان العدو... وهو بذلك يتجاهل إصرار الولايات المتحدة على التبشير بعناصر هذه الهوية ومحاولاتها فرضها عن طريق العولمة أو حتى عن طريق القوة.

في المقابل يتجاهل هنتنغتون التغيرات الطارئة على خريطة العالم والعائدة لانبعاث القوميات، وليس فقط في أوربا الشرقية والاتحاد السوفياتي السابق، بل في جميع أنحاء العالم، وحتى داخل الولايات المتحدة نفسها.

فإذا ما قرنا هاتين النقطتين وجدنا أن العالم يسير باتجاه بعث وإعادة إحياء قوميات (بعد موتها الفعلي) لا سبيل لحياتها إلا بحفاظها على هويتها، وخصوصياتها الثقافية، في حين تسير الولايات المتحدة باتجاه فرض هويتها المهتزة كهوية عالمية.

إن المؤلف يدرك هذه النقاط تماماً، لكنه يتجاهلها عن قصد وعمد، أن عدوى البعث القومي وصلت إلى الأميركيين البيض الذين نظموا ميليشيات يعترف المؤلف بخطرها على الحكومة الفيديرالية. فهل تبدأ الثورة العالمية الجديدة من داخل الولايات المتحدة نفسها؟. إنه السؤال الذي يتجنب هنتنغتون الإجابة عنه!.

٥- الانهيارات المالية في البورصات الفردية تهدد العولمة*

الإثنين في ١٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٧م هو اليوم الذي أجبر البورصات على طرح مئات الأسئلة، وعلى البحث عن إيجاد معادلات منطقية، وقواعد للأسواق المالية. لكن معظم هذه الأسئلة بقيت بدون أجوبة، لتبقى البورصات شبيهة بسباق الخيل المنفتح على جميع المفاجآت. والذي بقي محفوراً في أذهان العاملين في الأسواق المالية كان اسم (الإثنين الأسود). فماذا جرى في بورصة وول ستريت يومها؟

١- الإثنين الأسود (١٩٨٧م)

الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم وصل التدهور في وول ستريت إلى حدود الانهيار، الذي أكده ناطق باسم مؤسسة

* منشورة في جريدة الكفاح العربي في ١٥/١١/١٩٩٧م.

سالومان إخوان (لازلو بيريني) بقوله: ((إذا استمر الوضع على هذه الحال فإننا نصبح جزءاً من التاريخ)).

في ذلك اليوم انخفض مؤشر داو جونز للمواد الصناعية بمقدار أفقد الجميع رباطة جأشهم، فقد تدنى المؤشر ٥٠٨ نقاط لتصل الخسائر إلى ٥٠٠ مليار دولار في يوم واحد. وذلك دون أية مبررات أو أسباب معروفة.

البيت الأبيض، الذي تحوله مثل هذه الكارثة في حال استمرارها جزءاً من التاريخ، صرح بلسان الرئيس ريغان شخصياً: ((... إن المؤشرات الاقتصادية الأميركية قوية جداً ولا داعي للاستنفار)).

لكن المتعاملين في السوق يعرفون جيداً، إن الإشارات الاقتصادية القوية والخيارات الاستثمارية المنطقية لاتؤثر إلا جزئياً في خيارات السوق. فهناك عوامل فردية أكثر تأثيراً، ويمكن تلخيصها بآمال المستثمر وبمخاوفه. وهذه العوامل تجعل التحكم في تصرفات السوق أمراً يحتاج إلى الكثير من اللامنطق.

٢- الإثنين شبيه الأسود (١٩٩٧م)

الإثنين في ٢٧ تشرين الأول ١٩٩٧م، يسجل مؤشر داو جونز أكبر هبوط له في يوم واحد منذ يوم الإثنين الأسود. فقد هبط

هذا المؤشر بنسبة ٧,٢٪ في ذلك اليوم أي بما يعادل ١٥٣ نقطة. وتدخل البيت الأبيض على لسان (مايك ماكوري) الذي صرخ: «... إن الرئيس كلينتون واثق من قوة المؤشرات الاقتصادية الأميركية». لكن هذه الثقة لم تمنع اتخاذ خطوة هي الأولى من نوعها في تاريخ وول ستريت، حيث تم وقف التعامل فيها لمدة نصف ساعة، ثم أقفلت في نهاية ذلك النهار قبل نصف ساعة أيضاً.

في كلتا الحالتين تم تجاوز الآثار الانهيارية، وفق آليات لاعلاقة لها بالمؤشرات الاقتصادية، ولا بالخيارات المنطقية. ولقد تكرر استخدام هذه الآليات نفسها في ١٩٨٧ و١٩٩٧م. وبقيت الحاجة ملحة لمعرفة قواعد عمل نظام السوق.

٣- الدراسات النفسية - الاقتصادية

إن الأهمية التي تتمتع بها العوامل الفردية، وتضخم هذه الأهمية وقت الأزمة، وجَّها الدراسات باتجاه علم النفس الاقتصادي. وإذا كانت هذه الدراسات لم تعلن بعد بالنسبة للأزمة الأخيرة. فإن فرضيات عديدة قد وضعت لهدف الدراسات وللعوامل المؤثرة في توجهات المستثمر. ومنها نذكر:

أ- إن ارتباط بعض الشركات الأميركية الكبرى بمشاريع واستثمارات آسيوية جعل من أسهم هذه الشركات موضعاً للشكوك بعد الاضطرابات التي أصابت الأسواق الآسيوية، خصوصاً بعد إعلان الولايات المتحدة عدم رغبتها في التدخل لمصلحة استقرار هذه الأسواق.

ب- عامل الجذب الذي شكله هبوط أسعار الذهب لأدنى مستوى له منذ العام ١٩٨٥م، واقتراح وزير الاقتصاد السويسري ببيع ١٤٠٠ طن من احتياطي سويسرا من الذهب... إلخ.

جـ- الأزمة الاقتصادية المكسيكية والتدخل الأميركي المباشر في حلها.

د- الأخبار الاقتصادية: هذه الأخبار تضم عادة مجموعتين من العوامل، واحدة تضم أسباب الانتعاش، وأخرى تضم أسباب الانهيار. وبعد حدوث الظاهرة المالية تعمد الصحافة لإبراز الأخبار التي تبررها انتعاشاً أو انهياراً.

وواقع الأمر أن المحللين الاقتصاديين لم يكونوا ليعطوا أهمية للعوامل النفسية في سلوك السوق، بل هم كانوا يتجاهلونها. فهم كانوا ينطلقون من نظرياتهم الاقتصادية القائلة بأن المعلومات الاقتصادية هي التي توجه سلوك السوق، بحيث يصبح المستثمر

مجرد أداة لتنسيق وتشغيل المعلومات. وذلك ضمن تفكير عقلاني يضع السعر المنطقي للسهم، بحيث يكون هذا السعر مرآة تعكس قيمته الحقيقية.

لكن هذه النظرية تهمل عوامل فردية غالباً ماتكون أشد أثراً في سلوك السوق من النظرية نفسها. فالمستثمر لايعتمد في قراراته فقط على المعلومات الصلبة، بل هو يعتمد أيضاً على التحليلات والهمسات السرية (الشائعة) وعلى الحدس والمزاج والتقلبات والعواصف والأخبار غير الاقتصادية، وحتى أحياناً على المعتقدات الخرافية الشائعة. وللدلالة على ذلك يلاحظ النفسانيون الاقتصاديون أن أسعار الأسهم في (وول ستريت) ترتفع عادة أيام الجمعة، وتميل إلى السقوط الحاد عندما يصادف الجمعة في الثالث عشر من الشهر (لأن المستثمر الأميركي يتشاءم من الرقم ١٣، ويفضل عدم التعامل في ذلك اليوم، ويتفاءل بيوم الجمعة إلا إذا كان واقعاً في ١٣ من الشهر).

هذه العوامل الفردية هي التي أسست للدراسات النفسية الاقتصادية التي سنعرض لمقتطفات منها فيما يلي:

٤- سيكولوجية البورصة

المؤلف (ديفيد دريمـز) ولـه كتـاب آخـر بعنـوان (**الاستراتيجية الاستثمارية المعاكسة**) يلخص رأيه في الموضوع بالقول: ((إن الموجات الهوسية للجمهور، وعلى الرغم من القرون التي تفصلها عن بعضها البعض، كانت لها نتائج متشابهة بشكل مدهش، فهي تبدأ عادة في أجواء اقتصادية مزدهرة، حيث يبحث الفرد عن فرص جديدة للاستثمار (وهم يرغبون في لاوعيهم في الاعتقاد بوجود هذه الفرص) فيراها في فقاعات الازدهار، التي تستطيع أن تعمي حتى الخبراء عن أخطارها. وكلما ارتفعت الأسعار كان ذلك دليلاً على تحقيق النبوءة، التي تعطي قيمة لهذه الفقاعات، مما يجذب المزيد من الناس إلى دوامة المضاربة. ولقد لعبت الشائعات دائماً دورها في إذكاء هذه الموجات الهوسية. وتتركز هذه الشائعات عادة حول الثروات الطائلة التي جناها بعض المستثمرين، ثم عن المزيد من الأرباح المتوقع تحقيقها. ثم يأتي أخيراً دور الشائعات التي تتنبأ بالانهيار، فيحدث. هذا ويعتمد المستثمر المتعطش للكسب السريع على إحساسه الخاص بالواقع الاجتماعي. عن هذه الحالة يقول عالم النفس (ليون فيستنفر): ((إنها حالة ذهنية يصبح فيها رأي ما، أو موقف ما، صحيحاً ومناسباً، لأن جماعة من الناس تعتنقه أو تؤمن به)). بموجب هذه

الحالة يأخذ المستثمر في الاعتقاد بأنه طالما كان المستثمرون الآخرون يظنون بأن الوقت مناسب للشراء، فإن عليه أن يشتري. وفي خلال الفترة الذهبية للسوق (١٩٥٠-١٩٦٦م) أخذ المستثمرون الناجحون يكتسبون بنرجسية متضخمة إذ كادوا يفقدون إحساسهم واتصالهم بالأخبار الاقتصادية، وحتى بالأخبار ككل، ويعتمدون فقط على خبرتهم التي كانت تبدو لهم كافية. ولكن مع العام ١٩٦٦م وبداية مظاهر عدم الاستقرار الاقتصادي، رأينا هؤلاء يتراجعون عن نرجسيتهم (تحت وطأة الخسائر)، وأصبحت السوق تظهر حساسية تجاه الأخبار الاقتصادية وأخبار الانتخابات الرئاسية وكوارث الطيران... إلخ، بل إن هذه الحساسية امتدت إلى المستثمرين، وبات لها تأثيرات إيحائية عليهم جعلت بعضهم يلجأ إلى من يظنونهم خبراء.

٥- دراسة جامعة (يال)

قام الباحث (روبرت شيلر-جامعة يال) بوضع استمارة إحصائية أرسلها إلى ألفي مستثمر من الناجحين. وهدفت الأسئلة لسبر أفكارهم ومشاعرهم خلال فترة اضطراب السوق. فطلب منهم تقدير أهمية الأحداث التالية في (الإثنين الأسود) (جرت قبله بأسبوع).

أ- رفع مصرف كيميكال بنك لنسبة الفائدة الأساسية.

ب- إعلان أرقام العجز التجاري في الميزانية الأميركية.

جـ- الهجوم الأميركي على محطة نفط إيرانية.

د- عوامل داخل السوق نفسها.

ولقد أجاب على هذه الاستمارة حوالي الألف مستثمر، رأت غالبيتهم أن الحدث الأهم، هو ماجرى داخل السوق ذاتها. ففي الأسبوع السابق للإثنين الأسود شهدت الأسعار تقلبات حادة، وجاء هبوط أسعار ذلك اليوم نتيجة لهذه التقلبات، حيث أدى ذلك اليوم إلى نشوء حالة من الهلع الجماعي المتزايد في السوق، وكان الأمر يشبه مايحدث في صالة مسرح، عندما يندفع بعض الأشخاص نحو بوابة الخروج وهم يصيحون: ((حريق... حريق)) فيشتد هلع الجمهور ويتدافع نحو البوابة، (دون أن يعرف مالإذا هناك حريق أم لا) بحيث يموت البعض دوساً بالأقدام، وهذا بالضبط مأأشارت له اللجنة التي كلفها ريغان بالتحقيق في أسباب انهيار (الإثنين الأسود)، حين أفادت أن بعض المؤسسات الاستثمارية الرئيسية، والصناديق المشتركة قد بدأت بالبيع.. مما أدى إلى تحطيم الثقة لدى المستثمرين الصغار فتدافعوا للبيع. وحسب ماقال رئيس مركز دراسة السلوك الاستثماري في شيكاغو (ريتشارد روس): ((لقد سيطرت غريزة الجمهور على الموقف)).

٦- دراسة جامعة (كولومبيا)

عالم النفس (ستانلي شاكتو-جامعة كولومبيا)، قام بدراسة السلوك الاستثماري، وتصرفات المستثمرين، وخلص إلى أن سعر السهم هو أكثر من مجرد رقم محدد بشكل موضوعي عقلاني. إنه رأي جماعي. وبهذه الصفة فإن سعر السهم يخضع للضغوط الاجتماعية نفسها، والتأثيرات الثقافية التي تخضع لها الآراء الجماعية، كتقويم الأعمال الفنية وتفضيل مرشح سياسي على آخر، وانتشار موضة من الموضات وشعبيتها.

وعندما تصبح إحدى تقليعات (وول ستريت) معدية، فهي تصنع فقاعة (كما يرى شيلر-جامعة يال) تنمو بسرعة كبيرة بفضل وسائل الاتصال المتطورة، فينجذب المستثمر نحو هذا السهم بدافع ارتفاع قيمته في السوق، وليس بسبب ارتفاع فعلي في قيمته. ويتم هذا الانجذاب بدافع الأمل والطمع. ولكن سرعان ماتنقلب الآية، ويندفع المستثمر بذعر نحو البيع.

٧- دراسة جامعة (أريزونا)

الباحث (فيرتون سميث-جامعة أريزونا) حاول الإجابة عن سؤال: ((متى يطمع المستثمر ومتى يخاف؟)) فقام بدراسة فقاعات

المضاربة في أسواق وهمية بمشاركة طلاب يلعبون دور المستثمرين. وفي أكثر من ستين تجربة لاحظ سميث أن المستثمرين كانوا يتسببون بدورات ازدهار وانهيار متعاقبة، عن طريق طرحهم لأسهم بأسعار أكبر كثيراً من قيمتها الفعلية، ولقد استمرت هذه الدورات تتعاقب حتى انهارت السوق تماماً!.

وهذا تنبؤ خطير بانهيار مستقبلي للأسواق المالية. واعتقد سميث أن سبب الانهيار هو عدم خبرة طلابه بأحوال السوق، فأعاد التجربة على رجال أعمال من (توسون)، فكانت فقاعات هؤلاء، أكبر وأخطر بكثير من فقاعات الطلاب!!. فعاد سميث للقول بأن حدوث هذه الفقاعات سيصبح أقل احتمالاً، حين يكتسب المتعاملون خبرة في السوق. ولكن مايحصل في الواقع أن السوق تستقبل دائماً مستثمرين جدداً يشكلون الوقود لدورات الازدهار والانهيار المتعاقبة في البورصات.

ولكن هل يستطيع المستثمر ذو الخبرة أن يقاوم طمعه، وأن يتصرف إزاء هذه التقلبات غير المتوقعة وغير المنطقية؟. لنا هنا عودة إلى شيلر الذي تشير دراسته إلى أن الخبراء من المستثمرين، كانوا يعرفون أن سعر الأسهم أكبر كثيراً من قيمتها الفعلية، ولكن طمعهم دفعهم للاحتفاظ بها، وهناك ١٥٪ فقط منهم تخلص من هذه الأسهم قبل انهيار أسعارها.

٨- البورصة بين الفردية والعولمة

بالعودة إلى نتائج اللجنة التي ألفها الرئيس ريغان لدراسة (الإثنين الأسود)، والتي رأسها رجل المصارف الاستثمارية (نيقولا. ف. برادي)، فإن اللجنة أوصت بالتالي:

١- إيلاء قدر أقل من الثقة لحكمة المستثمرين والانتباه إلى دوافعهم الفردية.

٢- إخضاع الأسواق المختلفة لسيطرة رقابة فيدرالية مركزية واحدة.

٣- استخدام آليات (قطع التيار) التي تشبه ماهو مستعمل في الكهرباء.

وذلك للحد من التقلبات السريعة (على هذا الأساس تم إغلاق السوق قبل نصف ساعة من موعدها، وتعليق العمل في البورصة نصف ساعة أثناء إثنين ١٩٩٧م).

٤- وضع حدود للأسعار باعتماد مبدأ قطع التيار.

ولقد نشرت لجنة برادي تقريرها يوم الجمعة في ٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٨م، وفي اليوم نفسه هبط مؤشر داو جونز بصورة مقلقة، دون أية أسباب منطقية واضحة، مما حدا بـ(شيلر) للقول: ((ربما كان لسوق الأسهم حياته الخاصة!)).

والآن ندعو إلى إعادة قراءة الحدث لمتابعة الأسئلة التي يستثيرها، فنجد أن المبرر المنطقي الوحيد لانهيار العملة المكسيكية، يتمثل في خضوعها لشروط البنك الدولي، ولما يسمى بقوانين نظام السوق. وفي هذه الحالة فإن المكسيك ليست سوى مثال عما يمكن أن يحدث في الدول الفقيرة، إذا هي أذعنت لهذه الشروط دون تفكير بخصوصية ظروفها الخاصة. وإذا كانت الولايات المتحدة قد حركت الآليات الموضوعية المتوافرة لديها، بالإضافة إلى بعض (الآليات السوداء) لدعم العملة المكسيكية، فهي قد أعلنت على لسان الرئيس كلينتون عجزها عن دعم العملات الآسيوية المهددة (استعمل كلينتون تعبير عدم الرغبة بدلاً من مصطلح العجز)، لكن المستثمرين فهموا أن عدم الرغبة هو العجز. فكانت أزمة البورصات الآسيوية التي لم تستطع (وول ستريت) تجاهلها أو تجنب التورط فيها فكان الإثنين شبيه الأسود.

لكن أكبر الأسئلة وأخطرها يبقى حول إمكانية العولمة الاقتصادية واتفاقية الغات. فهل يمكن أن يرتبط اقتصاد العالم، بطمع قسم من المستثمرين وبخوف قسم آخر منهم؟ وهل يمكن أن نعولم الاقتصاد لكي نعتمد على الآليات السوداء في حماية هذا الاقتصاد؟ وهل ستكون نهاية الديمقراطية في سياسة قطع التيار التي تمنع المستثمرين من الإدلاء بآرائهم، ومن حقهم بالربح أو

بالخسارة؟ فتكون البورصة هي مقبرة الديمقراطية! وبعدها من يملك قرار توجيه هذه (الآليات السوداء) ولمصلحة من سيوجهها؟ وبناء على أي معايير سيتم هذا التوجيه؟. بانبعاث ميليشيات أميركية متطرفة، تدعو إلى ثورة أخلاقية على جهاز القيم الأميركي، وصولاً إلى نسفه وتغيير معالم المجتمع الأميركي. بناءً عليه نستطيع القول بأن سعي كلينتون لإيجاد ميدان اختبار لشخصيته الرئاسية، هو سعي معاكس لمجرى الزمن، لأن الراهن الأميركي يشير إلى ملكية كلينتون للدعم الشعبي، ولكنه لايملك بقية العوامل المؤثرة. فالهيمنة في الكونغرس للجمهوريين وأجواء التوقع تتجه اقتصادياً، أما مجموعات المصالح فقد بدأت تحس بالخسارة في سباق الأسواق العربية، وبذلك يكون مشروع السلام في الشرق الأوسط، هو الميدان الوحيد المتاح أمام كلينتون. وهو بدوره متعثر بسبب التطرف الذي يبديه نتنياهو. ويبقى العرض المتاح للرئيس هو رئاسة جامعة (يال) حيث تدرس ابنته. لذلك فإنه لايزال يبحث عن بدائل!.

٦- الأزمة اليوغوسلافية
والإعلان عن مبدأ كلينتون

٦/٣/١٩٩٩م

العجز الروسي أمام الوضع اليوغوسلافي لا يضاهيه إلا العجز الأوروبي. فإذا كان صحيحاً ارتباط روسيا بصربيا ارتباطاً عضوياً، فإنه ليس بأكثر عضوية من روابط روسيا بجمهوريات الاتحاد السوفياتي السابقة، حيث توجد أقليات روسية زرعها السوفيات وتركوها هناك. أما دول أوروبة الغربية المشاركة بحماسة منقطعة النظير في ضرب يوغوسلافيا، فإنها ترسي مرغمة مقهورة (مبدأ الأقليات الأميركي) وهو مبدأ يستطيع تفجير أوروبة الغربية بكاملها. فإذا ما راجعنا الهيكليات الديموغرافية لهذه الدول لوجدنا فيها فوضى نذكر بعض أهم ملامحها ونبدأ بـ:

١- بلجيكا: التي تنقسم بين قوميتين هما: الوالان (فرنسية)، والفلامان (هولندية).

٢- بريطانيا: مشكلة الأقلية الإيرلندية الكاثوليكية المزمنة.

٣- فرنسا: مشكلات إقليم الباسك، وجزيرة كورسيكا، والأقليات الألمانية في الشمال.

٤- إسبانيا: إقليم الباسك ومشكلاته المزمنة.

٥- إيطاليا: مطالبة الشماليين بالانفصال.

٦- سويسرا: برميل بارود متفجر، وربما سيكون التالي بعد يوغوسلافيا. وهاهي أوروبا تدفع اليوم فاتورة الاعتداء على الجغرافية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. هذا الاعتداء الذي ولّد هذه المشكلات التي تهدد أوروبا بالانفجار، والتي يقف الاتحاد الأوروبي أمامها عاجزاً ومنساقاً وراء (مبدأ الأقليات الأميركي). وربما كان هذا الانسياق بهدف كسب ود الولايات المتحدة، علّها تأخذ تأييد هذه الدول لها في يوغوسلافيا بعين الاعتبار!

إلا أن مراجعة بسيطة لمبدأ الاستقراء التاريخي، تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك في أن سويسرا، تملك من الشبه بيوغوسلافيا ما يجعل من تفجير الثانية تدريباً (بروفة) على تفجير الأولى (أي سويسرا). ونجاح بروفة يوغوسلافيا، سيعني ملكية الولايات المتحدة لمفتاح تفجير الاتحاد الأوروبي من باب سويسرا، حيث

دول الاتحاد مجتمعة معنية بالوضع السويسري عبر أقلياتها المشاركة في الكونفدرالية السويسرية.

مما تقدم نجد أن العجز الروسي يقف عند حدود الاحتجاج والعوز الاقتصادي، لكنه لا يبلغ حد الانسياق إلى المشاركة العسكرية المؤيدة للولايات المتحدة. خصوصاً أن هذه الدول الأوروبية تدرك أن الولايات المتحدة لم تأخذ بالحسبان أو بعين العطف مشاركتها في حرب الخليج الثانية. إذ نلاحظ أن التدخل الأميركي يصل إلى حدود التهديد العسكري لمنع بيع - شراء البضائع والأسلحة الأوروبية إلى دول المنطقة. وبهذا فقد خرجت أوروبا من المولد من دون حمّص (أي من دون فوائد).

بل إن تقريراً استراتيجياً تسرب إلى وسائل الإعلام، وهو يشير إلى أن دول الخليج قد أنفقت العام ١٩٩٨م واحداً وثلاثين ملياراً من الدولارات على شراء أسلحة أميركية. لكن طائرات ف -١٦ تسلم إلى هذه الدول من دون برمجة كمبيوتراتها (أي إنها عاجزة عن القتال، وعن تصويب الصواريخ) وبمعنى آخر، فإنها مجرد طائرات - وتاكسي. وفي المقابل لايزال الحظر جارياً على شراء الطائرات الأوروبية، ولاتزال الدول المنتجة لهذه الطائرات متحالفة مع الولايات المتحدة في حربها العالمية الرابعة (الثالثة كانت حرب الخليج الثانية).

ولكن هل نحن نوفي الرئيس كلينتون حقه إذا ما حصرنا كلامنا عن (مبدأ الأقليات) باعتباره منطلقه الاستراتيجي؟ والجواب هو لا بالطبع، فهو يتابع حصار العراق وليبيا، ويتابع ضغوطاته على اليابان وأستراليا والخليج وأوروبا... إلخ. وفي اعتقادي الشخصي أن الكلام يجب أن يجري على (**مبدأ كلينتون**) وذلك على غرار (**مبدأ مونرو**) وإن كانا نقيضين، إذ إن مرتكزات مبدأ كلينتون تتبدى على النحو الآتي:

١- التركيز على المصالح ودعم الوفرة الأميركية الاقتصادية، وذلك بهدف استرداد حصة أميركا في تراكم الرأسمال العالمي، التي انخفضت في فترة ٧٤-٩٠م من ٥٨٪ إلى ٣٧,٥٪ وبلغ عجز ميزان المدفوعات الأميركي على أعتاب أزمة الخليج حدود الـ١٤٠ مليار دولار. ويبدو أن قسماً كبيراً من هذا العجز تحملته الدول العربية.

٢- لا يعترف هذا المبدأ بأي عوائق تحول دون تحقيق المصالح الأميركية. فقد اتخذ كلينتون موقف التأنيب للأستراليين كي يحسنوا علاقاتهم مع الولايات المتحدة. وهو أوكل إلى اليابان مهمة تعويم البورصات الآسيوية، وأرغم العالم على شراء البضائع الأميركية، بدءاً من طائرات التاكسي وصولاً إلى طائرات البوينغ... إلخ.

٣- يعتمد مبدأ كلينتون على معادلة قوامها أن التهديد بالقوة أكثر ربحاً وتحقيقاً للمكاسب من الاستخدام الفعلي لها. فبالمقارنة مع حرب الخليج الثانية نجد أن سياسة بوش كانت مكلفة مادياً بحيث اضطر إلى أن يبحث لها عن تمويل خارجي ومحلي، و قد وجد في ذلك بعض الصعوبات. كما أن الأعراض التي ظهرت على صحة الجنود الأميركيين المشاركين في تلك الحرب، هي بوادر من شأنها التذكير بالشرك الفيتنامي. هكذا نجد أن من ثوابت المواجهات التي يخوضها كلينتون:

أ - عدم استخدام القوات البرية (وهذا ما وصل إليه بوش فأوقف الزحف نحو العاصمة العراقية) لأن الخسائر البشرية تعيد تفجير ذكريات الكابوس الفيتنامي.

ب - الاقتصار على استخدام الأسلحة التي لا يوجد لها ثمن سياسي (كروز/ توماهوك) وهي التي استخدمها في العراق والسودان وأفغانستان ولغاية اليوم في يوغوسلافيا.

جـ - عدم خوض أميركا وحيدة لأي صراع.

٤- إن حرية التهديد بالقوة الأميركية والحصول على المكاسب المناسبة من هذا التهديد، يجب أن يكون متحللاً من قيود الأمم المتحدة ومجلس الأمن اللذين قد يمنعان، أو على الأقل،

يعوقان التهديدات الأميركية[1] . وهنا يتبدى التناقض مع مبدأ مونرو الانسحابي، حيث تبلغ هجومية مبدأ كلينتون التجاهل التام للمجتمع الدولي، والاستعاضة منه بكسب تأييد الرأي العام العالمي (ولو بالتنويم المغناطيسي) وبتوريط أكبر عدد من الحلفاء.

وفي عودة إلى الأزمة اليوغوسلافية، لابد من قراءة موضوعية للمصالح الأميركية التي يحققها تفجير هذه الأزمة. وهنا لابد لنا من استعراض بعض المؤشرات وقراءة تقاطعاتها ونبدأ بـ:

١- تكريس وجود إسلامات عدة، وليس إسلاماً واحداً، وإذا كان الإسلام العربي لا يشكل أكثر من ١٢٪ من إسلام العالم، فإنه لا ينطق باسمهم. وعليه، فإذا ما اختار الإسلام العربي العداء لأميركا، فإن ذلك لن يعني عداء إسلام العالم. فهاهي الولايات المتحدة تدافع عن الإسلام الأوروبي الضعيف جداً. وهذه المحاولة الأميركية لتصنيف الإسلام، ربما كانت السبب في إعلان كلينتون عن رفضه مبدأ (صدام الحضارات).

٢- يمكن للدفاع عن إسلام كوسوفو وللصداقة الأميركية مع الإسلام الطوراني أن يكونا جواز مرور الولايات المتحدة نحو

(١) تكرست حرية التهديد بالقوة الأميركية بالتحلل من قرارات الأمم المتحدة بعد حوالي الشهر ٢٦/٤/ ١٩٩٩م على كتابة هذه المقالة وذلك عبر الاستراتيجية الجديدة للحلف الأطلسي.

إسلام آسيا الوسطى، حيث تنوي الولايات المتحدة الانتقال بعد أن أصبحت جيوب الإسلام العربي خاوية بعد حرب الخليج الثانية.

٣- إن الوجود في أسيا الوسطى - تركية - يجعل الولايات المتحدة في موقع مراقبة مقبول لإيران، بل ربما ساعدها هذا الموقع على تشجيع تمرد الأقليات الإيرانية من أذربيجانية (آذزية) وغيرها. مع الإشارة إلى أن العجز الروسي في يوغوسلافيا دليل على عجزها عن إعاقة الوجود الأميركي في آسيا الوسطى.

٤- إنها مفتاح تفجير الاتحاد الأوروبي، كما سبقت الإشارة، باستخدامها نموذجاً لتفجير سويسرا (أو شمال إيطاليا أو حتى بلجيكا).

ويبقى السؤال: كيف يمكن تأكيد فاعلية الاستخدام المحدود للقوة (التهديد) والتقسيط الحربي؟ من دون خطر تطور المواجهة واستفحالها! وهذه المسائل تحلها السياسة. ولكن ماذا إذا حصل وتطورت الأمور باتجاه مواجهات أكثر جدية وإيلاماً للأميركيين؟

في هذه الحالة، فإن التراجع الأميركي سيكون بحكم المؤكد، لأن **القيادة الأميركية تدرك عجزها عن تحمل الخسائر البشرية والاقتصادية والأمنية داخل الولايات المتحدة**. وهذا الإدراك يجبرها

على الانسحاب من دون أي تفكير بخجل التراجع أو إحراجاته. لذلك، فإن الهدف الأول لهذه القيادة هو القضاء على إمكانات تصعيد المواجهة ضد الأميركيين. ولذلك، فهي قد تهادن بعض الأعداء المكلفين بالنسبة إليها مقابل ضمان عدم تعاونهم مع الجهات القادرة على هذا التصعيد. في المقابل، تدرك الولايات المتحدة، أن الخطر الحقيقي واحتمالات تعقيد المواجهة لا يأتي من أي دولة خارجية أو منظمة، بل إن هذا التهديد يأتي من داخل الولايات المتحدة نفسها، ولذلك فإنها تصرف على مكافحة هذا التهديد ما يقارب ستة المليارات دولار سنوياً. وبمراجعة الخضوع الروسي - الأوروبي يتأكد لنا أن الإرهاب الأميركي الداخلي يبقى العدو الوحيد للولايات المتحدة.

٧- بوش يتسلم الرئاسة في الزمن الأميركي الصعب

الولايات المتحدة في عالم متغير

١/٣/٢٠٠١م

منذ لحظة إعلان فوزه بدا بوش الابن كأنه يعيش حالة نكوصية، (عودة إلى الماضي للتخلص من وطأة الحاضر. ومن علائم هذه الحالة أنه يتناسى، أو هو فاقد للذاكرة، أو متجاهل للمعلومات) فترة رئاسة كلينتون وكأنها لم تكن. حتى تبدت بشائر سياساته وكأنها استمرارية لسياسة الأب. وكأن الفترة الفاصلة بين ولاية الابن والأب غير موجودة.

باختصار يعود بوش الابن ليتابع سلوك والده السياسي، فيجد نفسه بحاجة إلى مشروع عسكري لتغطية هذا السلوك. وإذا كان الأب قد نعم بمشروع ريغان (حرب النجوم) فإن الابن يتبنى

مشروعاً موازياً هو (الدرع الصاروخي الأميركي). حتى يبدو أن نكوصه يمتد إلى عهد ريغان متخطياً عهد والده. وهذا السلوك يدفع بالعديد من المحللين إلى مراجعة عهد ريغان، ومحاولة تبين سياسة بوش على ضوء سلوك إدارة ريغان التي أثرت بعمق في سياسات الأب.

وإذا كان صحيحاً أن نظرية الاستقراء قد أثبتت فاعليتها في ميدان المستقبليات لتصبح القاعدة - المعيار للمحللين الاستراتيجيين - إلا أن هذه النظرية لاتكتمل إلا بحساب الطوارئ، وخصوصاً المصادفات التي تمنع التاريخ من تكرار نفسه بصورة مطابقة وساذجة. فنظرية الاستقراء تحتاج، حتى يكتمل تطبيقها، إلى رصد كل الظروف والملابسات المنتجة للمصادفات وخصوصاً المفاجئة منها. ذلك أن كل واحدة من هذه المفاجئات كفيلة بقلب التوقعات رأساً على عقب. وهذا لايعني التنكر لكل التوقعات المستقبلية المطروحة. ولكنه يعني ضرورة تصنيفها إلى توقعات ثابتة وتوقعات محتملة، وأخيراً توقعات قابلة للعكس. وهذا التصنيف يشبه تصنيف توقعات الأبراج والكهانة على أنواعها. ولكن ألم يقل بيرجير: إن المستقبليات هي نوع من الكهانة التي لا تقل علمية عن التاريخ! ثم ألا يساعدنا هذا التشبيه في الحفاظ على مكانة ما للمستقبليات مع الاحتياط لاحتمالات الشطط في تحليها والتعامل معها؟

١- التوقعات الثابتة

في ظل الغموض الذي يكتنف الاستراتيجية الجديدة للإدارة الأميركية فإن المتابع يجد في بعض التوقعات الثابتة نوعاً من المعالم التي تدعم قدرته على التوجه أمام هذا الغموض الذي كرسته زيارة باول الأخيرة للمنطقة. حيث بدت مواقف الإدارة الأميركية أحجية من الأحاجي التي لم تكتمل حبكتها، وبالتالي فإنها أحجية غير مطروحة بعدُ للحل!؟ مما يدعم أهمية التوقعات الثابتة وفي طليعتها:

• إذا لم يتم السلام الشرق أوسطي في عهد كلينتون فإنه لن يتم أبداً! توقع مطروح منذ ماعرف بمباحثات واي ريفير: ويتدعم هذا التوقع بجملة معطيات تؤكده وتحوله إلى واقع. فهناك أولاً أسلوب كلينتون التورطي في المفاوضات. إضافة إلى استعداده لدفع وتأمين التعويضات والمبالغ الضخمة المطلوبة لتحقيق هذا السلام. ومعها رغبته بتلزيم المنطقة لإسرائيل، بصفة شريك استراتيجي، بعد الاطمئنان على الوجود العسكري الأميركي في منابع النفط. وهذه الأسس جميعها مرفوضة من قبل الجمهوريين، وبطبيعة الحال من قبل بوش.

ويمكن القول: إن هذا التوقع لقي تأكيده في أول تصريح لوزير الخارجية الأميركي باول حين استبدل مصطلح (المسعى السلمي) بمصطلح (العملية السلمية).

• يريد بوش إرساء قواعد ثابتة لأمن الشرق الأوسط تجنبه إجبار الخوض في مستنقعه المملوء بالمتغيرات. وهذا لايمكنه أن يتم إلا عن طريق وضع قوانين ضابطة للعلاقات البينية في المنطقة. وبتبسيط شديد فإن مستشاري بوش يرون أن التهديدات الحقيقية تتركز في التحالفات الروسية الجديدة وخصوصاً مع الصين، عودة إلى نظرية بريجنسكي حول الحزام الأوراسي. في حين تنحصر الأهمية الاستراتيجية للشرق الأوسط في نفطه. وعلى هذا الأساس يفضل أن ينحصر التعامل مع المنطقة على صعيد اقتصادي، هيمنة اقتصادية أميركية، مع مساعدة دول المنطقة على إقرار أسس استقرار بعيداً عن فرض سلام غير مقنع لشعوب المنطقة، بمن فيهم العرب والإسرائيليون. بل ربما ارتأت هذه الإدارة أنه من المفيد دعم حكومات المنطقة للتخلص من تناقضاتها واحتمالات تفجير مشكلاتها الداخلية والبينية، وصولاً إلى تقديم الاستشارات والنصائح، وفتح أبواب المؤسسات الاستشارية الأميركية أمام دول المنطقة. وربما التدخل وسيطاً في الحوار بينها.

• تدخل بوش الأب في صنع القرارات بصورة مباشرة. وهو تدخل ينعكس أولاً على إعطاء دور أكبر لوكالة المخابرات الأميركية التي كان الأب رئيسها لفترة، وإصلاح مايعتبره الأب خللاً أدخله كلينتون على بنيتها. يتجلى ذلك بداية في رغبة الإدارة الجديدة في استبدال سفرائها في المناطق الحساسة بسفراء من الوكالة باعتبارهم مالكي المعلومات وعلاقات أوسع من السفراء المدنيين. كما يفترض أنهم أكثر انضباطية.

• إقالة الرموز الكلينتونية السياسية في الداخل، طاقمه ومستشاريه، وفي الخارج باراك وغيره من الزعماء الذين دخلوا في حلقة عضوية مع توجهات كلينتون.

• وضع الحدود لما جاهر الجمهوريون به وبعض المحللين الاستراتيجيين باعتباره فوضى استراتيجية - كلينتونية. وخصوصاً لجهة إصلاح النظام الاقتصادي، الذي بات الجمهوريون يرونه فاسداً. كما يرون أن كلينتون كان يتفنن في استغلال هذا الفساد. وهنا يجب ألا نفاجأ بسياسة الخفض الضريبي التي بدأها بوش فور استلامه للسلطة. فهذه المسألة تعود إلى آب (أغسطس) ١٩٩٩م، حين استغل الجمهوريون سيطرتهم في الكونغرس ليحصلوا على موافقته على قانون خفض ضريبي بقيمة ٧٩٢ مليار دولار. إلا أن تهديد كلينتون آنذاك باستعمال حقه في الفيتو

أفشل هذا المشروع. وها هو بوش يعيد طرحه، ولكن بقيمة ١٦٠٠ مليار دولار بدلاً عن ٧٩٢ مليار. وما من شك في أن الديمقراطيين واللوبي اليهودي سيعارضان هذا المشروع بضراوة؛ لأن الخفض الضريبي يقلل حجم التسرب الضريبي إلى إسرائيل على شكل تبرعات خيرية، ولكن دون جدوى. كون بوش قد استعد جيداً لهذه الخطوة التي تشكل أساس نظريته الإصلاحية للفوضى التي خلفها كلينتون.

التوقعات المتعلقة بفريق عمل الرئيس الجديد تحولت إلى وقائع بعد الإعلان عن الرموز الرئيسية للإدارة الجديدة. وتبقى ضرورة مراجعة السير الذاتية لهذه الرموز ومعها مغزى اختيار بوش لهم. وبلمحة سريعة، ولمجرد المثال، نجد رامسفيلد في الدفاع، وباول في الخارجية **لنجد أن الإدارة الجديدة لن تكتفي بالتهديد بالقوة، دون دفع أي ثمن استراتيجي، بل إنها مستعدة لممارسة القوة ولدفع الأثمان الاستراتيجية المترتبة على هذا الاستعمال. وهذا مايعتبره بوش ضرورياً بعد أن أدى تساهل كلينتون وتهربه من المواجهة إلى تجرؤ دول عديدة على تهديد السطوة العالمية الأميركية.** فالأوروبيون يريدون إنشاء قوتهم الأوروبية للتدخل السريع. والروس يسعون لإقامة التحالفات مع الصين واليابان وبعض دول الشرق الأوسط... إلخ.

٢- التوقعات المحتملة

رأينا أن ثبات التوقعات الثابتة ينبع من التسلسل التحليلي المنطقي لمجريات الأمور. وهو يزداد دقة وثباتاً مع زيادة المعلومات المتوافرة حول موضوعاته، أما المحتملة فهي مجرد احتمالات مرجحة دون أن يعني هذا الترجيح تأكيدها. وهنا ندخل إلى الحقل المميز للمستقبليات. ولنستعرض معاً المعطيات المستقبلية الرئيسية بخصوص سلوك إدارة بوش، وانعكاسات هذا السلوك على الولايات المتحدة الأميركية. وهذه المعطيات هي:

١- يبلغ بوش الأب الـ٧٦ وقد تعرض في أثناء الانتخابات إلى أزمة في انتظام نبض القلب. وهي أزمة تعد معاودتها أكيدة. مما يطرح موضوع صحة الأب وتأثيره في الإدارة. ومعها الصعد التي يطاولها الفراغ في حال غيابه.

٢- الرجل الثاني في الإدارة الأميركية، وفي توجيه بوش هو نائبه ريتشارد ديك تشيني. الذي تعرض بدوره لأزمة قلبية انسدادية في أثناء عملية الفرز. واحتمال غيابه ينعكس بصورة درامية على الرئيس الجديد.

٣- من الناحية السيكولوجية يصنف بوش الابن في خانة الفاعل- السلبي (على غرار ويلسون ونيكسون وجونسون... إلخ). ويبدو أن

الجمهور الأميركي لايستسيغ كثيراً هذا النمط بسبب سلبيته، فهو لايقف معه عندما يتعرض للأزمات. في حين نجد هذا الجمهور متعاطفاً مع كينيدي وكلينتون وبوش الأب وروزفلت وريغان، كلهم ينتمون إلى النمط الإيجابي.

٤- إن سلبية إدارة كلينتون أمام أزمة النمور الآسيوية وأزمة روسيا وترك هذه الشعوب لتواجه الإفلاس جعل الولايات المتحدة تخسر صدقيتها في هذه المنطقة. مما جعلها غائبة عملياً عن المنطقة. ولكن مع محافظتها على سيطرة اقتصادية شبه مطلقة فيها.

٥- جاء حادث غرق سفينة الصيد اليابانية، بعد اصطدامها بغواصة نووية أميركية، ليكون من علائم سوء طالع بوش. إذ أعاد هذا الحادث فتح ملف الوجود الأميركي في اليابان، (٤٠ ألف جندي). حيث ازدادت الشكوى اليابانية من سلوك هؤلاء الجنود. وتراكمت آلاف الملفات القضائية بحقهم. كما اضطر الجنرال الأميركي إيرل بي هيلتسون لتقديم اعتذاره إلى حاكم إكيناوا عن تصرفات جنوده غير اللائقة. ويزداد القلق الأميركي من هذا الوضع بعد محاولات بوتين الجادة للتقرب من اليابان. وأكثر من الصين، وبقية دول الشرق الأقصى. وهي المنطقة التي أهملها كلينتون لانشغاله بعملية السلام الشرق أوسطي. وبمحاولات بيع الأسلحة عبر الحروب المفتعلة كحرب كوسوفو وغيرها.

٦- كانت الانتخابات، المؤدية لوصول بوش الابن إلى البيت الأبيض، انعكاساً لأزمة سياسية أميركية. إذ انقسم الأميركيون بين موافقين على تسليم قيادة بلادهم ليهود كلينتون كي يديروا العالم وفق طريقة الابتزاز اليهودية. وذلك مقابل الوفرة المادية. في حين رفض النصف الآخر هذه السياسة وأراد أن يرى لبلاده استراتيجية واضحة وكراهية أقل. وعن هذه النقطة تتفرع معطيات عديدة نذكرها فيما بعد.

٧- ترشيح بوكانان ودخوله السباق الانتخابي وهو الملقب بـ(هتلر الأميركي) بسبب علاقته بالميليشيات الأميركية البيضاء ودعمه لها. مما يعكس تنامي قوة هذا التيار في الحياة السياسية الأميركية، على الرغم من ضآلة نسبة الأصوات التي حصل عليها. ولكن مع الإشارة إلى تحول العديد من ناخبيه المحتملين إلى بوش للحؤول دون بلوغ ليبرمان اليهودي إلى منصب نائب الرئيس.

٨- بروز مرشح الخضر اللبناني الأصل رالف نادر. الذي وإن لم يتمكن من الحصول على الـ٥٪ من الأصوات، اللازمة لدخول حزبه إلى الحلبة الانتخابية، إلا أنه كان وباعتراف الجميع عاملاً أساسياً من عوامل فوز بوش في فلوريدا.

٩- مع بداية الولاية الثانية لكلينتون بدأت الأقليات تطالب بالحفاظ على خصوصياتها الثقافية في حين كانت قبلها تطالب بتسهيل انصهارها في المجتمع الأميركي. وتجنباً للشرح المطول فإننا نختصر الترجمة العملية لهذا التوجه بزيادة عدد الأميركيين المتجسسين على الولايات المتحدة لمصلحة بلادهم الأصلية. والأمثلة على ذلك كثيرة. وأكثر منها الأمثلة غير المعلنة وغير المكتشفة بعد. وهنا لابد من الإشارة إلى أسبقية اليهود الأميركيين في مجال التجسس على الولايات المحدة لمصلحة إسرائيل.

١٠- تشير المقارنات التاريخية للانتخابات الأميركية أن الفوز بأغلبية الكلية الانتخابية مع خسارة أصوات الشعب أهون من الفوز بالاثنين معاً، ولكن بفوارق ضئيلة. فالنوع الأخير من الرؤساء الأميركيين كان يعيش فترة رئاسية مضطربة. فقد اغتيل كيندي، واستُقيل نيكسون: فضيحة ووتر غيت، وغيرها من الأمثلة التي تعوق التفكير بفترة رئاسية هانئة لبوش. خصوصاً أنه اختصم اليهود، وأن الفارق بينه وبين آل غوركان أكثر الفوارق ضآلة في تاريخ الانتخابات الأميركية. ويضاف إلى كل ذلك أن سنوات صاخبة تنتظر الولايات المتحدة بعد عقد من الفوضى التي خلفها غياب القطب المواجه عن الساحة العالمية.

وهذه المعطيات، بالإضافة إلى سلوك إدارة بوش في تحركاتها الأولى، تسمح باستنتاج جملة توقعات محتملة. بل ربما مرجحة تتمثل بالتوقعات المستقبلية التالية:

● إن إدارة بوش تريد الشرق الأوسط منطقة هادئة، وذات موارد نفطية تحت السيطرة. مما يجعلها منفتحة على الحوار ومستعدة للضغط في هذا الاتجاه. وهي غير مستعدة لدفع التعويضات التي وعد بها كلينتون. كما أنها لاتستعجل السلام كما فعل الأخير. وهي ترى أن انعدام رغبة شعوب المنطقة بالسلام يمكن ترجمته بتمديد الحرب الباردة أو الاكتفاء بتسوية محدودة.

● إن النفط العربي هو صمام الأمان الاستراتيجي للجراحات الاقتصادية الصعبة التي ينوي بوش إجراءها على الاقتصاد الأميركي. لذا فهو بحاجة لتأمين سيطرته على أسواق النفط. بما يستتبع ضرورة إيجاد الحلول للخلافات الأميركية مع كل من إيران والعراق وليبيا. ولقد تبدت هذه الحاجة واضحة من خلال الزيارة الأولى لكولن باول إلى المنطقة. حيث الانتفاضة في أوجها كانت موضوع تجاهل، وكان موضوع العراق هو محور الزيارة وهدفها.

● إن تأمين منطقة الشرق الأوسط يقتضي تدخل الولايات المتحدة ومساعدتها في حل أزمات المنطقة، وتجميد ماهو غير قابل للحل منها. وهذا التوجه معاكس لسياسات الإدارات السابقة التي سعت لتفجير تناقضات المنطقة وخلافاتها وتحريك أقلياتها. مما يجعلنا نتوقع تراجع نشاط منظمات الحقوق الأميركية،

الأقليات والإنسان والمرأة والطفل، وغيرها من الحقوق الموظفة لتفجير التناقضات وليس لإقامة الحوار، أو لتحصين قيم ومبادئ بعينها. ولكن صعوبة المسألة تكمن في أن أميركا تريد ترتيب البيت الداخلي العربي وحل الأزمات العربية على الطريقة الأميركية. فهل يقبل كل العرب بذلك؟ وهل تستطيع إدارة بوش فرض طريقتها الخاصة؟ **وبمعنى آخر هل يضطر الابن لخوض معركة أبيه ثانية؟ وإن هو أراد فهل تساعده الظروف على ذلك؟**

● إن إدارة بوش تدرك أنها أمام لحظة سياسية- اقتصادية مقررة لمستقبل الولايات المتحدة. ومن هنا الخطورة الفائقة لإدارة بوش المستعدة للتسرع في التورط العسكري. على عكس كلينتون الذي كان يماطل ويؤجل، فإذا مااستحقت المواجهة العسكرية، الإنزال البري في كوسوفو مثلاً كان يتهرب رافضاً دفع أي ثمن استراتيجي للمواجهة. إذ كان يكتفي بتوظيف التفوق العسكري، وبإجبار أصدقاء أميركا وحلفائها على المشاركة (الورطة) ليستثمر كل ذلك بمكاسب اقتصادية. مخالفاً بذلك مبدأ بوش الأب الذي يستدعي الأصدقاء ويشاركهم ويدفع أثماناً استراتيجية باهظة.

بالمقارنة هل يمكن للابن اعتماد سياسات الأب ومخاطراته بعد التحولات الطارئة على الساحة السياسية العالمية؟ نتوقع أن يكون الابن أكثر تحفظاً وأقل ميلاً للمغامرة. **فقد نجا الأب من عمليات**

إرهابية في الداخل الأميركي في أثناء حرب الكويت. كما نجا من الاختبارات الاقتصادية الصعبة. في حين استطاع كلينتون إسكات الاتحاد الروسي وإبعاده عن التدخل في كوسوفو بقرض قيمته ٨ مليارات دولار فقط. كما استطاع افتعال حرب (كوسوفو) على حساب الاتحاد الأوربي مما أدى إلى هبوط اليورو بسبب التكاليف الباهظة لهذه الحرب. إن بوش الابن يواجه عالماً مختلفاً تمام الاختلاف عن عالم أبيه وعالم كلينتون. إنه عالم جديد بدأت ملامح تمرده تتبدى واضحة. فماذا عن أوروبا؟

• تحت شعار الدفاع عن القيم الأوروبية تمكن كلينتون من توريط الاتحاد الأوربي في حرب كوسوفو. وجعله يدفع ثمنها من نمو اقتصاديات أعضائه ومن سعر اليورو الوليد، كما أنه أدخل تعديلات على استراتيجيات حلف الناتو تتعارض مع قوانين الاتحاد الأوربي. حتى بدت هذه التعديلات وكأنها مدخل لإلغاء هذا الاتحاد. وجاء التمرد الأوربي على شكل رغبة بإنشاء قوة أوروبية للتدخل السريع، حتى لايتكرر موقف كوسوفو، ويضطر الأوروبيون لطلب التدخل الأميركي المكلف. من جهتها تواجه إدارة بوش هذا التمرد بالإصرار على إقامة شبكة دفاع صاروخية أميركية أكثر عبئاً وتكلفة على أوروبة. عدا عن استثارتها وتحديها لروسيا بوتين وهي غير روسيا يلتسين. لكن هنالك مقابلاً لهذا الإصرار الأميركي، وهو المقابل الاقتصادي حيث

ستنعم أوروبا نتيجة لسياسة بوش الاقتصادية بتدفقات أموال الاستثمار إليها هرباً من أميركا في وضعيتها الحرجة، فهل يقبل الأوروبيون هذا البدل وسيف النفوذ مسلط على رقاب اقتصادياتهم؟

• بينت أزمة السفارة الصينية إبان حرب كوسوفو أن الصين لم تعد قابلة للإهمال من الحسابات الاستراتيجية العالمية. إذ اضطر كلينتون يومها لاستخدام كامل مهارته التفاوضية وغموضه الاستراتيجي، لاتزال آلية حل هذه الأزمة مجهولة لغاية الآن للخروج من هذا المأزق. وهاهو بوش يواجه الصين المتحالفة مع الاتحاد الروسي والمحررة جزئياً لاقتصادها، والمالكة لصندوق أسرار يصعب التكهن بمحتوياته (القنبلة النوترونية والأسرار العسكرية الأميركية المتسربة إليها من طريق صينيين أميركيين أو عن طريق إسرائيل. أضاف لملكيتها ٤٥٠ صاروخاً نووياً وانفتاحها الروسي..)

• على مستوى الشرق الأقصى، بما فيه الصين، يواجه بوش وضعاً في غاية الحرج فقد تم التخلي عن القواعد الأميركية في الفيليبين. إضافة إلى مطالبة اليابان بالحد من الوجود العسكري الأميركي فيها، ومثل بقية أصدقاء الولايات المتحدة في المنطقة. الكوريون الجنوبيون فقد بدؤوا يستشعرون أن مصالحة الشماليين

أقل عبئاً عليهم من الحماية الأميركية. عداك عن تفجر الشعور القومي الصيني في تايوان في أثناء أزمة السفارة الصينية. الذي وصل إلى حد تنظيم التايوانيين لتظاهرات معادية للولايات المتحدة ومؤيدة للصين. وهذا يدعو إلى إعادة قراءة استراتيجية نيكسون تجاه الصين وتحذيراته من الصدام معها. وتلك تحذيرات يبدو أن الأميركيين ما زالوا يبدون احترامهم لها. **أما عن مجمل الوضع في الشرق الأقصى فمن المرجح أن تلجأ الإدارة الأمريكية إلى الأسلوب الاستخباري الذي يفتعل المشكلات لإقناع الأصدقاء بحاجتهم إلى الدعم والمساعدة الأميركيين، ولعل بوش بأمس الحاجة أمام هذه الظروف لاستعادة القواعد الأميركية المفقودة في الفيليبين إضافة إلى استعانته القصوى بالقواعد البحرية المتنقلة. مع استحضار وضع نيكسون باعتبار أستراليا الوارث الشريك لليبرالية الأميركية. وهذه الوصية ستدفع بوش لإعطاء أستراليا دوراً أساسياً واستراتيجياً مهماً. وتبقى أهمية الدور الأسترالي وتوقيته مرتبطة بمستوى رغبة الصين في إثارة المشكلات، حيث تبدو مستعجلة لهذه الإثارة إذا وجهت تحذيراً لبوش، ولما يمض شهر، على توليه المنصب حول الآثار السيئة لاستمرار تسليح تايوان على العلاقات بين البلدين.**

• إن الاختلاف بين روسيا بوتين وروسيا يلتسين أعمق مما يبدو لغاية الآن. ويكفي التذكير بأن روسيا تملك ٣٠ ألف قنبلة نووية مع قدرة تصنيع ٧٠ ألف أخرى وتوافر المواد اللازمة

لصناعة الأسلحة النووية، والأخطر من كل ذلك أن هذه القوة غير مضبوطة. بمعنى أنها قابلة للتهريب والتسريب والبيع للمارقين والإرهابيين. كذلك إنها قابلة للانطلاق لو فقد أحد المشرفين على جزء منها عقله. والأخطر أنها صدئة، ويمكنها أن تلحق الضرر بروسيا نفسها. **وهي كلها أمور تبرر لبوتين أي موقف معادٍ أو متطرف أو حتى إرهابي. فهل تراه ينتظر الفرصة السانحة؟**

إن كثرة الأسئلة التي تتضمنها هذه التوقعات لاتنبع من الشك بمواقف بوش منها. فهي مواقف مطابقة لمواقف أبيه المعروفة، والمتلخصة بالاعتقاد بأن الولايات المتحدة تملك القوة الكافية كي تفعل ماتريد ولكي تجبر الآخرين على فعله. **لكن الشك يأتي من غموض مستقبل بوش نفسه حيث تجارب كينيدي ونيكسون تبرز التساؤل حول ماإذا كان بوش سيتم فترة الرئاسة أم لا!؟ كما أن الغموض يكتنف مواقف بوش في حال مواجهته لمفاجآت غير مستحبة، مثل وفاة والده أو نائبه، وكمثل مواجهة إثنين أسود جديد في وول ستريت أو مواجهة اضطرابات في الداخل الأميركي؟ وهذه المفاجآت غير المستحبة هي ماعنيناه بالتوقعات المعاكسة التي ذكرناها أعلاه في معرض تصنيف الاحتمالات. إذ يوجد اليوم من يشك في أن سنوات شديدة الصخب تنتظر الولايات المتحدة والعالم معها. فهل تحصل المعجزة التي تمكن بوش من إعادة ترتيب، أميركا والعالم من دون كوارث؟ والجواب عن هذا السؤال صعب، فالولايات المتحدة لم تواجه**

بعد أي وضعية كارثية حقيقية، مما يجعل تفاؤليتها الدفاعية، الاعتقاد بأن الأمور السيئة تصيب الآخرين ولكنها لاتصيبنا نحن، في حدها الأقصى. بل إن بوش الأب يتعدى هذا الحد على قاعدة تجربته العراقية، التي يمكن تلخيصها بأن للأمور الصعبة حلولها، فإذا اضطررنا لخوض المواجهات فإن النصر سيكون حليفنا والهزيمة من نصيب المارقين. وإذا ماانخفضت السيولة فإن الأجانب سوف يمدوننا بالمال اللازم. أما إذا تدهورت أسعار الأسهم فإنها سوف تعاود الصعود... إلخ. وباختصار فإن فوز الابن جعل الأب أكثر قناعة بأن الظروف والقدر يعملان لمصلحته. حتى أمكن القول: إن تفاؤل الإدارة الأميركية يبدو مرضياً ومنفصلاً عن الواقع.

٨- ثعلب الصحراء بين الوعظ والمكر

٥/١/١٩٩٩م

التهديد بالفناء حالة يعرفها الطب النفسي على أنها إحساس عارم، وغير ممكن تجنبه، باقتراب الموت. ولقد عمّم الطب النفسي الاجتماعي هذه الحالة، ونقلها من إحساس فردي بتهديد الموت، إلى شعور الجماعات والأمم باحتمالات تعرضها للإبادة وللفناء.

الطب النفسي من جهته يرى كل تجربة تهديدٍمن هذا النوع صدمةً أو جرحاً نفسياً غائراً، له آثاره الفورية والقصيرة الأمد، وكذلك المتوسطة وطويلة الأمد، ولسنا هنا في مجال سرد أو تعداد أو دراسة مثل هذه الجروح في الذات العربية، لأن حديثنا يتركز على إحدى هذه الصدمات.

وفي الآثار الفورية للصدمة يلاحظ الطب النفسي حالة من تضخم الذاكرة (Hypermnèsie) تتجلى بالتذكر السريع والمكثف

على شكل ومضات فكرية، لمجمل الأحداث الجارية. وتختلف هذه العملية عن التذكر العادي بأنها تبدأ من الأقدم إلى الأحدث، عوضاً عن الرجوع التدريجي من الأقل قدماً إلى الأكثر قدماً. وفي حالات الصدمة الجمعية تختلط الذكريات الشخصية مع المعلومات والمعطيات التاريخية، حتى تتشابك فيما بينها بحيث يصعب فصلها، والذكريات القديمة تكون عادة شخصية، بسبب حداثة سن المتذكر في حينه.

قد يكون هذا المدخل مثقلاً بالاختصاص، إلا أنه ضروري لمن يريد أن يراجع ردود فعله الوجدانية أمام جراح ثعلب الصحراء، وخصوصاً إذا كان ينتمي إلى جيلي نفسه، حيث كانت أولى الذكريات الصدمية تحتاج إلى تفكير لربطها بالحدث وهو عبارة عن مطلع قصيدة كنا ندرسها في الصفوف الابتدائية وهو يقول:

خرج الثعلب يوماً في ثياب الواعظينا
ومشى في الأرض يهدي ويسب الماكرينا

مع هذه القصيدة تذكرت حماستي وزملائي للتبرع بمصروفنا، وكان عبارة عن فرنكات قليلة من أجل منكوبي زلزال أغادير. وأقسم أن أحداً منا لم يكن يعرف أين تقع هذه الأغادير، إلا أننا كنا نعلم أن هذه الكارثة الطبيعية قد شردت ويتمت أطفالاً مثلنا،

ورأينا أنهم أحق منا بهذه الفرنكات، لأنهم عرب مثلنا، لقد كنا عزيزي القارئ طلاب مدرسة رسمية لم تصلها حضارة الاهتمام بالإنسان شرط ألا يكون عربياً، وإلا اتهمنا بالعصبية وبالفاشية وحديثاً بالتطرف والإرهاب. لقد كانت لهذه الفرنكات القليلة قيمة تفوق قيمة المليارات العربية المودعة في المصارف الأجنبية، وذلك لأننا كنا نملك حرية التبرع بها لمن نشاء، يومها لم نكن نعرف عزيزي القارئ من هو رئيس أغادير، وما إذا كان جيداً أم سيئاً، ولكن الأهم من كل ذلك أن فرنكاتنا لم تتعرض للإحباط ولتهمة العجز والضآلة واللافعالية، بل أتيح لنا، وسمح لنا أن نشعر بالقدرة على الفعل، وعلى المساعدة، ولم يدفعنا أحد للانكفاء خلف قناعات العجز واللامعقولية.

انطلاقاً من هذه المشاعر اعتقدنا أننا شركاء فعليون في صنع أحداث ذلك الزمان، حلوها ومرها. حتى اعتبرنا أنفسنا مسؤولين عن نكبة ١٩٦٧م ورفضنا تحميل مسؤوليتها لعبد الناصر وحده، فأجبرناه على العودة عن تنحيه! وخضنا يومها عملية نكوص أعمق من العملية التي نعرض لها في هذا المقال. فقد رأينا مثلاً أنه كان من الغباء إخراج (ابن سينا) من حضارتنا العربية الإسلامية بسبب مذهبه. فهل رأيت يوماً اليهود يتخلون عن يهودي عادي، مهما بلغت حدة خلافهم معه؟ لكن إثارة هذه النقطة جاءت

متأخرة وبعد فوات الأوان، فلم تكفنا شرذمة سايكس - بيكو وملحقاتها لنا، بل دخلنا في شرذمات من صنعنا الشخصي، وبتشجيع من أصحاب مصالح، فتلوا خلافاتنا وتناقضاتنا درساً وبحثاً وتجارب تفجير. فكان التراجع السهل عن الوحدة المصرية - السورية، وكانت شيزوفرانيا اليمن، التي لم تشف لغاية اليوم، حتى وجد أصحاب المصالح أن بإمكانهم توليد هذه الشيزوفرانيا بصورة اصطناعية (مخبرية)، فكانت إغراءات وتشجيعات وإيحاءات ابتلاع الأقطار العربية القوية للأقطار الأضعف. ثم تفجير المشكلات الحدودية وهي حقول ألغام زرعها الاستعمار عمداً، وأخيراً طرح مشكلات الأقليات في الوطن العربي.

لقد عالجت ألمانيا إصابتها الشيزوفرانية بعلاج فعال هو الاقتصاد. فقد قدمت ألمانيا الغنية (الغربية) تضحيات اقتصادية لترفع مستوى معيشة الألمان الفقراء، ولهذا نجحت الوحدة، ولو أن عراق ١٩٩٠م كان غنياً وقادراً على رفع المستوى المعيشي للكويتيين، لما كان بحاجة لاجتياحها بالعدوان، فالقوة ليست علاجاً لشيزوفرانيا الشعوب. من هنا القول: إن العراق قد أخطأ، وغرر به واستدرج لخلق شيزوفرانيا جديدة في منطقة الخليج المملوءة بالشيزوفرانيات (لاتحتاج إلى تعداد)، لكن هذا لايمنع السؤال عن فرنكات أطفالنا في كل قطر عربي، كي تتجمع

لمساعدة أطفال العراق المنكوبين بنقص الغذاء والدواء، وبأخطار السرطان التي سيهددهم بها اليورانيوم الخامد المستخدم من القوات الحليفة العام ١٩٩١م، والذي تبقى إشعاعاته فاعلة على مدى ثلاثة آلاف سنة؟ نحن لم نعد نظن أو نتوهم القدرة على الفعل، جل ما في الأمر، أننا نتساءل عن فرنكات الأطفال العرب التي قد تنقذ بضعة أطفال عراقيين.

في أزمة تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٨م السابقة لـ (ثعلب الصحراء) أجرت معي إحدى الإذاعات العربية لقاء استطلاعياً حول إمكانية توجيه ضربة عسكرية أميركية للعراق.

في حينه لم أكن أصدق بأن الضربة قابلة للتأجيل (لم يؤجلها[1] سوى الإحراج) وذلك لجملة أسباب في طليعتها تهديد إسرائيل لأميركا بإرسال فريق كوماندوس لاغتيال الرئيس العراقي، على غرار حملتها على الديراني في البقاع اللبناني!! الأميريكيون من طرفهم أكدوا استحالة تنفيذ هذه العملية، خصوصاً بعد حماقات الموساد المتكررة، وإن كان هذا السبب غير رئيسي، فإن للضربة جملة أسباب موجبة لاتجعلها ضرورية فقط بل تفرض تقسيطها، فبعد حوالي ثماني سنوات من المراقبة والحصار والإفقار. فإن البلد لم يعد يحتمل ضربة حاسمة؛ لذلك فهي واجبة التقسيط، خصوصاً أن العراق لم يعد يشكل تلك الفزاعة الكافية لجلب

تأييد الرأي العام الأميركي ولابتزاز الدول النفطية، وهكذا فإن ضربة محدودة مقسطة، يمكنها أن تعيد لهذه الفزاعة بعضاً من هيبتها، وربما هي تساعد على بروز إرهاصات أولية لملامح عدو جديد تستغيث الولايات المتحدة لإيجاده، ولو صورياً أو مؤجلاً بضع سنوات من دون فوائد! من هنا رأيت أن الضربة الأميركية لن تتجاوز الساعة الواحدة، ولا أزال أتساءل عن أسباب توزيعها على أربع ليال فلا أجد مبرراً سوى تقسيط التقسيط. كما رأيت أنها ستتنزل قوة كوماندوس لقطع الطريق على الاقتراح الإسرائيلي، ولتشجيع المعارضة العراقية، وللتشديد على واقعة استحالة اختراق حماية القيادة العراقية.

ولما تأجلت الضربة وجرت محاولات تبريرها بالخوف على أرواح آلاف العراقيين، بدأ الأمر نكتة تفوح منها رائحة فستان مونيكا النتن. فهل يسبُّ الثعلبُ (الذي زرع الأرض باليورانيوم الخامد) الماكرينَ؟! ويخافُ على الأرواح.

لقد بدت المسألة بأنها هروب إلى الأمام، فإذا كان بوش قد أعلن عن قيام نظام عالمي بزعامة أميركية، فإن كلينتون يريد الهروب من فضيحة مونيكا، بالإعلان عن زعامة عالمية أميركية لامبالية بالعالم وبأممه المتحدة. وهذا ينسجم مع تحليلنا لشخصية كلينتون المنشور في الكفاح العربي وفي كتابنا (سيكولوجية

السياسة العربية). ولعلنا نجد تأكيد ذلك في العبارة المكتوبة على صاروخ أميركي ألقي على بغداد وتقول: ((هدية إلى المسلمين بمناسبة شهر رمضان)).

وهذه الهدية تليق بالحضارة العدوة التي طرحتها فرضية صدام الحضارات. بل قل: إنها مجرد عينة من هدايا علينا انتظارها. خصوصاً بعد أن تأكدنا أن العراق لم يعد عمقاً عربياً استراتيجياً، بل تحول إلى منطقة منكوبة بإشعاعات اليورانيوم، وبالتفكك إلى دويلات، فهو إذن غير مقصود بمثل هذه الهدايا، بل يقصد بها دول المنطقة التي تتعرض للإفقار عن طريق خفض أسعار النفط لغاية النهب. ودفعها للتسابق على التسلح، وتفجير تناقضاتها الداخلية، وفيما بينها، وإذا كان تهديد إسرائيل بإنزال كوماندوس يهودي في بغداد دفع بالولايات المتحدة لخوض (ثعلب الصحراء)، فإن تهديد إسرائيل بضرب المفاعل النووي الإيراني، قد يدفع بالولايات المتحدة لخوض سلسلة جديدة من الثعالب حتى تجرؤ على إعلان صريح عن الدول المستهدفة فعلياً من هذه العمليات.

المستقبليون الأميركيون أعلنوا بوضوح تام عن إمكانية التحكم بمصائر الدول عن طريق تبني أقليات معينة وإغنائها بالمعلومات. وهذا ما يطبق اليوم في الأقطار العربية كافة من دون استثناء، وهنا استنتج رأيا أعترف بغرابته، وهو أن الثورة العالمية ستنطلق من داخل

الولايات المتحدة نفسها، وليس من أي قوة خارجية، فقد تمكنت العاقلة مونيكا من تشكيك المواطن الأميركي بتوراته الجديدة (الدستور الأميركي)، وتمكنت السيدة باولا جونز من مقارعة رأس النظام العالمي الجديد ومحاكمته.. إلخ.

ويبقى لنا بعد كل ذلك أن نعلّم أطفالنا حسن استخدام الفرنكات، والشعور بقدرتهم على الفعل، والمساهمات في التغيير، وأن ندربهم على الصبر بانتظار ظهور عدو جديد يحل أزمة الولايات المتحدة، الباحثة بلهفة عن عدو يخلصها من ثوراتها الداخلية، علنا ننجو من سياسة الحصار والإفقار الممارسة على شعوبنا ودولنا.

٩- المصالح الأمريكية
وتقسيط الحرب في ثعلب الصحراء

٩/٢/١٩٩٩م

عندما أعلنت الولايات المتحدة عن عقد أول مؤتمر فلسفي أميركي قهقه الأكاديميون الألمان ضحكاً، لاعتبارهم الخبر فكاهة ظريفة. فالمتفلسفون الأوروبيون لم يكونوا قادرين على تخيل إمكانية إنتاج فكر فلسفي من قبل المهاجرين الأوروبيين إلى أميركا، الذين أضيف إليهم لاحقاً المهاجرون اليهود الهاربون من أوروبا، وبعضهم كان من أكاديميي الدرجة الأولى. ومع ذلك فإن الأمر لايزال يبدو وكأنه نكتة. فقد اضطر الأميريكيون لإعلان نهاية الإيديولوجيات قبل أن يعمدوا إلى تسويق أفكارهم التي لم يتمكنوا من الرقي بها إلى مصاف الإيديولوجية. وذلك لجملة أسباب يأتي في طليعتها عدم قابلية هذه الأفكار للتعميم. فهي مع تطبيقاتها تتغير بتغير المصالح وميادين التطبيق.

ولعلنا بحاجة هنا إلى أن نضرب على ذلك بعض الأمثلة التي نعيشها. ونختارها من حدث طازج هو (ثعلب الصحراء)، تلك العملية التي تستدعي جملة أسئلة يمكن لإثارتها ولأجوبتها المتوقعة أن تعطي لمحة معبرة عن نمط التفكير الأميريكي، من هذه الأسئلة:

١- **الحرب بالتقسيط:** كانت تكنولوجيا الحرب الأميريكية قادرة على تحقيق النتائج التي حصلت عليها من خلال ساعة واحدة من القصف المركز. فلماذا توزع الضربة على أربع ليال؟ ثم لماذا كانت هذه الحرب ليلية؟ وهذه الأسئلة تستدعي أخرى، حيث كانت كل مراحل الحرب العراقية مقسطة. وكانت كل مرحلة تنتهي على وعد الاستئناف لاحقاً. وهذا يستتبع السؤال عن الهدف من تقسيط هذه الحرب.

٢- **ضحايا (ثعلب الصحراء):** في تشرين الثاني (نوفمبر) سوقت الإدارة الأميريكية ذريعة التراجع عن الضربة العسكرية، بأنها ستوقع عشرات الآلاف من الضحايا المدنيين. ثم قامت بعد ذلك بشهرين بالعملية فماذا حدث؟ هل باتت الولايات المتحدة أقل اهتماماً بعدد الضحايا أم أنها باتت أقل إنسانية؟ أم أنها وجدت عصاً سحرية للإقلال من عدد الضحايا؟

في المقابل هل كان للإعلان عن احتمال وقوع عشرات آلاف الضحايا صلة ما (مباشرة أو غير مباشرة) بتحرك الشارع العربي؟ وهل كانت هذه الصلة مدروسة أم أنها لا إرادية - غبية؟

وبالنتيجة تحصل الضربة ولا توقع سوى عدد محدود من الضحايا، بما يطرح السؤال عن السبب الحقيقي لتأجيل الضربة من تشرين الثاني (نوفمبر) إلى كانون الأول (ديسمبر)؟ والذي اضطر الولايات المتحدة لاختراع هذه الكذبة! وأيضاً لماذا علقت الضربة مع وعد متابعتها في قسط آخر لاحق.

٣- **(ثعلب الصحراء)**: إن المطلع على السيكولوجية الأميريكية يدرك مدى تطير هذه. ففي الولايات المتحدة يبلغ التطير من الرقم ١٣ حدود إلغاء الطابق الثالث عشر في مبانيها: وهو يصل إلى حدود لجوء العديد من المسؤولين الأميريكيين لاستشارة المنجمين. فهل يتفق هذا التطير مع اعتماد (ثعلب الصحراء) وهو لقب (رومل) القائد الألماني، الذي خسر معركة العلمين!

وهنا يطرح السؤال عما إذا كان لهذا العنوان صلة ما بـ(ثعلب العراق) نوري السعيد وبحلف بغداد؟ وبالتالي عن علاقته بالمعارضة العراقية الخاضعة للمعايير الأميريكية؟ وهذا يستدعي السؤال عن حصة هذه المعارضة في (ثعلب الصحراء)، وعن

أسباب عجزها عن القيام بدورها، وهل لهذا العجز علاقة بتقسيط الضربة على أربع ليال؟ وبإنهاء العملية على وعد متابعتها؟

٤- **الشارع العربي**: شكل سقوط جدار برلين ضربة قاصمة للتيارات القومية العربية، التي اعتمدت الإيديولوجيا الاشتراكية . حتى رأى بعضهم أن سقوط الاتحاد السوفياتي رديف لسقوط القومية. ووصل الأمر ببعضهم إلى حدود إعلان وفاة هذه القومية، وانعكست هذه الأحداث على الشارع العربي بظاهرة الرّهاب الأميريكي (أي الخوف المرضي من الولايات المتحدة).

إن مجمل التصرفات والمواقف الأميريكية كانت تصب في خانة دعم إسرائيل والعداء للعرب. وهو عداء لم تخف وطأته إلا في حالات التمهيد لتغلغل إسرائيلي في المنطقة، سواء عن طريق سياسة الأحلاف، أو عن طريق المشروعات السلمية. وأمام الهيمنة المطلقة عالمياً للولايات المتحدة وجدنا الشارع العربي ينكص إلى الدين، كبديل وحيد متاح للاشتراكية المتبخرة.

وفجأة يبعث الشارع العربي بمناسبة (ثعلب الصحراء) فهل كان هذا الانبعاث مفاجئاً حقاً؟ أم هو كان مدروساً بدقة؟ هل كان للإيحاء باحتمال وقوع عشرات آلاف الضحايا العراقيين علاقة بهذا الانبعاث؟

٥- **سقوط الأنظمة العربية:** تتحدث المخابرات الأميريكية عن سقوط الأنظمة العربية، وكأنها تتحدث عن مناقلات في واحدة من المؤسسات الأميريكية. فقد سربت هذه المخابرات شائعة مفادها أنها اضطرت للإيعاز بوقف (ثعلب الصحراء) بسبب حركة الشارع العربي التي كادت تطيح ببعض الأنظمة العربية، وهي تتحدث بحرية عن رغبتها في إزالة النظام العراقي، وتحدد رغبتها في خلافة هذا الزعيم العربي أو ذاك.

ويأتي بعد ذلك تحليل ردود فعل الشارع العربي، ومدى استجابته لمختلف هذه الإيحاءات. حيث يبدو هذا التحليل مناقضاً للحسابات الأميريكية. لكن عجز الجامعة العربية عن حشد التأييد لعقد قمة عربية يصب في هذه الحسابات. والسؤال هنا هو: هل تقبل الجماهير والأنظمة العربية تغيير هذا النظام أو ذاك على أيد أميريكية؟ حتى إذا كان بعضها يرى ذلك ضرورة؟ وإذا كان من الطبيعي أن لكل نظام معارضيه، ولكن هل يقبل المعارضون بقبول الدعم الأميريكي الكامل من أجل إزاحة النظام؟ وما موقف الشارع من هؤلاء في حال قبولهم لهذا الدعم؟

إن مجمل الأجوبة والمواقف المتعلقة بهذا الموضوع، لا يمكنها أن تكون دقيقة مالم ينظر إليها على ضوء الضغوط الاقتصادية، التي تمارسها الولايات المتحدة على مختلف الأقطار العربية. فمن

إنزال سعر النفط إلى ثمانية دولارات (والتهديد بالنزول به إلى خمسة دولارات) إلى التهديد بحجب المعونات، وصولاً إلى الحصار الاقتصادي متعدد الدرجات.

إنها سياسة إفقار العرب بغضّ النظر عن اتجاهاتهم وأنظمة حكمهم. بل إن الإفقار بات يتخطى الحكومات إلى الأفراد، حيث تتم الاستعدادات للحجز على الحسابات المصرفية للمتمولين العرب بحجة دعمهم لحركات إرهابية.

٦- **رؤية مستقبلية:** الأميريكيون يؤمنون أشد الإيمان بعلم مستجد يدعى بالمستقبليات، لذلك فإن تقديم رؤية مستقبلية قد يكون مقدمة لأي حوار جدي معهم. ولكي تكون هذه الرؤية أكثر إقناعاً فإننا نشدد فيها على نظرية الاستقراء التاريخي ونبدأ بـ:

أ- **انبعاث القوميات:** لم يتمكن الحكم الشيوعي السوفياتي من دفن القوميات التي ضمها اتحاده على الرغم من استخدامه الوسائل كافة والحيل المتوافرة، من منع الدين، إلى الفوضى الديموغرافية، وفرض لغة بديلة، حتى أمكن الإعلان عن وفاة هذه القوميات. لكن هذا الإعلان لم يكن أكثر من كذبة عابرة، لأن هذه عادت للانبعاث فور نهاية وسائل كبتها.

ب - ثورات الفقراء: منذ عهد الرومـان ولغاية وقتنا الراهن والأمثلة تتوالى على ثورات الفقراء. ولعل الولايات المتحدة لاتزال تذكر مواصفات المهاجرين الأوائل إلى أميريكا وصفاتهم وأسباب هجرتهم. ولعلها تذكر أيضاً أن الأحداث التي هزت اقتصادها، كانت أحداثاً داخلية من صنع مواطنين أميريكيين فقراء. ولعل آخرها كانت حوادث (لوس آنجلوس) التي تهدد باندلاع ثورة أمريكية للفقراء. وإن كانت حركة الفقراء البيض أكثر هولاً، وهي التي تجلت بانفجار أوكلاهوما.

جـ - صدام الحضارات: عندما يطرح المنظرون الأميريكيون الإسلام كعدو حضاري لبلادهم، فإنهم يعطون الصدارة فيه للإسلام العربي، لأنه إسلام لم يهادنوه قط. ففي مراحل مختلفة تمكنت الولايات المتحدة من مهادنة الإسلام الطوراني والفارسي والآسيوي، وتعاونت معهم. أما الإسلام العربي فقد اختارت له الولايات المتحدة موقع العداء الدائم. وكان انفجار مركز نيويورك التجاري أحد أقوى ترجمات هذا العداء. وهو كرّس الإسلام العربي في واجهة العداء الإسلامي للغرب.

د - صدمات حديثة العهد: إن الذاكرة الأميريكية تحتفظ بالعديد من الذكريات الصدمية في المنطقة العربية. ومنها الهجوم على مقر المارينز في بيروت (أعقبه انسحاب أمريكي من لبنان)

والهجوم على القاعدة الأميريكية في الرياض، والهجوم على القوات الأميريكية في الصومال، بالإضافة إلى تفجير السفارات، وعمليات الخطف، وغيرها من الضربات التي وجهت إلى المصالح الأميريكية.

ولو أننا راجعنا فاعلية الضربات لوجدنا أنها ضئيلة الأثر إذ إن مجمل خسائرها (مادية وبشرية) لا تتخطى خسائر حوادث السير في أسبوع عادي من حياة الولايات المتحدة. لكن هذه الصدمات استطاعت توليد رعب أميريكي، هو الخوف من الإرهاب، والذي يصل إلى حدود تخيل تعرض المواطن الأميريكي لهجمات بالأسلحة الجرثومية. مما يؤدي إلى إنفاق المليارات على دراسات الإرهاب وسبل مقاومته. في المقابل نجد أن المسؤولين يحافظون على رباطة جأشهم وموضوعيتهم، فيركزون خوفهم على إرهاب الميليشيات الأميريكية المتطرفة، في حين يخصصون مبالغ ضئيلة للإرهاب المستورد، (مثال ذلك أن جائزة من يقدم معلومات عن بن لادن لا تتجاوز خمسة ملايين دولار، ومخصصات المعارضة العراقية لا تتجاوز مئة مليون دولار. في حين تنفق المليارات على برنامج حماية الشهود في قضايا الإرهاب عامة).

هـ - الفحص الموضوعي لحالة فقدان الوعي العربية: إن الجسد العربي لايزال يحتفظ بقدرته على الإحساس، وعلى إعطاء

ارتكاسات مطابقة ومضبوطة، مثل ارتكاسات التعاطف مع جارودي وتشومسكي وهيكل، والأفلام التي تحكي قصص (عبد الناصر) والحروب العدوانية الإسرائيلية، ورفض التطبيع، وإقامة العلاقات مع إسرائيل وغيرها من الارتكاسات، التي تعكس سلامة الجهاز العصبي لهذا الجسد. لكنه يعاني في المقابل عمه الحواس (Agnosie) مما يفقده القدرة على تنظيم هذه الارتكاسات في ردة فعل معقدة، من شأنها أن تتكامل مجموعة مؤلفة من ارتكاسات عدة. بما يعني عجز هذا الجسد عن إظهار تبديات الفعالية متكاملة (يعادل عجز الشارع عن تنظيم ردود فعل متكاملة). ولكن هل يمكن اعتبار ردة فعل الشارع العربي تجاه عملية (ثعلب الصحراء) إيذاناً بنهاية عمه الحواس هذا؟

انطلاقاً من هذه المعطيات تتشكل الرؤية المستقبلية التي تجزم باستحالة القضاء على الطابع الجمعي للعقل العربي (بغض النظر عن توجهاته الإيديولوجية) مما يجعل احتمالات تطويره لردود فعل منظمة جيداً احتمالات أكيدة. وهذا **التأكيد يجعل من مصلحة الولايات المتحدة أن تخفف من عدائها لهذا العقل وجسده.** فهاهي الأقليات بدأت تمردها على نظام السخرة الأميريكية. أما المعتدلون العرب (وفق التسمية الأميريكية) فإنهم يتلقون الخيبات المتتالية. وهاهم المهادنون العرب وقد بدأ صبرهم ينفد. أما أغنياؤهم فقد بدؤوا يشهدون عملية امتصاص أموالهم بأساليب دراكولا. ونصل إلى العرب الخائفين الذين لم تعد الولايات المتحدة قادرة

على بيعهم مشاعر الأمان. كل ذلك في مقابل الإسلام العربي، الـذي بدأ ينظر للولايات المتحدة على أنها عـدوة الديـن،، بعد أن رأى فيهـا حليفة له في الحرب الأفغانية. فهل تدرك الولايات المتحـدة أن مصالحهـا في المنطقة تسير نحو بدايـة النهايـة. إنـه فصـل مهـم مـن فصـول (تـآكل المصالح الأميريكية) التي لفت (هنتنغتون) الأنظار إليها.

١٠- تهديد المصالح الأمريكية

من بن لادن إلى شوروش (١)

١٩٩٩/٧/١م

مقالتنا المعنونة (الانهيارات المالية في البورصات - الفردية تهدد العولمة) التي نشرتها (الكفاح العربي) في تاريخ ١٩٩٧/١١/١٥م، ذكرنا أن البورصة لا تخضع لعوامل موضوعية قابلة للقياس، لأن عوامل ذاتية تقود المتعاملين فيها بعيداً عن أية موضوعية، حيث الحدس غالباً ما يقود هؤلاء. وتساءلنا في تلك المقالة عما إذا كان من المنطقي أن يتعولم العالم اقتصادياً، ليصبح تحت رحمة أفراد من هؤلاء المتعاملين؟ وفي مقالة لاحقة نشرناها في (الكفاح العربي) بعنوان سقوط العولمة وانبعاث الأحلاف) (١٩٩٩/٣/٢٧م) و (١٩٩٩/٣/٣٠م) على تهديد العولمة الاقتصادية عن طريق تسببه بانهيار البورصات.

مناسبة التذكير بهاتين المقالتين، هي صدور كتاب للسيد جورج شورروش تحت عنوان (أزمة الرأسمالية العالمية). وفيه يوزع المؤلف المعطيات على قسمين:

الأول: نظري ويحمل عنوان (الإطار المفاهيمي).

والثاني: تطبيقي – ميداني، يضمنه بعض الاعترافات والأسرار التي يعلن بعضها لقرائه للمرة الأولى. ويحمل هذا القسم الثاني عنوان (اللحظة التاريخية الراهنة).

فيما يتعلق بالقسم الأول النظري، فإننا لم نجد فيه إضافة تذكر إلى ما عرضناه في مقالة (الفردية تهدد العولمة)، حيث يؤكد شورروش في هذا الفصل نتائج الدراسات المعروضة في مقالتنا ومنها: (سيكولوجيا البورصة) و (الاستراتيجية الاستثمارية المعاكسة) ودراسات جامعات (يال وأريزونا) وكولومبيا مع فارق أن شورروش يورد هذه النتائج استناداً إلى تجربته ورؤيته الخاصتين. إذ يرى أن مصطلح التوازن النقدي مستعار من العلوم الدقيقة. وهي استعارة غير موفقة، لأن الأسواق المالية تخضع لعوامل ذاتية، وغير ممكنة القياس، الأمر الذي يجعل من معرفة اتجاه السوق مسألة غير خاضعة للتقديرات العلمية، وتحتاج إلى نوع خاص من القدرة على قراءة المتغيرات وأثرها على المتعاملين في السوق (مستثمرين ومنتجين، ومستهلكين ومضاربين).

وعلى الرغم من تجاوز هذا القسم المئة صفحة، فإنه لا يكاد يقدم أي جديد لقارئ مقالة (الفردية تهدد العولمة)! فهل كان شورروش يقصد مجرد تقديم عرض عضلات نظري في هذا القسم؟ أو أنه يشبه المقامر الذي يجيد قراءة وجوه منافسيه في المقامرة من دون أن يملك القدرة على شرح وتفسير قدرته على هذه القراءة؟! أو تراه يذهب في سوء نيته إلى أبعد من ذلك؟

ولا بد للقارئ من الانتظار لإنهاء قراءة القسم الثاني من الكتاب عله يجد فيه ما يفسر مئة صفحة من الاستعراض النظري الذي لا يسمن ولا يغني.

في القسم الثاني (اللحظة التاريخية الراهنة) يتحدث شورروش عن أزمة انهيار العملات الماليزية والأندونيسية. حيث يعترف بأنه قد باع سندات بهذه العملات، بسندات مؤجلة الدفع، ما بين ستة أشهر وسنة. كما يعترف بأنه لم يكن يملك هذه العملات، أو موارد لتسديد سنداتها عند بيعه لهذه السندات، إلا أنه كان يدرك أن السياسة المالية التي تتبعها هذه الدول، لتأمين عجز ميزانها التجاري هي سياسة لم تعد قادرة على الصمود طويلاً: وهو قد غامر على هذا الأساس، ونجح في مغامرته حيث ربح المليارات، وساهم في انهيار اقتصاديات هذه البلدان. بما يعتبر بداية لسقوط العولمة، وهكذا تحققت نبوءة سقوط العولمة على يد

المضارب جورج شوروش (راجع مقالتنا في ((الكفاح العربي)) ٢٧ و ٣٠/ ٣/ ١٩٩٩م). في المقابل يعرض المؤلف لخسارته القاصمة لظهره في روسيا. ويسهب في شرح ما جرى في ذلك البلد، الذي كان قبل سنوات قليلة (دولة عظمى). وفي هذا الفصل تتبدى لنا ملامح سوء نية المؤلف، بحجبه لمعلومة أساسية كان بإمكانها أن تجيب عن سؤال لا بد من أن يخطر ببال أي قارئ وهو: (ماذا كان يفعل شوروش، وهو المضارب الخبير، في روسيا وهو يعلم، أو يجب أن يعلم أنها على وشك الانهيار؟ وبالتالي كيف يتورط مضارب بمثل هذه الخبرة بخسارة بمثل هذا الحجم؟).

والمعلومة التي يخفيها شوروش هنا، كنا قد أدركناها في المقالات سابقة الذكر، يمكن مراجعتها في كتابنا (سيكولوجية السياسة العربية) وقوامها أن صغار المستثمرين، والمستثمرين الجدد، هم الأكثر تأثراً بالإيحاءات الخاطئة. لكن اندفاعهم فيها يرفع الأسعار، بحيث يجبر المستثمرين الخبراء على الدخول في اللعبة، مع إدراكهم لخطأ اتجاهها. والحكمة هنا في أن ينسحب المضارب الخبير في الوقت المناسب. أي قبل أن يدرك السذج حقيقة الأمر، فيندفعون للبيع بما يؤدي لانهيار الأسهم.

وهنا يطرح سؤال إضافي: لماذا لم ينسحب شوروش في الوقت المناسب؟

يجيب شورروش عن هذا السؤال بطريقة غير مباشرة، إذ يذكر أن سعر الفائدة على الروبل كان ٤٥٪ يوم ٩ آب (أغسطس) ١٩٩٨ م، وفي ٢٦ منه قفز هذا السعر إلى ٤٥٧٪، وهذا يعني أن الانهيار أتى مفاجئاً، وخلال أقل من ٢٠ يوماً، الأمر الذي حال دون انسحاب شورروش في الوقت المناسب.

ويسهب شورروش في سرد المحاولات اليائسة التي بذلها مع بعض المسؤولين الروس لتأمين سيولة من مصادر حكومية (الولايات المتحدة خصوصاً) وغير حكومية (البنك الدولي خصوصاً). إلا أن هذه المصادر امتنعت عن التدخل تاركة الاقتصاد الروسي يلاقي الانهيار المحتم.

عند هذا الحد يجد القارئ نفسه أمام مقامر لا يشق له غبار. فالقارئ لا يستطيع أن يفهم ماذا يريد المؤلف عبر عرضه لهذه المعلومات وفي أي اتجاه يريد توجيهنا؟ بل لماذا هو كتب هذا الكتاب أساساً؟ هل هو مؤيد للرأسمالية العالمية كونه مستفيداً منها؟ أم أنه لا مبال بمصيرها، طالما أنها تحقق له الربح؟ وهل هو ناقم على العولمة الاقتصادية التي تسببت في خسارته الروسية؟

إن الأجوبة عن هذه الأسئلة تستدعي التعمق أكثر فأكثر في قراءة الكتاب، ومحاولة استبصار أهداف مؤلفه. لكن هذا التعمق

لا يفعل سوى أن يزيدنا حرجاً وارتباكاً. وإليك الأقنعة العديدة لوجه هذا المقامر:

١ - قناع معارضة العولمة الاقتصادية: حيث يتحدى شوروش المحللين الأمريكيين (متطرفي الليبرالية) القائلين بأن سبب انهيار اقتصاديات الدول المتعولمة لا يعود إلى خطأ في (نظام السوق) الليبرالي، بل يعود إلى الفساد المستشري في هذه الدول، وإلى البيانات الاقتصادية الكاذبة التي تقدمها للبنك الدولي، ولغيره من الهيئات (بما فيها المستثمرون).

في تحديه لهذه التبريرات يقول شوروش بأن النظام الرأسمالي العالمي هو سبب هذه الأزمات، لكونه يعاني أمراضاً وآفات مزمنة، وفيروسات جديدة تجعله غير قابل للعولمة.

ولكن ألا يمثل شوروش نفسه واحداً من هذه الفيروسات؟ إنه يعترف بذلك. بل هو يقدم جملة اقتراحات لتحصين النظام الرأسمالي العالمي. وبذلك يتبدى لنا أنه ليس معارضاً لهذا النظام.

٢ - قناع داعية الإصلاح: حيث نجد شوروش ينتقد عيوب هذا النظام ويدعو لإصلاحه. فيبدأ باستعراض أخطاء وعثرات البنك الدولي، وغيره من المنظمات الدولية، ليصل إلى انتقاد البيوتات المالية الضخمة التي باتت تشكل خطراً على الدول نفسها،

وليصل إلى انتقاد مؤسسات التقويم المالي، التي يصفها بأنها قادرة على أن ترفع من تشاء، وتخفض من تشاء في الأسواق المالية.

وهنا نتساءل عن الشبه بين شوروش، وبين الثعلب الواعظ؟ فهو من المستفيدين الأوائل من هذه الأخطاء. الأمر الذي يجعل من دعواته الإصلاحية مثاراً للشكوك؟

٣ - **قناع المتطرف الليبرالي**: ومن هذه الزاوية، يبدو لنا شوروش، وكأنه من غلاة الليبراليين الأكثر تطرفاً، فهو ينتقد أصولية السوق، وجمودها الإيديولوجي، هذا الجمود الذي حال دون التدخل لإنقاذ ماليزيا من ورطتها الاقتصادية. مما أدى لخروجها من التعولم، ويؤكد أن دولاً نامية عديدة ستحذو حذوها. وكذلك فإن هذه الأصولية هي المسؤولة عن ترك روسيا لمواجهة انهيار يهدد بالمجاعة... إلخ.

وعلى الرغم من واقعية وموضوعية هذه الانتقادات، فلنضع أنفسنا مكان الليبراليين الحقيقيين الذين يعلمون أن لهذه الأصولية أسبابها الوجيهة، وفي طليعتها وقاية (وول ستريت، الاقتصاد الأمريكي تالياً) من عدوى البورصات الأخرى. كما يعلم هؤلاء أن شوروش قد استفاد من هذه الأصولية التي لم تتسبب في خسارته إلا في روسيا. لكن هؤلاء يعلمون أيضاً أن السبب الحقيقي لخسارته، هو أنه كان يهودياً يواجه يهوداً روساً!

تهديد المصالح الأمريكية

من بن لادن إلى شوروش (٢)

خطر الخصخصة والعولمة على بلداننا العربية

١٩٩٩/٧/٢م

يواصل محمد أحمد النابلسي، عرض كتاب شوروش حول أزمة الرأسمالية العالمية، وآثارها على العولمة، ويغوص في حلقة اليوم في نفسية هذا المقامر اليهودي. مما تقدم يتبين لنا أن شوروش يغير قناعه، كلما تعمقنا في محاولة فهم دوافعه الكامنة وراء نشر مثل هذا الكتاب. وبذلك يحق لنا أن نحاول تطبيق المبادئ النفسية لقراءة وجه لاعب البوكر الشديد الدهاء: شوروش. ولنستعرض معاً بعض المعطيات المساعدة على هذه القراءة ومنها:

١ - تعود شهرة شوروش العالمية إلى كسبه مبلغ مليار دولار عبر المضاربة على الجنيه الإسترليني العام ١٩٩٢ م. وبغض

النظر عن الفرضيات السياسية المطروحة لهذه المضاربة، فإن شورروش قد أثبت بأن الدول الكبرى بعملاتها واقتصادياتها ليست ملقحة ضد المضاربة وضده شخصياً.

٢ - إن شورروش يعيش اليوم وضعية اضطهادية، فهو يثير الرعب في البلدان التي يزورها، ولو لمجرد السياحة. بحيث يجد نفسه يتحول تدريجياً إلى شخص غير مرغوب فيه في بلدان عديدة من العالم.

٣ - إن مضاربات شورروش في بورصات الدول المتعولمة، تعتبر من الأسباب الرئيسية لانهيار اقتصاديات تلك البلدان، وإفقار شعوبها التي تعد بالملايين. وإذا لم تكن المسألة على علاقة بمشاعر الذنب، فإنها على علاقة أكيدة بالخوف من غضب الملايين على شخصه.

٤ - لقد ناقشت قمة الدول الخمس عشرة في مؤتمر (جامايكا) أسباب عثراتها الاقتصادية. وكان شورروش من ضمن المناقشة.

٥ - دعي شورروش لحضور إحدى جلسات منتدى دافوس التي عقدت في شباط (فبراير) مطلع العام ١٩٩٩م. وفي تلك الجلسة جرى حوار مع شورروش، هو في حقيقته استجواب لمتهم.

بعد اطلاعنا على هذه المعطيات ومقارنتها بمواقف المؤلف المتناقضة عبر الكتاب، يمكننا أن ندرك، بأن قصد شوروش من هذا الكتاب، هو تقديم مرافعة للدفاع عن نفسه وعن أساليبه في المضاربة أمام أكبر عدد ممكن من المهتمين. وفي هذا السياق يمكننا قراءة الكتاب قراءة مخالفة، من عناصرها:

١ - محاولة الظهور بمظهر المفكر الاقتصادي: وذلك بالتأكيد على كونه تلميذاً من أتباع الفيلسوف (كارل بوبر). بل إنه يتجاوز ذلك إلى الدعوة لمبادئ بوبر القائلة بطرح (المجتمع المفتوح) الذي يتبناه المؤلف على أنه بديل للشيوعية وللرأسمالية معاً. مع أنه يدرك أن هذا الطرح أصبح نوعاً من اليوتوبيا في عصر المعلومات الراهن.

٢ - يحاول شوروش أن يتقمص دور اللورد (كينز) الذي قدم جملة مقترحات للخروج من أزمة (الكساد الكبير) في الثلاثينيات.

الرابح دائماً. بهذا يتضح لنا أن الكتاب هو مرافعة دفاعية - قانونية مقدمة من جهة تخشى توليد مصطلح (الإرهاب المالي) في عصر يولد المصطلحات ويلبسها الدلالات التي تناسبه، من دون أن يتحرج من اختلاف هذه الدلالات وانقلابها إلى عكسها لوجهة مصالح الأغنياء.

ومثل هذا الخوف مبرر، فبريطانيا لن تتردد لحظة في محاكمته كمجرم مالي إذا ما أتاحت لها الظروف القانونية ذلك. أما محاكمة الفقراء فقد تكون أكثر قساوة، أو إرهاباً بحسب معجم مصطلحات العصر الراهن، ثم أن استجواب جلسة (منتدى دافوس) لشورروش يمكن اعتباره مقدمة لمثل هذه المحاكمة، ومستجلباً لضرورة مثل هذه المرافعة. خصوصاً أن الأفراد القادرين على تهديد العولمة (وفق طريقة شورروش) يعدون على أصابع اليد الواحدة. بحيث يمكن للنظام الرأسمالي العالمي التخلص منهم بسهولة، إذ وجد نفسه عاجزاً عن إصلاح الخلل الذي يدخل منه هؤلاء للمساهمة في تقويضه.

ولكن ما هي الفائدة من قراءة مثل هذه المرافعة - الكتاب إذا نحن لم نستخلص منها المعطيات التي تهم مصالحنا العربية. وهي معنية مباشرة في هذه اللعبة، فعلى الرغم من التكتم الشديد على دخولنا في اللعبة، فإن خسائرنا تفضحنا، ولعله آن الآوان لنلاحظ

أننا، ومصالحنا العربية تحديداً، نتعرض لسياسة إفقار منظمة يمارسها علينا الإرهاب المالي الدولي بدعم من الدول الغنية، ونكتفي في هذا المجال بالتذكير بأن حرب (عاصفة الصحراء) كانت الحرب الأولى في تاريخ البشرية التي ترافقت مع هبوط حاد في أسعار الذهب.

وإذا كنا نتحفظ على إعلان الحجم الحقيقي للأضرار اللاحقة بمصالحنا، فإن أقل القليل أن نستخلص بعض العبر من كتاب شوروش، منها:

١- هرمية البورصات: يشرح شوروش كيفية تأثير انهيار بورصة ما، على بقية البورصات على النحو الآتي:.. عندما تريد ماليزيا مثلاً تأمين السيولة، فهي تلجأ طبعاً للقروض قصيرة الأجل. ونظراً لتدني الثقة فيها، فإن المولين يطلبون منها فوائد عالية، لذا فهي تلجأ للحيلة فتستدين عن طريق كوريا، التي تتمتع بثقة أكبر، وبالتالي تحصل على قروض بفوائد أدنى، وتضيف إليها هامشاً من الربح، ثم تعيد إقراضها إلى ماليزيا. وعندما تحتاج كوريا نفسها للسيولة، فإنها تقترضها من اليابان، وهكذا تصبح هذه البورصات مترابطة فيما بينها، برباط هرمي (فيصبح انهيارها على طريقة الدومينو، بحث يؤدي وقوع قطعة واحدة إلى وقوع تدريجي متسلسل لكل القطع الأخرى) بحيث يؤدي انهيار

أحداها إلى الذوبان الاقتصادي. ولقد نجتْ الصين وتايوان من الأزمة الآسيوية، بسبب تمسكها ببعض التقاليد الاقتصادية وإبعادها عن العولمة.

٢– مآزق النظام الرأسمالي العالمي: ويذكر منها شورروش الكثير كما يخفي الكثير أيضاً، لكن القراءة الموضوعية، تبين لنا حقيقة وخطورة هذه المآزق. وهذا ما أشرنا له في مقالة (سقوط العولمة) حيث طرحنا سؤالاً نعيد طرحه الآن وهو: (**هل ستستمر الولايات المتحدة في سياسة العولمة لو بدت هذه العولمة مهددة للمصالح الأمريكية؟ أم أن الولايات المتحدة ستسعى عندها إلى إسقاط العولمة نصرة لمصالحها الخاصة**).

وسقوط العولمة هذا يهدد، وهو بعد فرضية، استمرارية واستقلال الدول المتعولمة، التي ستجد نفسها وقد باعت بناها التحتية، وخصخصت مرافقها، لتترك مواطنيها تحت رحمة المستثمرين، وحسبي هنا التذكير بقول مهاتير محمد (رئيس الوزراء الماليزي).. ((**لقد باتت النمور الآسيوية عاجزة عن الحكم الفعلي لبلدانها، وباتت مجبرة على قبول التدخل والتوجيه الأجنبي، وربما سنجد أن استقلالنا قد تقوض**)) (قمة الدول الـ١٥ مؤتمر جامايكا).

وربما أفادنا الإطلاع على معاناة هذه الدول وواقعها، ووقائع مؤتمراتها، قبل أن نتعجل في ركوب قطار العولمة الاقتصادية.

٣- الانهيار الأمريكي: إن شوروش لايكذب عندما يعرض لأمراض وآفات النظام الرأسمالي العالمي ولفيروساته الجديدة. وهنا يحضرني شيء من (الطب الاستعماري) حيث حمل المستعمر معه أمراضه إلى البلدان المستعمرة. كما حمل منها إلى بلاده أمراضاً أخرى، والأمر ذاته ينطبق على صعيد الأمراض الاقتصادية. فها هو البنك الدولي يثبت عجز هيكليته الحالية عن التعامل مع البلدان النامية، حتى إن نصائحه تتحول إلى كوارث في بعض هذه البلدان، ومثله المنظمات الاقتصادية الدولية.

وهذا يقودنا إلى السؤال عما يصبح عليه الوضع فيما لو أصيب الاقتصاد الأمريكي بعرض من هذه الأمراض وتمكن منه؟

إن الاقتصاد هو نقطة الضعف الأمريكية الأكثر هشاشة وقابلية للمرض (وهذا ما ينبهنا إليه الكتاب ويؤكده). ومثل هذا المرض يستتبع انهياراً أمريكياً أكثر درامية من انهيار الاتحاد السوفياتي. لقد استمعنا إلى طروحات (نهاية التاريخ) و(النظام العالمي الجديد) و(صدام الحضارات).. إلخ. لكنه حُظر علينا الاستماع إلى فوضية الانهيار الأمريكي، وظهور أقطاب بديلة لقطبي القرن العشرين. بل إن خضوعنا لهذه الطروحات الإيحائية جعلنا نبني مصالحنا المستقبلية بحيث تتوافق مع المصالح الأمريكية ولاتغضبها. حتى بتنا من المتضررين إذا ما حصل الانهيار الأمريكي بصورة فعلية. خصوصاً أن ملامح التحول الأمريكي بدأت بالظهور. فهاهي تعيد سياسة الأحلاف، لتعود فتورط أكبر عدد

ممكن من الدول معها، وها هي تتراجع عن مقولة (النظام العالمي الجديد) فتشارك الدول السبعة (ومعهم الاتحاد السوفياتي) في تنفيذ السياسات الجديدة للأطلسي. وها هي تضخ استثماراتها بكثافة إلى دول آسيا الوسطى، وتحاول تأمين أجواء شهر عسل بينهما ليُصبح الشرق الأوسط مجرد زوجة قديمة مجهورة، فهل نستخلص عبراً من هذه الوقائع؟ أم نبقى بانتظار سلام لن يتمكن (كلينتون) من تحقيقه (كونه في آخر سنواته الرئاسية، أي بطة عرجاء بالتعبير الأمريكي). كما أن خلفه سيكون مهتماً بقائمة الأزمات التي ستواجه الولايات المتحدة مطلع الألفية الثالثة، ولن يعير بالاً إلى هذا السلام، بل سيتركه لفرض الأمر الواقع، وهكذا يمكننا قراءة كتاب (شورروش) على أنه تهديد صريح بتعرية النظام الرأسمالي العالمي، وبكشف عيوبه على الملأ، لغاية المساهمة بإسقاطه، إذا ما وجهت إليه ضربات قاصمة مثل ضربة روسيا، أو إذا ما دعي للمحاكمة بصفة (مجرم مالي)، لذلك علينا ألا نفاجأ إذا ما وجدنا شورروش يتحول إلى بن لادن من نوع آخر.

١١- الجبار الأمريكي
وأساطير شمشوم وآخيل (١) و (٢)

٢٠ و ١٩٩٩/٨/٢١م

رغبة الإنسان بامتلاك القوة، وخلفها رغبة الخلود، دفعته لاختلاق الجبابرة الأسطوريين، لكن هؤلاء الجبابرة لم يقدموا للإنسان كفاية رغبته بالخلود، لذلك كانت كل أساطير الجبابرة في تاريخ البشرية تتضمن الإشارة إلى نقطة ضعف مميتة لدى الجبار، فكان شعر شمشوم هو نقطة ضعفه، وكان وتر مفصل كعب آخيل نقطة ضعفه وقس عليه.

اليوم ونحن نعايش الجبار الأميركي، الولايات المتحدة، ونشهد فصول خوارقها، فإننا لا نستطيع أن نغفل ضرورة وجود نقطة ضعف خاصة بهذا الجبار. ومثله مثل جبابرة الأساطير، فإن نقطة الضعف هذه يجب أن تكون حكماً في جسده، أي في داخله.

يؤكد على ذلك قدرة الجبار الأميركي على قهر أكثر المحاولات تنظيماً للنيل منه، حيث من غير المتخيل، بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، احتمال تنظيم أية قوة خارجية قادرة على قهره. في استكشافنا لنقطة الضعف للجبار الأميركي، نجد علائم متعددة ومتداخلة يمكنها أن تهدينا لتشخيص هذا الضعف، حيث يستند التشخيص عامة على مبدأ تقاطع المؤشرات، ولنستعرض معاً قائمة هذه المؤشرات المرضية المتظاهرة لدى الجبار الأميركي:

١- الشكوى الأميركية المعلنة من عدم تمكنها من تحقيق نفوذ عالمي مواز لقوتها العسكرية، وهي شكوى تعكس مؤشراً مرضيّاً من دون شك.

٢- دامت حرب كوسوفو أضعاف المدة المقررة لها، وصلت إلى ٧٩ يوماً، ومع ذلك رفضت الولايات المتحدة التدخل البري، بما يعادل اعترافها بعجزها عن دفع أي ثمن سياسي لهذه الحرب - حتى أن كلينتون تجنب إعلانها حرباً، كي يتجنب مواجهة الكونغرس، وخصوصاً إمكانية دفع الكونغرس للأمور باتجاه التدخل البري. ولما يئس الأوروبيون من دخول كلينتون في مغامرة برية اضطروا لأن يقدموا الجنود من عندهم، فتعهدت بريطانيا وحدها بتقديم خمسين ألف عسكري، وعندها فقط اضطر ميلوسوفيتش للتراجع.

٣- محاربة احتمالات الإرهاب الأميركي الداخلي تكلف الخزينة الأميركية ستة مليارات دولار سنوياً. وأضيفت إلى هذه الميزانية أخيراً ملحقات بشكل مكافأة بقيمة ١٠٠دولار أميركي لكل مواطن يقوم بتسليم سلاحه الشخصي. وتبدى جهل المسؤولين الأميركيين لواقعهم الداخلي من خلال نفاد المخصصات خلال بضعة أيام! فهم لم يكونوا ليتوقعوا مثل هذا الإقبال العارم، الذي يدل بالتأكيد على شيء. إذ يدل على أن حمل السلاح في الولايات المتحدة تحول إلى وباء هيستيري، بدليل أن أعداداً كبيرة تنازلت عن أسلحتها لدى حصولها على مكسب بديل تافه (١٠٠دولار). ولم يكن هذا ليحصل لو أن هذه الجماعات اقتنت السلاح لهدف محدد أقله الدفاع عن النفس، وانتشار الهستيريا بهذه الصورة تعكس قابلية الجمهور الأميركي للانقياد في أي اتجاه حتى ذلك المعادي للإدارة الأميركية. وأكثر منه اتجاه صراع المجموعات العرقية الأميركية.

٤- انفجار أوكلاهوما، هو بدوره مؤشر لا يمكن تجاهله في هذا التشخيص، حيث الميليشيات الأميركية البيضاء تضم آلاف الأعضاء المسلحين المؤمنين بتفوق العرق الأبيض، وهؤلاء يجدون مئات الألوف من المتعاطفين معهم، ويمكن لهذه الميليشيات أن تحدث انقلاباً حقيقياً في الولايات المتحدة إن هي أحسنت

الدخول في لعبة التجاذبات السياسية الأميركية، مكونة جماعات ضغط منظمة.

٥- لقد كان لظهور الإيدز وقع الصدمة على المجتمع الأميركي، الذي اكتفى لفترة طويلة بالدستور الأميركي باعتباره (الإنجيل الجديد). إلا أن الإيدز بيّن للأميركيين أن توراتهم فقيرة بالقيم الإنسانية، ولقد حاولت الحكومة الأميركية تعويض هذا النقص وطرح جهاز قيم جديد، مستمد من الأوروبي، لكن حركات أخرى كانت أسرع وأكثر جاهزية لاستغلال هذا الفراغ القيمي. ومن هذه الحركات حركات تشكل خطورة حقيقية على نسيج المجتمع الأميركي التعددي، ونذكر منها:

١- البدع الدينية (الأديان الجديدة).

٢- حركة فرقان (مظاهرة المليون شخص).

٣- الميليشيات البيضاء (تكراراً).

٤- تعاظم نفوذ الأديان - الأقلية مثل الكاثوليكية والإسلام واليهودية.

٥- تحول ممثلي الجريمة المنظمة إلى مشاركين فعليين في الاقتصاد والمجتمع الأميركيين.

٦- تنامي حاجة الشرطة الفيديرالية ليس فقط لمبالغ ضخمة، بل أيضاً للعودة إلى العمليات السوداء الداخلية، اغتيالات لشخصيات مؤثرة سياسياً واجتماعياً، فإذا ما تمت العودة الفعلية إلى مثل هذه العمليات، فإن ذلك سيكون مؤشراً على وجود أخطار أمريكية - داخلية مميتة.

ولكن كيف يمكن معرفة وتسجيل مثل هذه العودة؟ فهل يمكننا اعتبار انتحار محامي كلينتون، وعشيق هيلاري كما يشاع، بداية لمثل هذه العمليات؟

٦- التاريخ المرضي للولايات المتحدة، حيث لا يمكن وضع أي تشخيص من دون الاستناد إلى السوابق المرضية، وفي سوابق الجبار الأميركي نسجل ما يأتي:

أ - الحرب الأهلية الأميركية - من دون إغفال الدور البريطاني فيها.

ب- الحركات المطلبية الواسعة ونذكر منها:

١- الثورة الطلابية الأميركية لدعم مارتن لوثر كينغ (٦٤ - ٦٥م) - بيركلي.

٢- إضراب عمال جنرال الكتريك (١٣٣ألف عامل) (شتاء ٦٩-٧٠م).

٣- إضراب موظفي البريد الأميركيين (١٩٧٠م).

٤- الحركات الشعبية المناهضة لحرب فيتنام، شارك فيها كلينتون في حينه.

٥- الحركات المناهضة لحرب الخليج الثانية، محدودة لكنها أوقفت التدخل البري منذ ذلك التاريخ ولغاية اليوم.

٦- الهزيمة في حرب كارتيل المخدرات الكولومبي، فقد خاضت الولايات المتحدة حرباً حقيقية مع أباطرة المخدرات الكولومبيين، وخرجت مهزومة من هذه الحرب، بل إن سوق المخدرات الكولومبية تضاعفت داخل الولايات المتحدة، ولإنقاذ ماء الوجه اكتفى الجبار الأميركي ببعض الاغتيالات، هي في الواقع خدمة للمتنافسين على سوق المخدرات، والأهم هو السؤال: «ماذا يحصل للاقتصاد الأميركي لو أن أموال المخدرات والجريمة المنظمة سحبت من البنوك الأميركية»؟

٨ - أزمة السفارة الصينية، وهي ذكرت الأميركيين بنصيحة للرئيس نيكسون، أوردها في مذكراته، ويقول فيها: «...إذا فقدنا ثقة الصينيين فإننا لن نستطيع استردادها عن طريق المعونات المادية مهما بلغت قيمتها. فالصينيون شديدو الاعتزاز بكرامتهم الوطنية، وهم سيتجهون للتحالف مع روسيا مهما بلغت حدة خلافاتهم معها...».

وبمراجعة الموقف الصيني نجد نبوءة نيكسون تتحقق، بل نجد أن الصين تصرفت ليس فقط كندٍّ مساوٍ للولايات المتحدة، بل هي تصرفت من منطلق الاستعداد للمواجهة مع الجبار الأميركي، وعادت فأكدت على ذلك بإعلان ملكيتها للقنبلة النوترونية، وذلك بحيث اضطر الجبار الأميركي لتقديم تنازلات سرية لاحتواء هذه الأزمة.

٩- المنصفون من المحللين الأميركيين اعتبروا كلينتون أفضل رئيس أميركي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، فقد تمكن من تقديم علاج سحري وعجائبي لأزمة الاقتصاد الأميركي، متبعاً الاتجاه المناقض تماماً لسلفه بوش، وهو الجمهوري المحافظ، الذي يتبع حزبه سياسة تقليص النفقات، لدرجة إيقافه للقروض الأميركية لإسرائيل بسبب المستوطنات، فاستجلب بذلك **معارضة اليهود الذين احتضنوا كلينتون وساعدوه على سلوك المتاجرة بالفوضى العالمية، وتحقيق المكاسب وتأمين المصالح الأميركية عبرها، بما يجنّبه كأس خفض الإنفاق والتسليم بواقعة العجز الاقتصادي الأميركي، حتى ولو أدى ذلك إلى فوضى استراتيجية أميركية**، وإبدالها بوصفات تكتيكية تعامل كل حالة على حدة وبمعزل عن شبيهتها. وذلك اعتماداً على مبدأ تحقيق الربح السريع، وها هو كلينتون ينهي عهده من دون أن يترك فوضويات قابلة للاستغلال، **فالمنطقة الوحيدة الباقية**

لتحقيق أرباح أميركية هي منطقة استراتيجية، ومن الغباء التعامل معها من مبدأ الفوضى، لكن ذلك لم يمنع كلينتون من اللعب بنار هذه المنطقة، وهي القوقاز، حيث تنحو الإدارة الأميركية الحالية منحى ضرورة سلخ الشيشان وداغستان عن الاتحاد الروسي، في محاولة لتحويل داغستان إلى كوسوفو ثانية! فهل تجهل إدارة كلينتون خطورة هذا البركان، أم أنها تقدمه أزمة - هدية للرئيس المقبل؟

١٠- إن الرئيس الأميركي المقبل سيجد نفسه أمام خيارات صعبة، ربما أصعب كثيراً من تلك التي واجهت خليفة تيودور روزفلت في عشرينيات القرن العشرين، فالجبار الأميركي مرشح لمواجهة سنين شديدة الصخب منذ اليوم الأول للألفية الجديدة، وفي طليعة المشكلات المرتقبة خلال السنين المقبلة.

«وول ستريت» نقطة الضعف القاتلة

١١- يكابر الجبار الأمريكي برفضه الاعتراف بواقعة استحالة احتواء النفوذ، فأسلحة الدمار الشامل باتت متوافرة للجميع، خصوصاً بعد أن وصلت تقنياتها للبيع في السوق السوداء لمن يرغب من الدول أو الجماعات، بل إنها تكاد تتحول إلى العلنية.

وبعض الطمأنينة الأميركية تأتي من عجز الأعداء المحتملين عن إيصال أسلحتهم إلى داخل الولايات المتحدة، لعدم ملكيتهم

لصواريخ طويلة المدى. لكن العديد من الدول تعمل على تطوير مثل هذه الصواريخ، ناهيك عن الجماعات المستعدة لإيصال هذه الأسلحة شخصياً إلى داخل الولايات المتحدة.

١٢- لقد شعر المواطن الأميركي أنه يعيش في بلده ولأجلها، لكنه لم يشعر يوماً باستعداده للموت من أجلها، ويكفي أن يتعرض هذا المواطن لتهديد جدي حتى يتخلى عن انتمائه، وهو تخل مارسه هذا المواطن ببناء ملاجئ واقية من الأسلحة النووية يوم كان يخشى مغادرة الولايات المتحدة خوفاً من الشيوعيين، أما اليوم فإنه سيهرب بحياته وأمواله إلى بلد آمن. فإذا ما حدث مثل هذا الرعب انهارت وول ستريت ومعها الجبار الأميركي، وهذا يذكرني بدعابة كلينتون لبطرس غالي أثناء لقائهما الأول إذ سأله: هل تعتقد أنه من حرية الكلام أن يصرخ أحدهم في مسرح مكتظ بالناس «حريق... حريق..» من دون أن يكون هناك حريق؟

وهذا ما يحدث تماماً في البورصات حيث تنهار إذا ما صرخ أحد الموثوقين (كذباً) حريق.. حريق، ولقد حدث هذا مراراً في وول ستريت، فبالإضافة لانهيار العام ١٩٢٩م نذكر:

أ - الاثنين الأسود: الاثنين في ١٩تشرين أول (أكتوبر) ١٩٨٧م وفي الساعة العاشرة صباحاً، يصرخ ناطق باسم مؤسسة

سالومان: ((... إذا استمر الوضع على هذا المنوال فإننا سنصبح جزءاً من التاريخ)) - وصلت خسائر ذلك اليوم إلى ٥٠٠مليار دولار، وبقي السبب مجهولاً!

ب- الاثنين شبيه الأسود: الاثنين في ٢٧ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٩٧م يسجل مؤشر داو جونز أدنى هبوط له منذ الاثنين الأسود، وكانت التجربة الصدمية تتكرر لولا إقفال وول ستريت قبل موعدها (وهو ما عرف في ما بعد بسياسة قطع التيار)، وبقي السبب مجهولاً أيضاً.

جـ - زلازل تجريبية: تكتمت الإدارة الأمريكية عن هزات بسيطة وعابرة في وول ستريت. والتكتم يعود إلى تأكيد المتعاملين على اصطناعية هذه الهزات، وعدم إمكانية إدراجها في عداد الحركة الطبيعية للسوق، حتى بدا وكأن بعض الجهات المجهولة تجري اختباراتها على إمكانية صناعة اثنين أكثر سواداً من اثنين العام ١٩٨٧م.

أ- وول ستريت نقطة الضعف القاتلة

بعدما تقدم يحق لنا أن نعدَّ البورصة الأميركية (وول ستريت) نقطة ضعف الجبار الأميركي، فبالإضافة إلى ما أوردناه من قبل تضاف وقائع في غاية الخطورة، منها اعتماد الاقتصاد الأميركي

على عولمة الدولار، مما اضطر الإدارة الأميركية لمعاقبة الرساميل الداعمة لليورو، يوم كان مجرد مشروع، ومن بينها رساميل عربية، عوقبت بمنتهى القساوة. ومن ثم لاحتواء اليورو بعد صدوره. كما تخلص الدولار من مزاحمة الجنيه الإسترليني عبر مضاربة جورج شوروش عليه، (خسرت بريطانيا ملياري دولار ربحها شوروش)، حيث يطلق كلينتون على شوروش صفة (الثروة القومية الأميركية). كما لا يمكننا استبعاد الدولار الأميركي في المضاربة على أسعار الذهب (بوصفها صاحبة المصلحة الأولى). وكل ذلك للحفاظ على وضع الدولار كعملة عالمية، ففقدانه لهذا الدور يعني انهيار وول ستريت، ومعه الدمار الأميركي.

ولا ننسى تراجع كلينتون عن دعم سياسة العولمة الأميركية، إذ مني الاقتصاد الأميركي بخسائر جمة عندما قام بالتزاماته الأخلاقية تجاه تدهور البيزوس المكسيكي، فكانت هذه الخسائر وراء الرفض الأميركي لدعم بورصات البرازيل والنمور الآسيوية والروسية، وهذا ما أدى إلى نشوء تجمع الدول الخمس عشرة، (أصبحت ١٧)، التي عقدت قمة في جمايكا، لتعلن فيها أخطار العولمة، ولتتوزع بين راغبة في الخروج منها، وبين داعية لضرورة إبطائها، ويضاف إلى ذلك تسخير الأرصدة المجمدة بقرارات سياسية لدول غير صديقة، ومعها مليارات الجريمة المنظمة الداعمة لعجلة

الاقتصاد الأميركي، هذا من دون أن نهمل تأكيدات العديد من المحللين الاقتصاديين، بأن حروباً عديدة اصطنعتها أميركا للحفاظ على تدفق وضخ الأموال إلى الولايات المتحدة تحت شعار (رعاية المصالح الأميركية).

وبهذا نصل إلى الأهمية السياسية المقررة لذلك العلم المسمى بالمستقبليات، حيث نشرت دراسات أميركية عديدة في منتصف الثمانينيات تتوقع انهيار وضع الدولار بوصفه عملة عالمية في مدة أقصاها النصف الثاني من التسعينيات، ورشحت بعض هذه الدراسات الفرنك السويسري بديلاً مؤقتاً للدولار، يليه التحول إلى الذهب لغاية بروز عملة أخرى موثوقة.

وهكذا أدى الاستبصار المستقبلي للمشكلة إلى مساعدة أصحاب القرار على تلافيها وتحويلها عن مسارها الطبيعي، في الاتجاه المشار إليه من قبل، الذي أطال من عمر الدولار كعملة عالمية، ولكن أليس الموت قدراً؟ وبمعنى آخر **ماذا يحصل عندما تتراجع قدرة الجبار الأميركي على السيطرة على هذه الأموال السائلة التي تفوق موازنة الدولة الأميركية بمئات الأضعاف؟!** بل أبسط من **ذلك ماذا لو تمكن فرد على غرار شوروش من تكرار لعبة شوروش البريطانية في أميركا نفسها؟** وهذا احتمال لا يمكن لعاقل استبعاده، لأنه يتعلق بفرد أو بمجموعة أفراد أو بشركة، وهو لا يتعلق بدولة

يمكن قصفها، أو بحركة إرهابية تمكن تصفيتها، ووضع الجوائز المالية لتسليم رؤوسها المدبرة، **فمن المعروف أن محاربة الأفراد صعبة لدرجة الاستحالة**، بل ربما حصل ذلك ببساطة لا متناهية، أي أنه من الممكن أن تتوافر الأسباب الخفية ذاتها التي توافرت يوم الاثنين الأسود، فتطيح بوول ستريت من دون أن يتمكن أحد من معرفة الأسباب.

فهل يمكننا أن نتصور بعد كل ذلك أن الولايات المتحدة يمكنها أن تكون أكثر فقراً من روسيا يلتسين؟ وأنها تغطي فقرها هذا بالتحكم وبالسطو على أموال ليست لها؟

وهل هنالك من يتصور أن متمولاً أميركياً واحداً سوف يصر على الاحتفاظ بودائعه بالدولار الأميركي لو بدأ هذا الأخير مرحلة سقوطه، أو ربما لو صرخ أحد الموثوقين في وول ستريت ((حريق... حريق...))؟

ب - انهيار الجبار الأميركي

بعضهم يفسر عبقرية فرويد بقدرته على الخروج على المسلمات المألوفة، فقد كان اتجاه تفسير الأحلام، قبل فرويد، على أنها نذير بما سيحدث في المستقبل، وخرج فرويد على هذه المسلمات معتبراً، أن الحلم يعبر عن أحداث وذكريات ماضية، ويجب تفسيره على هذا الأساس! فكانت النظرية الفرويدية.

انطلاقاً من هذه المفارقة نجد أن المسلمات الراهنة ترى أن الولايات المتحدة باقية كقطب عالمي راسخ، وهو ينتظر ظهور قطب جديد مواز له كي يلعب دور الاتحاد السوفياتي السابق، ولكن ماذا لو حاولنا الخروج على هذه المسلّمة لنجد أن الولايات المتحدة جبارة، لكنها مقدمة على الموت شأنها في ذلك شأن الجبابرة الأسطوريين، وعلينا في هذا السياق أن نتذكر أن موت هؤلاء الجبابرة يكون دائماً مفاجئاً وغير منتظر، بل وهم في أوج قوتهم، هكذا مات شمشوم وآخيل والاتحاد السوفياتي! ولا يوجد أي داع أو مبرر منطقي ليكون موت الجبار الأميركي مختلفاً عن هؤلاء الجبابرة - الأساطير؟!

فماذا يحصل في هذه الحالة الافتراضية؟

إنه الفراغ: والفراغ يحتمل عدداً لا نهائياً من الفرضيات، لكننا، وعلى سبيل التوجه، نورد بعض أهم هذه الفرضيات ونبدأ بـ:

١- فرضية نيكسون

يرشح نيكسون أوستراليا صراحة لخلافة الولايات المتحدة، ويقول: لو سألني أحد الأميركيين عن الدولة التي أنصحه بالهجرة إليها لضمان مستقبل أفضل لأطفاله لأجبته (أوستراليا) من دون تردد!*

* دخلت أوستراليا إلى المسرح السياسي العالمي من باب تيمور الشرقية فأرسلت قوات عسكرية إليها وقاد أوسترالي قوات الأمم المتحدة فيها، وذلك بعد أقل من شهر على حدود هذا المقال (١٨/٩/١٩٩٩م). وبذلك بدأت أوستراليا تحركاً عسكرياً سياسياً عهد إليها الحلف العسكري الأميركي الذي لا يزال يسمى بالناتو...

أما عن القطب المقابل فقد أسهب نيكسون في مذكراته بشرحه لمؤهلات الصين للعب دور القطب العالمي بجدارة متناهية.

٢ - فرضية ماوتسي تونغ

إن الإمبريالية الأميركية لا يمكنها أن تكون حليفاً موثوقاً للصين، ذلك البلد الذي يتمتع بكثافة سكانية هائلة تجمعها قومية واحدة، تجعل من حروبها الأهلية الدامية مجرد خلافات عائلية لا بد لها من التسوية وإن طال الزمن، في حين تفتقد التركيبة الأميركية لأي عنصر من عناصر التماسك، وبهذا يصبح التحالف مع الروس، خصوصاً في اتجاه ستالين - صديق الشعب الصيني، تحالفاً منطقياً واستراتيجياً يقطع الطريق على عودة الاستعمار إلى المنطقة، أما القطب المواجه فهو حكماً قطب إمبريالي أو فاشي بغض النظر عن الدولة التي تمثله!

٣ - فرضية قيامة الفاشية

لقد كانت الحرب العالمية الثانية صراعاً بين ثلاث قوى، هي: الإمبريالية والشيوعية والفاشية، وكان انضمام الشيوعية إلى الإمبريالية سبباً مقرراً في هزيمة الفاشيين، فإذا ما حدث الانهيار الأميركي بعد انحسار المد الشيوعي، فإن الأرض تصبح ممهدة

لعودة الفاشية، وتدعم هذه الفرضية بنظرية الاستقراء التاريخي القائلة: إن تجديد محاولة تطبيق إيديولوجية ما بعد فشل تطبيقها السابق يحتاج إلى جيلين أي حوالي السبعين سنة، وها قد مضت ٥٥ سنة على فشل الفاشية في الحرب الثانية، وها هو عالمنا المعاصر يشهد انبعاث حركات النازية الجديدة في أوربة والولايات المتحدة، كما في الدول التي تشهد انبعاث قومياتها بعد سبعين سنة من كبتها (البلقان والجمهوريات السوفياتية السابقة... إلخ)، وهذا البعث الفاشي قد يكون الخطر الحقيقي على الجبار الأميركي، (انفجار أوكلاهوما، والعداء للسامية، وحليقي الرؤوس الأميركيين... إلخ، ويزيد خطر الفاشية الجديدة عن طريق الاتهامات الأميركية التي تحول كل قومي إلى فاشي، فتكسب الفاشيين بذلك أعضاء جدداً وربما أكثر فاعلية من الفاشيين أنفسهم.

٤ - فرضية هنتنغتون

إعلان هذا المفكر عن تآكل المصالح الأميركية كان من أوائل الإشارات إلى الفوضى السياسية - الاستراتيجية الأميركية، داخلياً وخارجياً، كما كان تنبؤاً بأن الاستمرار في هذه الفوضى سيؤدي إلى تقوُّض المصالح الأميركية، انهيار الجبار الأميركي، واقترح لتنظيم هذه الفوضى العمل على احتواء أميركي للإسلام والكونفوشيوسية، العرب

والصين، والواقع أن كلينتون، وإدارته اليهودية، قد أسقطت هذا الطرح، لكن هذا الإسقاط لا يعني موته وعدم قابليته لمعاودة الطرح بإجراء تعديلات بسيطة ملائمة عليه.

في النهاية فإن مجمل ما تقدم في هذه المقالة لا يخرج عن إطار المستقبليات التي لا تزال نوعاً من أنواع التكهن على الرغم من الجهود التي تبذل لتسخير العلوم من أجل تحويلها إلى الموضوعية، ومهما يكن فإن هذا التكهن يستأهل القراءة والتمحيص من قبل المهتمين العرب. فقد كان بإمكاننا ترتيب أوضاعنا بصورة مثالية لو نحن نظرنا بجدية كافية إلى تكهنات انهيار الاتحاد السوفياتي. والتي بدأت بوادرها مع أولى لقاءات بريجنيف مع الأميركيين، وقبوله هدايا ثمينة منهم.

الفصل الثاني

الولايات المتحدة من الداخل

١٢- قراءة تمهيدية

الولايات المتحدة

تضع العالم على حافة الهاوية

في ١/١٠/٢٠٠١م

((العالم قبل ذلك الثلاثاء غيره بعد ذلك اليوم)) مقولة يكاد يجمع عليها المحللين والمعلقين كافة ليتفقوا أن تغيير العالم حاصل بسبب تغيير الولايات المتحدة وليختلفوا بعدها على اتجاه هذا التغيير وعلى جميع الأسئلة المطروحة. وهذه الأسئلة بعضها عالمي، ومطروح من قبل الجميع، وبعضها الآخر ذو خصوصية، ويتعلق بمستقبل الأفراد والجماعات والدول.

فهل يمكن للاختراع الأميركي المسمى بسيكولوجية السياسة والمستقبليات أن يساعدنا على التوجه في ظل هذه الفوضى العالمية المنطلقة من داخل الولايات المتحدة للمرة الأولى في تاريخها؟. هنا قد تفيدنا العودة إلى مقالات نشرها الباحث المستقبلي والطبيب النفسي محمد أحمد النابلسي على صفحات الكفاح العربي خلال الفترة السابقة لذلك الثلاثاء الذي غير العالم. وأهمية تلك الفترة أنها كانت محدودة الضغوطات نسبياً ومفتوحة أمام التحليل العلمي الهادىء والبعيد عن التجاذبات. لأنّ للتحليل النفسي القدرة على تحديد أنماط وقوالب يتوقع على أساسها ردود الفعل المستقبلية. ومن هذه التحليلات نختار التالية:

١- الاقتصاد الأميركي يضع العالم على حافة الهاوية/ ٢٠٠١/٢/٢٦م

وفيها يقدم النابلسي تحليلاً نفسياً للرئيس بوش وفريقه الرئاسي فيقول:... **إن بوش الابن يملك طاقة شخصية عالية لكنها موجهة في كفاح قهري لامتعة فيه، ومن هنا عجزه عن تحمل الاحباطات... كما هو يواجه صعوبة في السيطرة على عواطفه وعلى عدائيته.** ويعطي مثالاً عليه الكلمات النابية التي تلفظ بها بوش بحق مراسل نيويورك تايمز دون الانتباه إلى أن الجمهور لايزال يسمعه. (يمكننا

أن نضيف إليها اليوم زلة دعوته إلى حرب مقدسة ومن ثم اعتذاره عنها). ويتابع النابلسي **إن هذا النمط ميال لاعتماد طرق ملتوية لحل مشاكله. مما يدفعنا للتساؤل عن مدى قدرة بوش على تحمل الإحباطات التي رافقته منذ بداية ولايته** (باخرة الصيد اليابانية والطائرة الصينية خصوصاً) حتى الثلاثاء الأسود؟. ويجيب الكاتب عن هذا التساؤل بالتأكيد على هيمنة كل من نائب الرئيس تشيني وبوش الأب على قرار الرئيس. وكلاهما يعتقد ، برأي الكاتب، **أن الأمور السيئة لاتصيبه هو بل هي تصيب الآخرين**. ومن هنا فإنهما مرشحان لخوض المغامرات غير المحسوبة. ويتابع الكاتب ((**من هنا فإن الجمهوريين سيسعون للحصول على حاجاتهم بالقوة وليس بالطلب**)).

وبناء على هذه التحليلات يخلص الكاتب في مقالته إلى التوقعات التالية:

- إصرار بوش على الدرع الصاروخي.

- حدوث تغييرات استراتيجية أميركية واسعة النطاق (نرى أن بدايتها في الباكستان بعد سماحها باستخدام أراضيها لضرب أفغانستان).

- التخلص من الوسطاء والشركاء وتحويلهم إلى التبعية (وهذا ما نشهده خلال التحضير للهجوم على الأفغان).

- تثبيت الهيمنة الأميركية على النفط والسيطرة على أسعاره (لاحظنا أن مؤشر داو جونز تحرك صعوداً، بعد أزمة الثلاثاء، بعد أن تدنى سعر برميل برنت إلى ٢٢ دولاراً بما يؤكد إشارة النابلسي إلى رغبة الإدارة الأميركية الجديدة باستخدام النفط خطاً دفاعياً للاقتصاد الأميركي - انظر مقالته: بوش يتسلم الرئاسة في الزمن الأميركي الصعب/ الكفاح العربي في ٢٠٠١/٣/١م).

- تجنب الصدام مع الصين (وهذا ما جهد بوش لتجنبه في حادثة الطائرة في أبريل ٢٠٠١م أي بعد حوالي الشهر على نشر هذا المقال).

٢- التحليل النفسي لهوس التسلح الأميركي وظاهرة القتل الفردي/ ١٩٩٩/١٠/١م

وفيها يقول: «... **لقد وجد الإعلام الاميركي نفسه، منذ بداية القرن حتى اليوم، منساقاً لتمجيد السلاح والسياسات التسلحية... فكيف له بعد ذلك إقناع المواطن بالتنازل عن حرية اقتناء سلاح شخصي؟... إن الصراعات الداخلية الأميركية مرتبطة بأول أزمة اقتصادية أميركية حقيقية** (هبط داو جونز ٦٨٤ نقطة يوم الإثنين في ٢٠٠١/٩/١٧م مقابل هبوطه ٥٠٨ نقاط يوم الإثنين الأسود في ١٩٨٧/١٠/١٩م فهل يتبع هذا الهبوط مثل تلك الأزمة؟).

٣- أبعاد جديدة للسياسة الأميركية / ١٥/٨/٢٠٠١م

وفيها يركز النابلسي على التغيرات التالية في السياسة الأميركية:

- التراجع عن وعود كلينتون لدول الاتحاد الأوروبي ولدول الشرق الأوسط، واستبدال هذه الوعود بالإصرار على الدرع الصاروخي. الذي يعدّ تغيراً أساسياً في علاقة الولايات المتحدة بالعالم (خصوصاً في ظل الأوضاع الروسية الصعبة وتورط الاتحاد الأوروبي بالتعديلات الكلينتونية لاستراتيجية حلف الناتو).

- ميل إدارة بوش للتخلي عن العولمة لصالح سياسة أحلاف جديدة كان كلينتون قد بدأها بمرونة فائقة تفتقدها الإدارة الحالية بلجوئها إلى فرض الدرع الصاروخي مثلاً. ويقول الكاتب في هذا المجال ما نصه: **نستطيع اليوم أن نرصد بوضوح ودقة تامين اللامبالاة الأميركية بالعولمة... ويكاد الرئيس ووكر بوش أن يعلن صراحة عن عدم احترامه لأي مبدأ عولمي يتناقض والمصالح الأميركية... وعن تخليه عن العولمة لصالح سياسة أحلاف جديدة...** (ربما تشير تصرفات بوش ما بعد الثلاثاء إلى هذا التخلي وإلى الميل للأحلاف التابعة عوضاً عن العولمة).

- ينهي الكاتب مقالته بالقول: **... إننا لانشكك بقدرة التدخل**

الأميركي عن طريق إثارة مشكلات تستدعي هذا التدخل وتتطلب الرعاية الأميركية. لكننا نشك باستمرارية الأحلاف الشبيهة بحلف بغداد، بسبب اختلاف انثروبولوجي يتعلق باختلاف مفهوم الموت بين ثقافتنا ونمط الحياة الأميركي.

٤- النظرية الحمقاء- أسلوب ردع أميركي جديد/ ٢/٦/٢٠٠٠م

وفيها يرى الكاتب أن كلينتون سعى لاختلاق المواجهات شرط أن تكون محدودة. مما خلف فوضى استراتيجية سببها أن الضحايا لايتصرفون كلهم بالطريقة ذاتها. فقد صعد ميلوسوفيتش المواجهة لغاية القصف الجوي، في حين تنازل الأندونيسيون عن تيمور الشرقية من دون مشاكل... ويذكر النابلسي دراسة استراتيجية تضمنها قانون حرية المعلومات (أجريت في ١٩٩٥م وتسربت بعدها) تقول باستبدال بمجموعة الدول المارقة أو الخارجة عن القانون بالاتحاد السوفياتي (بديلة للعدو المفقود).

وينقل النابلسي عن تشومسكي قوله في كتابه المعنون ((الدول المارقة)): دور القوة في عالم الأعمال ما نصه : ((**تتصرف أميركا على أنها مستعدة للانتقام من أي تهديد لمصالحها انطلاقاً من مبدأ يكسون القائل بأن على أعدائنا أن يدركوا بأننا سنصبح حمقى اذا**

ضربت مصالحنا))... وينقل النابلسي خلاصة رأي تشومسكي القائل: ((**إن الدولة الخارجة على القانون ليست بالضرورة إجرامية بل هي متمردة على أوامر الولايات المتحدة**)).

٥- كابوس هيروشيما وصدمة كوسوفو / ٢٠٠٠/٦/٢٤م

وفيها يقول النابلسي ما نصه: ((**..إن الخوف من وضعية الضحية البشرية وصل لدى الولايات المتحدة وسكانها إلى حدود الخوف من أشخاص وتحويلهم إلى بعبع على غرار بن لادن وغيره. فها هي الكتب الأميركية تعلن الذعر الجماعي والرعب من شخص بن لادن...** (هنا نسوق ملاحظة مفادها أن هذه الكتب والدعاية المرعبة المرافقة لها ربما كانت السبب في تعجل الجمهور الأميركي لاتهام بن لادن والعرب والشرق أوسطيين بأية حادثة داخل أميركية).

ويعرض النابلسي في هذا المقال لكتاب الصحفي الأميركي بوب غرين المعنون (الأب وابنه والرجل الذي ربح الحرب) وفيه حديث عن الطيار الذي شارك في إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما والمدعو بول تيبيتز. ويتساءل النابلسي في نهاية العرض عن الهدف من تمجيد بول هذا؟ ويقول: ((... **إذا ضربت هل تراه**

يريد تبرير قنبلة هيروشيما؟ أو التذكير بعبارة نيكسون حول حماقة الأميركيين إذا ضربت مصالحهم؟)). وينهي النابلسي هذه المقالة بالعبارة التالية: ((إنه مجتمع يبحث عن قيم وعلينا أن نجد له عدواً يرضيه ويوجه قيمه قبل أن يتحول الأميركيون إلى حمقى وعندها ستكون الكارثة أكبر من كل توقع!)).

١٣- التحليل النفسي
لشخصية بوش الابن وفريقه

٢٠٠١/٢/٢٦م

بذل علماء النفس الأميركيون جهوداً حثيثة بالبحث في مجال إمكانية التنبؤ بالسلوك الرئاسي للمرشحين، وخاصة للفائزين بالانتخابات التي تجعلهم أسياد البيت الأبيض. وكانت هذه الجهود تتدعم عبر استشعار الحاجة إليها في مواقف بعينها. وتحديداً في المواقف التي وصفتها جريدة (لوموند) الفرنسية بأنها تستثير حساسية الأميركيين، لأنهم فاقدين للتراث. فالتراث يتيح إمكانية المقارنة بين الموقف الراهن وبين مواقف سابقة وصولاً إلى الاستفادة من مجمل التجارب. لذلك وقف الأميركيون مطولاً أمام فضيحة مونيكا لمجرد خروجها إلى التداول الإعلامي أثناء حكم مرتكبها. فهم تجاهلوا مثلاً فضائح مشابهة، مثل علاقة غاري

هارت بعارضة الأزياء دونا رايس، وعلاقة كينيدي بمارلين مونرو وغيرها لمجرد تأخر إعلانها إلى ما بعد الخروج من البيت الأبيض. وقس عليه في فضائح التدخل في نتائج الانتخابات، حيث كان الكشف عن ووتر غيت أثناء حكم نيكسون سبباً في الفضيحة. في حين تم تجاهل عمليات تزوير عديدة في الانتخابات الأميركية منها تزوير نجاح كينيدي نفسه. حتى أمكن القول: إن البراءة تكون من نصيب الرئيس الذي يؤجل فضائحه إلى ما بعد نهاية ولايته. وتبرير ذلك في رأينا أن نمط الحياة الأميركي يقوم على قناعة اعتبار الدستور الأميركي بمنزلة التوراة الجديد الممهد لقيام عالم جديد، هو العالم الليبيرالي. ومن هنا الحساسية الشديدة أمام أية مخالفة أخلاقية للرئيس المفترض أنه حامي هذا الدستور والمبشر به. فإذا ما خرج الرئيس من البيت الأبيض، فإن مهمته تكون قد انتهت، فيصبح المؤمنون أقل حساسية تجاه مخالفاته الأخلاقية.

هذه الأجواء أعطت لمحاولات التحليل النفسي للمرشحين وللرؤساء الأميركيين أفضلية ساهمت في ازدهار هذه المحاولات، التي بلغت أوجها بصدور كتاب جايمس دافيد باربر المعنون (الأخلاق الرئاسية- التنبؤ بمستوى الأداء في البيت الأبيض). وفيه ينطلق باربر من مبادئ المدرسة السلوكية الأميركية محاولاً تنميط سلوك الرؤساء الأميركيين. مستنداً في ذلك إلى عاملين:

الأول: هو قدر الطاقة الذي يكون الشخص مستعداً لبذله في عمله، فاعل/منفعل.

والثاني: يتعلق بموقفه من نتائج عمله، وقدرته على تقبل هذه النتائج، سلبي/إيجابي.

على هذا الأساس يصنف باربر الرؤساء الأميركيين في أربع خانات سلوكية، هي التالية:

١- **النمط الفاعل-الإيجابي:** وهو يوظف طاقة شخصية كبيرة في عمله. وهو قادر على الاستمتاع بذلك. وعادة ما يكون لدى هذا النمط من الرؤساء أهداف تحكم توجهاتهم. كما يتصف بالمرونة. ونقطة ضعفه أنه قد يواجه مشاكل في التعامل مع المواقف العاطفية وغير العقلانية في السياسة. ومن رؤساء هذا النمط نذكر: (روزفلت، وترومان، وكينيدي، وبوش الأب).

٢- **النمط الفاعل السلبي:** وهو يملك طاقة شخصية عالية، لكنه يوجهها في كفاح قهري لامتعة فيه. مما يجعل الكفاية العاطفية متدنية. ويواجه رؤساء هذا النمط صعوبة في كبت مشاعرهم العدائية، والتحكم بها، لنتذكر الانفجار الانفعالي لبوش الابن أثناء حملته، عندما شتم مندوب النيويورك تايمز ظاناً أن الميكروفون قد توقف. ومن رؤساء هذا النمط نذكر: ويلسون، وجونسون، ونيكسون.

٣- **النمط المنفعل الإيجابي:** مساير ومتعاون أكثر منه صاحب طاقة وشخصية حيوية. مع مسحة تفاؤل مهيمنة على سلوكه. لذلك فهو مفاوض جيد، لكنه يحيط نفسه بأصدقائه القدامى الذين يجلبون له العار. ومن هذا النمط نذكر: هوارد تافت، وريغان، وكلينتون.

٤- **النمط المنفعل السلبي:** يدخل هؤلاء الرؤساء السياسة مدفوعين بحس الواجب والخدمة وليس لتحقيق المتعة. وهم لايجنون منها سوى القليل من القناعة والرضا. وهم يميلون لتجنب الصراعات والانسحاب منها، معتمدين على مبادئ بيانات غامضة، كما فعل كل من الرؤساء كوليدج، وآيزنهاور.

وفي عودة إلى جورج ووكر بوش نجد أنه ينتمي إلى نمط الفاعل - السلبي. ويمكننا إضافة بعض المعلومات المتوافرة عنه للتعمق في فهمنا لشخصيته، وبالتالي لدعم إمكانيات التنبؤ بسلوكه الرئاسي خلال السنوات المقبلة. وتشير هذه المعلومات إلى أنه قد تعرض للاكتئاب عقب أزمة مالية أواخر الثمانينيات. حيث لجأ في حينه إلى تعاطي الكحول، مع شكوك بتعاطيه للكوكايين. كما بينت هذه الأزمة تبعيته لأبيه. وهي تتكرس من خلال تراكم خبرات الأب في مجال الاستخبارات، كان رئيسها، وفي البيت الأبيض كما في تجارة النفط، وكذلك في شبكة

العلاقات الخاصة المتكونة عبر هذه التجارب. بحيث يبدو خلاص الرئيس الجديد من ظل والده الرئيس السابق غير مطروح. مع التذكير بأن الأب ينتمي إلى النمط الفاعل -الإيجابي. بل إن متابعة ظروف تهيئة ووكر للسباق الرئاسي، تبين انتقال تبعيته من الأب إلى مدربيه على شؤون الحكم. إذ يتناقل العارفون حاجته إلى أشخاص يسطون له الأمور السياسية والاقتصادية المعقدة. فإذا ما نجح هؤلاء في مهمتهم فإن ووكر يظهر تبعية تجاههم، يمكن اعتبارها نسخة عن تبعيته لأبيه. ومن الأمثلة المحددة على ذلك علاقته بلاري ليندسي، الذي أصبح مستشاره الاقتصادي لاحقاً. كما يجب ألا نغفل أثر وجود شخصيات بالغة السطوة والقوة في الطاقم الرئاسي لبوش، مع تسجيل الرغبة العارمة بإعطاء أدوار جديدة لوكالة المخابرات الأميركية. بل إن مراجعة دقيقة للإدارات الجمهورية، تبين أن أعضاء هذا الطاقم كانوا من طاقم الأب، أو من طاقم الرئيس الجمهوري السابق ريغان (منفعل-إيجابي). وبعض أتباع ريغان يمتازون بفعالية فائقة في الإدارة الجديدة. لدرجة تدفع بالعديد من المحللين إلى تجاوز تأثير الأب، وافتراض أن يكون الحكم الجديد استمرارية له، إلى الافتراض بأن الابن سيعود إلى سياسة ريغان، وليس إلى سياسة أبيه. ولعل آلان غرينسبان، مدير صندوق النقد الفيديرالي، خير دليل على حضور

أتباع ريغان، وتأثيرهم في الرئيس الجديد. الذي لايترك فرصة تمر دون أن يؤكد هذا الإيحاء، واعتباره ريغان مثالاً أعلى له. ففي هذا التأكيد هروب من سيطرة شبح الأب، وهي من التهم الجاهزة الموجهة للابن، إضافة إلى خطوة تصالحية باتجاه الجماعات التي اختلفت مع الأب، بسبب انخفاض قدرته على التعامل مع المشاكل العاطفية وغير العقلانية للسياسة، وكانت متصالحة مع ريغان (مرونة المنفعل الإيجابي).

فهل يحق لنا أن ننطلق من تقاطع هذه المؤشرات السيكولوجية المزيجة للخروج بتوقعات مستقبلية لمواقف الإدارة الجديدة، المزيجة سيكولوجياً، من القضايا الأهم في السياسة العالمية؟ في رأينا الشخصي أن هذا التقاطع يقود إلى الاستنتاجات التالية:

١- التراجع المدروس والمخطط مسبقاً في بعض المواقف التهويلية التي وصمت بداية الإدارة الجديدة. وسيكون هذا التراجع على حساب كولن باول واستبداله بوزير خارجية آخر. الأمر الذي يذكرنا بمجيء شولتز مكان إلكسندر هيغ أيام ريغان.

٢-تأكيد السيطرة الأميركية على بورصة النفط يستوجب مخرجاً عراقياً ولو عن طريق ضربة عسكرية تحسباً لأية هزة اقتصادية أميركية وضماناً لإبقاء اليابان وأوروبا، وأيضاً الصين تحت طائلة الاحتواء الاقتصادي.

٣- تأجيل أي بحث جدي في سلام الشرق الأوسط يعيق السيطرة النفطية ويجعلها موضع مساومة، وتحويله إلى سلام بارد. مما يقتضي إقصاء شارون مع تفضيل استبداله ببيريز إذا أمكن.

٤- الاستمرار في مشروع الجدار الصاروخي بأي ثمن يطلب من الإدارة. مع ما يقتضيه ذلك من ممارسة الضغوطات على الأصدقاء لتمويله.

٥- تنقية الإدارة الأميركية من رواسب عهد كلينتون، وما يعده الجمهوريون فساداً مهدداً لليبيرالية الأميركية.

٦- إعطاء دور أكبر وتأمين وسائل تمويل بديلة والتفافية للمخابرات الأميركية، وزيادة الاعتماد عليها في تنفيذ مراحل التحول الاستراتيجي وفق توجهات الإدارة الجديدة.

وهكذا فإن المعطيات السيكولوجية تشير إلى استحالة قبول الفرضية، المطروحة من قبل استراتيجيين عالميين، والقائلة بأن عهد ووكر بوش سيكون تكراراً نمطياً لعهد ريغان. وهو إذ يبدو كذلك، فبحكم حضور أتباع ريغان بعضهم يتعامل مع الرئيس بصورة لاتعجبه، رافضاً الانضمام إلى ماسحي الجوخ، وتأثير الأب، المصاب بعدم انتظام دقات القلب-٧٦ سنة، ومعه وزير دفاعه تشيني الذي أصبح نائباً للرئيس مصاب بثلاث حوادث شريانية تجعل وضع قلبه حرجاً. وهذا الحضور لايمكن تأكيده

طيلة السنوات الأربع القادمة. فإذا ما حصل مثل هذا الغياب، فإن مهمات من نوع تغيير توجهات المصالح الأميركية، وتعديل استراتيجيات وأولويات اهتمامات السياسة الأميركية بعد الفوضى المتخلفة عن كلينتون، ورغبات التغيير الجمهورية، ستكون مهمات فائقة الصعوبة بالنسبة إلى الرئيس الجديد.

١٤- التحليل النفسي لهوس التسلح الأميركي وظاهرة القتل الفردي

١٩٩٩/١٠/١م

عندما تتجاوز أية ظاهرة اجتماعية حدودها المألوفة. فإنها تتحول حكماً إلى موضوع دراسة دقيقة ومعمقة من قبل باحثي العلوم الإنسانية بمختلف تياراتهم واختصاصاتهم، فالظاهرة الاجتماعية ليست مجرد نمط سلوكي أو أسلوب خاص في مواجهة مشكلات معينة والتعامل معها. بل إن هذه الظاهرة هي نتاج جملة سيرورات معقدة ومتداخلة. لكل منها حصته المساهمة في نشوء هذه الظاهرة، ومن ثم تراجعها أو تضخمها. لذلك كان من الطبيعي أن تسعى العلوم الإنسانية لدعم الظواهر الإيجابية ولمكافحة السلبية منها.

في سياق موضوعنا نركز تحديداً على ظاهرة التسلح المتفاقمة بين المدنيين الأميركيين. حيث تشير الإحصاءات الأميركية المنشورة إلى وجود ٢٠٠ مليون بندقية بين أيدي المدنيين الأميركيين، وإلى أن ٣٠٪ من المنازل الأميركية تحتوي على أسلحة، لكن الإحصاء الأسوأ هو أن المسؤولين الأميركيين يتوقعون أن تزيد نسبة الوفيات، بسبب سوء استخدام الأسلحة، نسبة الوفيات في حوادث السيارات، وهذا يعني أن ظاهرة اقتناء السلاح في طريقها لتتصدر قائمة أسباب الوفاة في الولايات المتحدة، حيث لم تسبقها إلى ذلك سوى الدول التي تخوض حروباً أهلية. بل إن عديدين باتوا يشبهون ما يجري هناك بأنه حرب أهلية ذات بداية محدودة. إذ يبلغ ضحايا السلاح في أميركا حدود الـ٩٠ قتيلاً يومياً. فإذا ما حسبنا توقعات تضاعف هذا العدد خلال السنين المقبلة وجدنا أن هذه الحرب الأهلية في طريقها للتوسع.

وبالطبع، فإن كل اختصاصي يفسر هذه الظاهرة ويجد مبرراته وفق سياق فكره واختصاصه، ومن الزاوية النفسية نجد أن لهذه الظاهرة ارتباطات أكيدة ووثيقة بالعوامل الآتية:

١- **الحرب الأهلية الأميركية**: ذلك أن هوس الأميركي في اقتناء الأسلحة إنما يعود إلى تلك الفترة. وهذا ما يبرر إصرار المواطنين

المولودين لعائلات شهدت تلك الحرب على اقتناء السلاح. ومعارضتهم الشديدة لأي قانون يحد من حرية تملك الأسلحة. خصوصاً أن الولايات المتحدة تعيش راهناً أجواء مشجعة لاحتمالات حدوث تصادمات عرقية وسياسية داخلية، فالزنوج الأميركيون لايزالون في أدنى السلم الاجتماعي ولايزال شعورهم بالاضطهاد كافياً لإعلان تمردهم على مجتمع يهمشهم. وهم يمارسون هذا التمرد على نحو ما يتوافر لهم. فمن حوادث لوس أنجلوس، المظاهرة المليون بقيادة فرقان، إلى إقبالهم الجريء على تحدي نظام القيم الأميركي. حيث فقدان هذه الجرأة للتنظيم لايحول دون تبديها بوضوح كاف. ولعل أبسط هذه المظاهر وأسهلها ملاحظة إقدام الشبان السود على اعتماد الأزياء والتسريحات والرقصات الإفريقية، إضافة إلى تجارة المخدرات بالمفرق (توزيع).. إلخ، ونأتي إلى ذوي الأصول الإسبانية الذين يتعمق شعورهم بالغرابة يوماً بعد يوم، لتزداد معه رغبتهم بالحفاظ على هويتهم. أما الأقليات الأخرى فقد بدأت تبدي حنيناً غير معتاد أميركياً، إلى جذورها اللاتينية. وفي حنين يحمل معه مظاهر الانحياز إلى مصالح بلدانها وأعراقها الأصلية على حساب المصالح الأميركية، حتى ولو وصل هذا الانحياز إلى حدود التجسس (خصوصاً اليهود).

وأخيراً نأتي إلى السواد الأعظم من سكان الولايات المتحدة، وهم البروتستانت البيض، الذين يطرحون أنفسهم ممثلين للعرق الآري. ويصل بعضهم إلى حدود الانتماء إلى ميليشيات مسلحة ذات برامج سياسية محددة (العداء للحكومة الفيدرالية لوقوفها تحت أثر اليهود) في حين يكتفي بعضهم الآخر بالتعاطف مع هذه الميليشيات، وهذه الأخيرة تشكل مصدر قلق حقيقي للإدارة الأميركية. فهي مسلحة وممولة ومقبولة في أوساط واسعة، كما أنها مستعدة للقتال وساعية للحصول على أسلحة تتخطى السلاح الفردي، حتى إن شائعات سرت خلال عملية ثعلب الصحراء عن ملكية هذه الميليشيات لأسلحة بيولوجية وجرثومية، ومن المعروف أن شرائط فيديو متوافرة، ولو بصعوبة، تشرح طريقة إعداد المتفجرات وبعض الأسلحة الجرثومية، وفي هذا المجال تشكل الميليشيات البيضاء خطراً حقيقياً، خصوصاً بعد أن يحسب لها إقدامها على تفجير أوكلاهوما.

٢- السلاح الفردي من مكونات اللاوعي الأميركي: الأمة الأميركية كما هو معروف أمة هجينة من دون تراث. ويروى أن من محتويات المتحف الأميركي مكتب بريد لايعود عمره لأكثر من قرن. فالتراث الأميركي مرتبط بحقبة رعاة البقر (الكاوبوي) وبمئات بل قل آلاف الأفلام عن الغرب الأميركي ورعاة أبقاره،

والباحثين عن ذهبه، وكلها بطولات تعتمد على السلاح الفردي (مسدس - بندقية) وتمجده مظهرة إياه رمزاً للقوة والرجولة، وأداة للنجاح والانتصار، حتى بات هذا السلاح الفردي جزءاً من مكونات اللاوعي الأميركي، ورمزاً لقوة الفرد وحقه في الدفاع عن نفسه وعن حريته، وباختصار فقد أصبح هذا السلاح رمزاً مقدساً بالنسبة إلى الأميركي، وجزءاً من تكوينه النفسي والشخصي، وهذا ما يفسر عجز الحكومة الفيديرالية عن إصدار القوانين التي تحرم اقتناء الأسلحة.

٣- حضارة السلاح: لقد وجد الإعلام الأميركي نفسه منذ بداية القرن وحتى اليوم منساقاً لتمجيد السلاح والسياسات التسلحية. وقد ألقيت على عاتقه مهمة لا سابق لها في تاريخ البشرية، وهي مهمة تبرير إلقاء القنبلتين الذريتين على اليابان، ثم تولي تبرير قصف الفيتناميين بالنابالم، وغيرها من الأسلحة المحرمة دولياً. وبعدها كان عليه أن يبرر تزويد أصدقاء الولايات المتحدة بالسلاح لإبادة شعوب أخرى (وأحياناً لضرب شعوبها). تلا ذلك مهمة الإعلام في إقناع الرأي العام بخوض سباق التسلح طوال فترة الحرب الباردة. وفي نهايتها كان الترويج لمشروع حرب النجوم، ثم راهناً تبرير استخدام اليورانيوم الخامد في صناعة الأسلحة والإبادة التدريجية الناجمة عن استخدامه في العراق وكوسوفو والدول المجاورة...إلخ.

فهل يمكن لحضارة السلاح هذه إقناع مواطنيها بالتنازل عن حرية اقتناء سلاح شخصي؟

٤- حضارة السلاح تخون نفسها: شكلت حرب فيتنام محطة انشطارية في تاريخ حضارة السلاح الأميركية، ففي حينه انقسم الأميركيون إلى معارضين للحرب لدرجة التظاهر ضد الحكومة الفيدرالية وسياسة إدارتها، وإلى مؤيدين متطرفين للحرب ولاستعمال أسلحة أشد فتكاً ودماراً لحسمها. وحسم الجدال لمصلحة الداعين للانسحاب من الحرب.

واليوم تعاني حضارة السلاح انشطاراً آخر، لكنه داخلي هذه المرة، فقسم من الأميركيين مصر على تقديس البندقية وحرية اقتنائها. وهذا القسم يتمتع بدعم الجمهوريين (المحافظين عادة) ومرشحهم جورج بوش الابن. مقابل قسم ثان يدعو لحماية أرواح الأبرياء، خصوصاً الأطفال، وضحايا السلاح الفردي، وهذا القسم يدعمه الحزب الديمقراطي ومرشحه آل غور، الذي يعد بسن قوانين صارمة للحد من حرية اقتناء السلاح. فهل تخون حضارة السلاح نفسها مرة أخرى؟ فهي إن قررت ذلك عززت آمال آل غور بالفوز بالرئاسة، وإن هي بقيت أمينة على نفسها وأفعالها، فإنها ستختار بوش، وهذا هو الأرجح فالأميركيون يخشون الموت (مثل سائر البشر) لكنهم يعرضون خشيتهم بطلب مقادير أكبر من الرخاء. ولعل أفضل ما يملكون من أفكار لمواجهة

الموت، هي فكرة تركيب مكيفات هواء في الجحيم، وتحسين ظروف العيش فيه كي يكون أكثر رخاء.

لكن الأمر لايقف عند هذه الحدود لأن فقدان العدو (الشيوعي) جعل الأميركيين يفقدون الموضوع السيء مما أصابهم بنوع من العمه الفكري، بحيث باتت كل الموضوعات حسنة بالنسبة إليهم (فدعوا إلى أمركتها وعولمتها). لكنها كلها وفي الوقت عينه موضوعات سيئة ، (فدعوا إلى التحكم فيها وزرعها بالحروب الصغيرة الوقائية، أو قل: الرمزية، وإن كان بعضهم يسميها بالافتراضية، يقوم على استخدام الأسلحة الأميركية لتدمير أي شيء يزعج أميركا في هذا العالم. في معارك مفترض أنها حرب، مع أنها ليست كذلك، لأن ليس فيها جنود ولاتوجد فيها احتمالات هزيمة، بل يمكن خوضها حتى دون إعلانها، أو طلب موافقة الكونغرس على شنها (على غرار حرب كوسوفو التي باتت إنموذجاً - سابقة للحرب الافتراضية).

ولقد أشار المفكر الأميركي هنتنغتون إلى فقدان التوجه هذا. وإلى الفوضى الاستراتيجية المصاحبة له (عدم التمييز بين الموضوعات الحسنة والموضوعات السيئة) حين تساءل: هل كان انفجار أوكلاهوما ليحصل لو أن لأميركا عدواً خارجياً؟ وخلف هذا التسارع إعلان عن الحاجة الأميركية الملحة لعدو يعيد لها

قدرتها على التوجه والتمييز. لكن خلفه أيضاً تحذير من أن الاستمرار في فقدان التوجه قد يؤدي إلى صراع أميركي داخلي!

من جهته يؤكد الطب النفسي الاجتماعي على مثل هذا الاحتمال، بعدِّه أن الحرب الأهلية رديفة لمرضى الشيزوفرانيا على صعيد الأمة، فإذا ما انفجر هذا المرض مرة، فإن احتمال انتكاسته ومعاودته بعد شفائه هو احتمال مرجح، إذا ما انعدمت سبل الوقاية والعلاج الوقائي، وهنا لابد من الإقرار بأن أفضل العلاجات لشيزوفرانيا الأمم هو الرخاء الاقتصادي. وهو علاج متوافر ومطبق بكثافة في الولايات المتحدة. لذلك فهي لاتخشى معاودة المرضى في المدى المنظور، لكن هذه المعاودة ستحصل بصورة تلقائية عند تعرض الولايات المتحدة لأول أزمة اقتصادية حقيقية.

نهاية، فإننا نعتقد أن الشعب الأميركي لن يتنازل عن تراثه - البندقية، وهو لم يكتف بالحروب الافتراضية، لذلك فإنه سيسير في خط الجمهوريين، ومن المرجح أن يتوحد الناخب الأميركي مع بوش بصفته محباً للسلاح، ولحضارة السلاح، وغنياً من أغنياء النفط، ومدمناً سابقاً للكحول والكوكايين والنساء، إنه صورة عن الكاوبوي الذي يبحث عنه الناخب الأميركي ليجد عدواً للبلاد. بعد أن عجز كلينتون وفريقه الديمقراطي عن إيجاد مثل هذا العدو.

١٥- أبعاد جديدة للسياسة الأميركية
كابوس حلف بغداد يتجدد

١٥/٨/٢٠٠١م

العودة إلى التعديلات الاستراتيجية المدخلة على حلف الأطلسي في أثناء حرب كوسوفو، وبمناسبة يوبيله الذهبي (٢٦/٤/١٩٩٩م)، تبين لنا أن هذه التعديلات تعكس الإصرار على سياسة الأحلاف العسكرية. إذ أعادت هذه التعديلات الحياة إلى الحلف الذي فقد وظيفته بعد سقوط حلف وارسو المقابل. وهذا الإصرار يعكس نهجاً استراتيجياً أميركياً بدأت ملامحه بالتبدي واضحة، حيث يمكن تلمس معالم هذا النهج من خلال مناقشة النقاط التالية:

١- إن إعادة بعث الروح في حلف الأطلسي من شأنها أن تبقي أوروبا (والاتحاد الأوروبي) تحت السيطرة الأميركية

المباشرة. بما يشكل كسباً استراتيجياً هاماً خصوصاً بعد المكاسب الأميركية من حرب كوسوفو في مقابل الخسائر الأوروبية، التي كانت السبب المباشر لانخفاض سعر صرف اليورو، الذي جعل المستثمرين ينفضون من حوله ويتجنبون اعتماده.

٢- تضمنت هذه التعديلات احتواء للرغبة الأوروبية بإنشاء قوة تدخل سريع أوروبية بمعزل عن القوة الأميركية. حيث أشارت إلى وجود مصالح للحلف في شمال إفريقية. وضمناً فإن هذه المصالح أوروبية، حتى أن إدارة كلينتون اتخذت جملة خطوات عملية باتجاه إخلاء المنطقة للأوروبيين. إذ بدأت أزمات شمال إفريقية تتلمس طريقها للحل بصورة عجائبية. فانتخب بوتفليقة منقذاً للجزائر، وأحيلت قضية لوكربي إلى محكمة لاهاي، بما أوحى أن الأميركيين قد قرروا أخيراً منح السكينة لتلك المنطقة على طريق إحالتها للنفوذ الأوروبي، وكان مؤتمر برشلونة تتويجاً لهذه الإحالة.

٣- كرست التعديلات الجديدة الاختراقات المؤقتة لقوانين الاتحاد الأوروبي وحولتها إلى قاعدة تستند إلى حلف استراتيجي، لايمكن للاتحاد الأوروبي الوصول إلى عمقه في المدى المنظور، وبمعنى آخر فإن هذه التعديلات كانت احتواء استباقياً لاستقلالية الاتحاد.

٤- يشكل إصرار بوش الابن على مشروع الدرع الصاروخي تراجعاً صارخاً عن تقديمات كلينتون للأوروبيين لدفعهم إلى تجديد الحلف. وهذا يفسر لنا عودة أوروبا للسعي إلى إنشاء قواتها الخاصة للتدخل السريع. كما أنه يفسر عودة الاضطراب إلى شمال إفريقية وعثرات المشروع المتوسطي الأوروبي.

٥- تراجعات بوش الابن شملت أيضاً الصين، التي تجاهلتها التعديلات بتجنبها الإشارة إلى وجود مصالح أطلسية في منطقتها، حيث يميل بعضهم لاعتبار هذا التجاهل بمنزلة الثمن الاستراتيجي لضرب السفارة الصينية في بلغراد، وهذه التراجعات هي الأهم كونها تطال مناطق عديدة في العالم.

٦- في إطار التراجعات البوشية تدخل الرغبة الأميركية بالتمديد للقواعد العسكرية الأميركية في الشرق الأقصى، مع محاولة خلق مشاكل جديدة، قد تمهد لعودة القواعد العسكرية الأميركية إلى الفيليبين. وإنشاء أخرى جديدة لمحاصرة التنين الصيني.

٧- تضمنت التعديلات الأطلسية دعوة أستراليا للانضمام إلى الحلف، الذي أوكل إليها مهمة ميدانية غير مسبوقة بتسليمها قيادة القوات المتداخلة في تيمور الشرقية.

٨- استبدلت الاستراتيجية الجديدة للحلف دوره الدفاعي المحصور داخل الدول الأعضاء إلى دور تأمين المصالح خارج هذه الدول، وفي مناطق عديدة من العالم.

٩- إن هذه التغييرات الاستراتيجية جعلت الدول المحاصرة أميركياً خارج نفوذ الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، وألحقتها بنفوذ الحلف، الولايات المتحدة بالتالي. فباتت قرارات فرض الحصار وتوسيعه أو إلغائه قرارات أميركية لا دخل للمنظمات الدولية فيها.

١٠- إن بقاء التصويت على العقوبات في مجلس الأمن حتى الآن لا يخرج عن كونه صيغة شكلية. فبالرغم من المعاهدة الروسية الصينية يبقى الفيتو ضد العقوبات خارج الأولويات. ذلك أن روسيا تنتظر القروض، والصين تسجل فائضاً قدره ١١٥ مليار دولار سنوياً في تجارتها مع الولايات المتحدة، من هنا تنحصر معارضتهما في نطاق تحويل الحصار من صعيد الاحتواء إلى صعيد استراتيجي، عن طريق العقوبات الذكية.

١١- تأكيداً للنقطة السابقة لابد من التذكير بالتدخل الأميركي في كوسوفو، الذي لم يطلب موافقة الأمم المتحدة، ولا حتى موافقة الكونغرس الأميركي.

١٢- الإبقاء على النقاط الساخنة، الحروب الصغيرة في أنحاء العالم، جاهزة للتفجير بما يتناسب والمصالح الأميركية. وهنا نقع على قائمة طويلة من البراكين تتوزع على مناطق البلقان والحزام الأوراسي والشرق الأقصى وإفريقية وأميركا اللاتينية والوطن العربي، بحيث يصعب تعداد هذه البراكين وسيناريوهات تفجيرها المحتملة.

١٣- استكمالاً للنقطة السابقة فإن أهم البراكين العربية الجاهزة للتفجير الأميركي هي: السودان، والصومال، والجزائر، والأردن، وفلسطين، والعراق.

١٤- يمكن اليوم التأكيد على أن بعث الأطلسي في ثوب استراتيجي جديد كان مقدمة لتخلي الولايات المتحدة عن النظام العالمي الجديد، ومعه العولمة، لصالح بعث سياسة الأحلاف العسكرية من جديد. فسياسة الأحلاف تحررها من التزامات عديدة، وتعطيها حرية أوسع وأشمل لتأمين مصالحها وحمايتها.

١- سقوط العولمة وانبعاث سياسة الأحلاف العسكرية

تحت هذا العنوان نشرنا مقالة بتاريخ ١٩٩٩/٣/٢٧م أي قبل شهر واحد من التعديلات الاستراتيجية للحلف الأطلسي. وفي حينه استند توقعنا لرغبة الولايات المتحدة بالتخلي عن العولمة، واستبدالها بسياسة الأحلاف العسكرية، إلى المؤشرات التالية:

أ– الأزمة الاقتصادية المكسيكية التي تدخلت فيها الولايات المتحدة بثمن باهظ.

ب– امتناع الولايات المتحدة لاحقاً عن دعم بورصات كل من البرازيل والنمور الآسيوية والفيليبين تجنباً للخسائر، وتسهيلاً لكسب المضاربين الأميركيين، حيث جنى المضارب جورج شوروش مثلاً أرباحاً طائلة من النمور الآسيوية.

جـ – قيام تجمع الدول الخمس عشرة، وهي الدول التي سارعت لركوب قطار العولمة، ودفعت ثمن ذلك غالياً من اقتصادياتها، الداعي للتريث في تطبيق سيرورات العولمة الاقتصادية. والمتحفظ على نتائجها، المعاني من أخطارها، وعقد هذا التجمع لمؤتمر جامايكا المعارض للعولمة بشكلها الراهن.

د– بداية تململ أصدقاء الولايات المتحدة، الستة الكبار خصوصاً، من التبعات الاقتصادية والثقافية التي ترتبها عليهم العولمة. لغاية معارضة فرنسا للعولمة جهاراً، واقتراح التعديلات عليها، لأنها أمركة، وليست عولمة، بحسب التعبير الفرنسي الذي أصبح شائعاً بين مثقفين من مختلف أنحاء العالم.

هـ– التبدي الواضح لعلائم فشل تصدير النموذج الأميركي، واضطرار الولايات المتحدة لتقديم تضحيات، تناقض مبدأ المنفعة الأميركي لدعم هذا التصدير.

حـ - دعم الولايات المتحدة ومباركتها للحلف التركي الإسرائيلي، مع طرحه بديلاً لانضمام تركية إلى الاتحاد الأوروبي. وخصوصاً أن الحلف خضع لاختبارات تدخل أميركية مباشرة وغير مباشرة من الدرجة الأولى، إذ اجتاحت تركية أراض عراقية وبقيت فيها لفترة تحت غطاء القضاء على المعارضة الكردية!؟. عداك عن الاختبارات الأخرى، **ولا تخفي الأوساط الأميركية الرغبة في توسيع هذا الحلف عبر كونفيديرالية أردنية - فلسطينية تنضمُّ إليه، صدر تصريح عن غونداليزا رايس مستشارة بوش لشؤون الأمن القومي بهذا الاتجاه، ومعه تصور لرفع العلمين الفلسطيني والإسرائيلي في القدس.**

ز- إن المصالح الأميركية هي الموجه الوحيد للسياسة الأميركية. فإذا ما تعارضت هذه المصالح مع العولمة، فإن الولايات المتحدة ستعدل مبادئ العولمة وفق مقتضيات مصالحها، فإذا تعذر ذلك، فإنها ستنقلب على العولمة وتعاديها، بل هي ستلغي هذا المصطلح من القاموس السياسي وتحظر تداوله.

بناء على هذه الوقائع رأينا أن الولايات المتحدة لن تقبل باستمرار تحمل أعباء العولمة. لذا فإنه من الطبيعي أن تعود إلى سياسة الأحلاف ورصيدها كبير في هذه السياسة.

أما اليوم فإننا نستطيع أن نرصد بدقة ووضوح تأمين اللامبالاة الأميركية بالعولمة، وكذلك أسباب هذه اللامبالاة، إلا أننا نجد من المناسب التذكير بتعديلات استراتيجية حلف الأطلسي قبل التطرق إلى هذه المواضيع.

٢- حلف الأطلسي في يوبيله الذهبي

هو عنوان مقالتنا المنشورة في ١٩٩٩/٤/٣٠م أي بعد أربعة أيام على إعلان تعديلات الحلف، وفيها رأينا أن أوروبا قد دفعت ثمناً غالياً لحرب كوسوفو، دون أن تكون لها مصالح حقيقية فيها، مما جعل من الشراكة الأطلسية والأميركية ضمناً عبئاً عليها، وعلى اقتصادياتها، عداك عن إحراج تورطها بالتواطؤ على تجاهل الأمم المتحدة على الطريقة الأميركية، حتى بات واضحاً أن أوروبا لن تتورط في وضعية مشابهة في المستقبل، ما لم تدخل تغييرات جذرية على استراتيجية الحلف، تراعي المصالح الأوروبية وتجتذبها، فكان التعديلان الرئيسان المغريان للأوروبيين.

الأول يتعلق بتدخل قوات الحلف في دول أوروبية غير أعضاء في الحلف.

والثاني في دول غير أوروبية مثل الشرق الأوسط وشمال إفريقية، وهو الأهم بالنسبة إلى الأوروبيين ومصالحهم، كانوا قد

دعَوْا قبل عامين لإنشاء قوة أوروبية للتدخل السريع في شمال إفريقية.

أما عن مبررات هذا التدخل فكانت العناوين العريضة المشهّرة أميركياً حججاً جاهزة لتبرير أي تجاوزات للقانون الدولي. ومن هذه الحجج مواجهة التحديات المهددة للحلف، كمثل الإرهاب الدولي، وانتشار أسلحة الدمار الشامل، وغيرها من العناوين التي يمكن التحكم بدلالاتها وتفسيراتها، وفق اتجاه المصالح. حتى تبدى التناقض واضحاً في تصريح الناطق باسم مجلس الأمن القومي (مايك هاملر) الذي علق على التعديلات بالقول:

١- إننا لانتكلم عن دور شرطي دولي للحلف، أو عن تحويله إلى عالمي. بل نتحدث عن مسائل محددة مثل، كوسوفو الواقعة خارج إطار الحلف لكنها تهدد مصالحه.

٢- لم يكن بإمكان الحلف الحصول على إذن التدخل في كوسوفو من مجلس الأمن، لذلك تدخلنا من دونه، لكننا نحترم قرارات المجلس، ونرحب بموافقته، ونقدر دور الأمم المتحدة.

٣- إن الحلف سيسمح لنفسه بالتدخل خارج حدوده في الأماكن التي يرى مصالحه مهددة فيها، يعني المناطق المحددة في التعديلات، أي أوروبا عامة، وشمال إفريقية، والشرق الأوسط والوطن العربي.

٤- إن الحلف لن يتدخل في منطقة جنوب شرق آسيا، حيث الصين والهند وباكستان وكوريا وهي الدول التي تطور أسلحة نووية.

وهذا التصريح يذكرنا بجملة وقائع وممارسات أميركية سابقة لهذه التعديلات بسنوات، ومنها اعتقال كوماندوس أميركي لرئيس دولة (نورييغا) من قصره الرئاسي، واقتياده إلى السجن الأميركي، **إضافة إلى جملة ضربات عسكرية أميركية ضالة، مثل قصف سرت في ليبيا، وتدمير معمل الأدوية السوداني، وغيرها من العمليات التي تبين ضلالها من خلال استنادها إلى معلومات خاطئة. عداك عن العمليات السوداء الكثيرة للمخابرات الأميركية التي تكرس تجاوزات أميركية سابقة، باتجاه هذه التعديلات، بما يجعل الهدف منها مجرد إعطاء الولايات المتحدة حرية أكبر في الحركة، وذلك عبر التغطية الأوروبية.**

وكان لمرونة كلينتون ومواهبه التفاوضية الدور الرئيس في إقناع الأوروبيين بالقبول بهذه التغطية. إذ اعترف لهم ضمناً بحق التدخل في شمال إفريقية، ليعود بوش فينازعهم في هذا الحق. **كما علينا ملاحظة تضمن التعديلات الأطلسية لتنازل استراتيجي للصين لادخل لقوات الحلف في منطقتها وعلى تخومها. ربما كان تعويضاً لها عن ضرب القوات الحليفة لسفارتها في بلغراد. وهذا يدعو لرصد التنازل الذي سيقدمه بوش لها في مقابل أزمة الطائرة الأميركية التي اصطدمت بطائرة صينية كانت تعرقل مهمتها التجسسية.** وهو تنازل تعترضه رغبة بوش الابن بتقليد ريغان، وهو تقليد فاشل حكماً

لاختلاف الشخصيتين والظروف المحيطة بهما. إذ إن بوش تمكن من استثارة كافة أصدقاء الولايات المتحدة منذ الشهر الأول لرئاسته. وذلك عبر إصراره على درعه الصاروخي، المكمل لمشروع ريغان، وعبر افتقاده للمرونة في علاقاته مع الآخرين، عداك عن تراجعه عن الوعود الكلينتونية الكثيرة بدءاً بالوعد الأوروبي ومروراً بوعود السلام الشرق أوسطي، وغيرها من الوعود السخية التي أطلقها كلينتون مع تركه الأزمات المزمنة، لتتحول إلى الإنتان الذي يواجهه بوش راهناً. ومواجهته تكاد تصل إلى الإعلان الصريح عن الانسحاب من العولمة، ومن النظام العالمي الجديد، رفض بوش توقيع سبعة اتفاقات عولمية منها كيوتو للبيئة لصالح سياسة الأحلاف. بما يدعو للتساؤل عن أعباء العولمة التي تثقل كاهل الرئيس الأميركي، وتحول دون تحقيقه لمشروعه الرئاسي؟ حيث يمكن اختصار هذه الأعباء بالنقاط التالية:

١- الالتزامات/التعهدات التي تهرب منها بوش علانية، ومنها اتفاق كيوتو.

٢- معاهدة الحد من تهريب الأسلحة الفردية، النقطة السابقة.

٣- إحراج الاستمرار الأميركي في دعم أنظمة ديكتاتورية تماشياً مع المصالح الأميركية.

٤- التخلي عن دعم الصادرات الأميركية، يقدر بأربعة مليارات دولار سنوياً.

٥- التخلي عن الاحتكارات الدوائية، مثال ذلك تأمين أدوية الإيدز للفقراء.

٦- الاعتراف بالثقافات الأخرى.

٧- إحراج التدخل الأميركي لمساعدة الدول المتعولمة في عثراتها، على غرار التدخل في المكسيك، ورفض التدخل في أزمات روسيا والنمور الآسيوية.

٨- الاضطرار للتخلي عن العمليات السوداء، وهذه النقطة تقتضي التوقف عندها، إذ حرصت الولايات المتحدة على تقليص هذه العمليات والحد منها، لكنها كثيراً ما تجد نفسها مضطرة للجوء إليها. ولابأس من إعطاء بعض الأمثلة على هذه الحالات الاضطرارية ومنها نذكر:

أ- قمع العنف بوسائل تحرج الليبيرالية الأميركية في حوادث سنسيناتي، التي اتخذت طابعاً عنصرياً، مثلها مثل حوادث لوس أنجلوس وليتل روك وحوادث متفرقة أخرى قبلها.

ب - اعتماد سياسة قطع التيار في البورصات الأميركية، وهي سياسة بدأت مع ريغان كإجراء احترازي يقتضي إقفال البورصة،

ووقف التعامل فيها إذا كان هناك خطر تدهور المؤشرات، حيث يشكل تداول السهم بالإنترنت تحدياً لهذه السياسة.

جـ - مخالفة قوانين منظمة التجارة العالمية عندما تستدعي المصالح الأميركية ذلك على غرار ما فعله كلينتون في دعم صناعة الصلب الأميركية.

د- سياسة فرض عتبات لأسعار بعض الخامات، وفي مقدمتها النفط حيث تدخل الولايات المتحدة كمضارب للحفاظ على عتبات سعر برميل النفط. فتلجأ لسياسة الإغراق، عرض كميات كبيرة للبيع لمنع ارتفاع السعر، ومن هنا الرفض الأميركي القاطع لإدراج النفط ضمن سلع منظمة التجارة العالمية.

وكما هو ملاحظ فإن سياسة الهروب من العولمة بدأت مع كلينتون الذي استخدم مرونته ومواهبه التفاوضية وفريقه اليهودي للهرب من دون ضجيج وإثارة مشكلات، ولعل أولى تهم الهروب هي تلك التي **أطلقها مسؤول منظمة التجارة العالمية هاينز بيتر ورنر في تصريحه الصحفي في أثناء اجتماع جنيف إذ قال: ((..لقد تعلمنا أن الرئيس كلينتون ليس صديقاً لنا، فقد دفع بسبعين ألف متظاهر في سياتل من أجل انتخابات آل غور)).**

أما الرئيس ووكر بوش فهو يكاد يعلن صراحة عن عدم استعداده لاحترام أي مبدأ عولمي يتعارض والمصالح الأميركية، بما

يوازي الإعلان عن تخليه عن العولمة وإسقاطها لصالح بعث سياسة أحلاف جديدة.

حلف بغداد يبعث حياً

كان حلف بغداد المركزي يضم الدول التالية: بريطانيا وإيران والباكستان والعراق وتركية بالإضافة إلى عضوية أميركية غير رئيسية. ولو نحن قرنا القناعة الأميركية الراسخة بأفضلية العودة إلى سياسة الأحلاف مع سلوك الولايات المتحدة في المنطقة لوجدنا العلائم التالية على رغبتها في إحياء حلف بغداد:

أ- دعم الحلف الإسرائيلي- التركي على مختلف الصعد. والتدخل للتنسيق بين الشريكين مع توجيه الحلف باتجاه خدمة المصالح الأميركية في المنطقة.

ب- دفع الأمور باتجاه إنشاء فيديرالية أردنية – فلسطينية لتدخل شريكة في الحلف، وتليها أطراف أخرى تتحدد وفق تطورات الوضع في دول المنطقة، وهي تطورات مفتوحة على مفاجآت، من صنع أميركي، غير متوقعة.

جـ – تمديد الحصار على إيران لمدة خمس سنوات كاملة.

د- محاولة فرض العقوبات الذكية على العراق، وفشلها يجعل احتمالات توجيه ضربة جديدة له عالية الاحتمال.

هـ - استمرار الإعلان الأميركي عن عدم الرضا عن سياسات كل من سورية ولبنان والباكستان، مع استمرارية إثارة المشاكل الداخلية في هذه الدول ولو بشكل مخفف. مع التلويح بتوسيع إطارها وبإعادة إدراج هذه الدول كراعية للإرهاب.

إلا أننا نشك في إمكانية قيام واستمرارية حقيقيين لمثل هذه الأحلاف، مع عدم شكنا باختلاف الظروف والمعطيات أو بقدرة الولايات المتحدة على إثارة مشاكل تبرر تدخلها، وتستدعي رعايتها لمثل هذه الأحلاف، لكن شكنا يستند إلى رؤية أنثروبولوجية تتعلق باختلاف مفهوم الموت بين ثقافتنا وبين نمط الحياة الأميركي.

تشومسكي يثبت بالوثائق
أن أميركا
هي أول دولة خارجة على القانون

٢/٦/٢٠٠٠م

١٦- ((النظرية الحمقاء)) أسلوب ردع جديد

اتفق الاستراتيجيون الأميركيون على أن انهيار الاتحاد السوفياتي قد أصاب السياسة الأميركية بحالة من فقدان التوجه، وربما كان هنتنغتون أكثرهم صراحة في الإعلان عن ذلك عبر مقالته ((تآكل المصالح الأميركية)). لكن تحليلات عديدة أكثر جرأة وواقعية كانت قد نشرت في الصحافة الأميركية دون أن تلقى اهتماماً يذكر. مع أنها قد طرحت أسئلة في غاية الحساسية والخطورة. حيث إن غالبيتها بقي حتى اليوم من دون أجوبة.

ولعل واحداً من أهم هـذه الأسئلة هـو السؤال عـن مستقبل العلاقة الأميركية - الإسرائيلية. بعـد أن فقـدت إسـرائيل موقعهـا الوظيفي بسقوط الشيوعية. فهي لم تعد قاعدة استراتيجية متقدمة في مواجهة الشيوعية. كما إنها فقـدت دورهـا في حمايـة المصـالح النفطية الأميركية في المنطقة. حتى يمكن القول بأنها لـم تعـد تجـد لنفسها وظيفة في الرؤى الاسـتراتيجية الأميركيـة للمنطقـة، حتـى وصل الأمر ببعض المتفائلين العـرب إلى الاسـتنتاج بـأن الولايـات المتحدة ستجد نفسها مضطرة للتخلي عن دعمها لإسرائيل عاجلاً أم آجـلاً. وتدعمـت هـذه الطروحـات عندمـا تـولى الجمهـوري جورج بوش الرئاسة فراح يعمل (وفق سياسة حزبه) على تقليـص النفقات وخصوصاً منها التي كـانت مخصصـة لمراجهـة الشـيوعية ومحاربتها. ورأى بعضهم في حرب الخليـج الثانيـة محاولـة أميركيـة لتولي شؤونها بنفسها دون وسـطاء. ممـا يضعـف موقـع إسـرائيل كوسيط. وبذلك استطاع بوش أن يخسـر أصـوات اليهـود ودعـم بعض أصحـاب المصـالح فخسـر بذلـك معركتـه الثانيـة للرئاسـة. ليعقبه الديمقراطي كلينتون الساعي (وفق سياسة حزبـه أيضـاً) إلى زيـادة المـوارد الأميركيـة. وهـي زيـادة تجلـب الصراعـات. لكـن كلينتتون خاض هذه الصراعات وفق مبدأ قوامه أن التهديد بالقوة أجـدى وأكـثر ربحيـة مـن اسـتخدامها الفعلـي. لذلـك كـان هـذا الرئيس يسعى لتوليد الصراعات شـرط أن تكـون محـدودة، أي أن

لا تصل إلى حدود الثمن السياسي. لذلك كانت حروب كلينتون كلها رمزية ومقسطة (بالتقسيط). وهذا السلوك أدى إلى نوع من الفوضى الاستراتيجية. لأن الضحايا لا يتصرفون جميعهم وفق السلوك ذاته. فقد دفع ميلوسوفيتش مثلاً الأمور باتجاه مواجهة اقتضت القصف الجوي الدموي مع الحصار. في حين تنازل الأندونيسيون عن تيمور الشرقية دون إثارة أية مشكلات. وهكذا باتت السياسة الأميركية غامضة ومثلها الاستراتيجية. وهذا الغموض كان شديد الإزعاج بالنسبة لإسرائيل التي وجدت نفسها تتحول من شريك إلى تابع عليه تنفيذ الأوامر وأصعبها شرب كأس السلام مع جيرانها. وهو كأس لايزال كلينتون يضغط عليها كي تشربه.

لكن هذه الفوضى وجدت بعض التفسير عبر دراسة استراتيجية سرية صدرت في العام ١٩٩٥م (ضمن قانون حرية المعلومات) وتسربت بعد ذلك. قوام هذه الدراسة تحويل الردع من الاتحاد السوفياتي المنهار إلى ما تسميه بـ «الدول الخارجة على القانون». وبذلك تكون هنالك فرص عمل جديدة لأولئك المتعطلين من العمل بعد سقوط جدار برلين (ومنهم إسرائيل). كما أنه لا يعني أن الولايات المتحدة تواصل الإفادة من الأموال التي تنفقها على هؤلاء الأصدقاء! ولكن من هي الدول الخارجة على القانون؟ إنها الدول الموضوعة على لائحة الحصار الأميركي.

حيث تأتي كوبا والعراق وكوريا الشمالية وليبيا (ترجمت العداوة تجاهها بعد تعديلات الناتو الاستراتيجية). ثم تليها الدول الداعمة للإرهاب وقائمتها طويلة ومتغيرة. ويمكن ضم وإخراج أعضاء جدد إلى نادي الدول الخارجة على القانون. وبذلك أعادت الولايات المتحدة ترتيب موقعها بوجود أعداء بدلاء عن العدو الذي فقدته فراحت تسعى لاهثة عن بديل له. وها هي قد وجدت ضالتها!

لكن هذا الطرح ينطوي على جانب مثير للسخرية. وهو هل يمكن للمجرم أن يتحول إلى شرطي ينفذ القانون ويتستر بذلك كي يتابع إجرامه! وكان من الطبيعي أن يتبنى نعوم تشومسكي هذا الجانب الساخر وأن يتولاه بالتوضيح. فهذه الموضوعات باتت حقل اختصاصه المميز.

وهو قد أصدر بهذا الخصوص كتاباً بعنوان: Rogue states the Role Force in World Affairs وفيه محاولة جادة وموثقة لإثبات أن أميركا هي أُولى الدول الخارجة على القانون. ولإثبات ذلك يستعين تشومسكي بالوثائق المنشورة كما بالوثائق التي أفرج عنها حديثاً فلم تعد سرية.

وكان تشومسكي قد تطرق للموضوع في كتاباته السابقة فكان ماركسياً غير مختبئ في الخزانة (أي أن ماركسيته صريحة).

لكن تناوله لهذا الموضوع يختلف في هذا الكتاب من حيث مستوى الدحض. فهو كان في السابق يناصر المواقف الماركسية في وجه الآلة الإعلامية الأميركية. أما اليوم فهو يفاضل بين المخالفات القانونية الأميركية ومخالفات بقية الدول. وهو يقارن بين هذه المخالفات وينحاز للطرف الأضعف فيها. بحيث نلمح عقائدية هذا الانحياز في مواقفه من كوبا وكوريا الشمالية. إلا أن موقفه من الدول الأخرى المصنفة أميركيا كخارجة على القانون، فهو أقل حماسة.

وينطلق تشومسكي في اتهامه للولايات المتحدة من مخالفاتها الصريحة والمتكررة للقوانين الدولية. منوهاً بزيادة حجم ووضوح هذه المخالفات في الفترة الأخيرة. فيتوقف عند ضغوطاتها على الأمم المتحدة وتدخلها المباشر في شؤون هذه المنظمة الدولية ويعرج على التدخل الأميركي في كوسوفو ساخراً من وصف هذا التدخل بأنه يعود إلى دواع إنسانية. ولا يفوته توصيف التدخل الأميركي في جنوب شرق آسيا على أنه مقدمة لمخالفات جديدة للقانون الدولي.

ويركز تشومسكي على موضوع (العراق) وأزمته الإنسانية بعد أن اتفقت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا على تصنيفه كدولة خارجة على القانون. باعتبار أنه يهدد جيرانه ومعهم

العالم الحر (الجديد) وذلك بقيادة (هتلر جديد). وهذه الأمور تبرر لهاتين الدولتين الدعوة لاحتواء ذلك البلد. وهي دعوة يرى تشومسكي أنها تحتاج لإعادة النظر فيها وللتعمق والتدقيق بصحة ادعاءاتها.

وهنا يعود المؤلف إلى الدراسة الاستراتيجية المشار إليها أعلاه فيجد أنها تهدف فقط إلى تحقيق الفائدة الأميركية من توظيفاتها الاستراتيجية القديمة (أزلام الحرب الباردة) وإلى استغلال ترسانتها العسكرية والإفادة منها وهذا هو الأهم في هذه الدراسة. وكما لو كان أسلوب الردع الجديد (القائم على تحديد أعداء بديلين وتسميتهم بالخارجين على القانون) غير كافٍ، فإن أميركا تتصرف وكأنها مستعدة للانتقام من أي تهديد لمصلحتها. حيث يذكرنا تشومسكي بالنظرية الحمقاء التي قال فيها نيكسون: ((يجب على أعدائنا أن يدركوا بأننا سنصبح حمقى (إذا ضربت مصالحنا). بحيث سيصعب التنبؤ بما قد نقوم به بما لدينا من قدرة تدميرية غير تقليدية. وعندها فإنهم سوف ينحنون لنا خوفاً...)).

ويرى المؤلف أن الهدف من هذا التحالف هو الإيحاء بأن هنالك عناصر حكومية أميركية خارجة على السيطرة وقابلة للتصرف بحمق. وهذا الإيحاء من شأنه أن يربك صناع القرار في العالم وأن يصيبهم بالشك والخوف.

هنا نتساءل عما إذا كان وجود هذه العناصر هـو مجـرد إيحـاء؟ أم أنه وجود فعلي؟ فالكتاب لا يقدم ما يدحض وجود مثـل هـذه العناصر، خصوصاً وأن المتابع يلمح وجود مثل هذه العناصر حتـى يكاد يجزم بهذا الوجود وبفاعليته. بل هو يسأل عن الجهات التـي يمكنها أن تكون متحكمة بمثل هذه العناصر. وعما إذا كـان حمـق هذه العناصر آحادي الاتجاه أم أنه متعدد الاتجاهـات؟ وغير ذلـك من الأسئلة التي تعتـبر مقـررة في صناعـة السياسـة الدوليـة. حتـى يبدو تشومسكي في هذه النقطـة بـالذات مسـتهدفاً ولا مباليـاً إلى حد بعيد. إلا أنه في المقابل يقدم عروضاً جيدة ومقنعة يستخرجها من الملفات الأميركية المعلنة حديثاً. ومنها مسألة أندونيسيا. حيث كان مجيء سوهارتو إلى الحكم العـام ١٩٦٥م إيذانـاً بتحولهـا إلى صديقـة للولايـات المتحـدة بعـد سـنوات طويلـة مـن العـداء أيـام صداقتها لعبد الناصر ولدول عدم الانحياز. وعندها تغاضى الغـرب عن المذابح التي وقعـت علـى يـد صديقـه سـوهارتو. حيـث قـدّر مراسل صحيفة بروسـبكت اللندنيـة عـدد الضحايـا بعشـرة آلاف قتيل. كما يذكر الكتاب بقـرار مجلـس الأمـن الدولـي الصـادر في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٥م، والقـاضي بانسـحاب أندونيسـيا من تيمور الشرقية دون تأخير. في المقابل زادت الولايات المتحـدة مبيعات الأسلحة لسوهارتو، ثم عادت فزادتها أيام جيمي كارتر.

وذلك بوصف أندونيسيا دولة يحكمها صديق للولايات المتحدة! وبالطبع فقد تدخلت الولايات المتحدة في حينه لإيصال قرارات الأمم المتحدة بشأن تيمور الشرقية إلى طريق مسدود. ويستشهد تشومسكي على هذا التدخل بمذكرات السفير الأميركي في الأمم المتحدة (في حينه) دانيال باتريك موينهان. أما عن خلفيات هذا الدعم فهي لا تقتصر على الصداقة بل هي تقترن مع مشاركة شركة أميركية في الإفادة من نفط تيمور الشرقية.

وهنا يعقد تشومسكي مقارنة بين هذا السطو الأميركي على نفط تيمور الشرقية وبين محاولة العراق السطو على النفط الكويتي لكنه يميز تفوق وحشية السطو الأميركي.

ونحن نتساءل هنا عن مستويات المقارنة؟ فهل تعني هذه المقارنة تبرئة الولايات المتحدة من التورط في الكويت أو في العراق أو في الخليج إجمالاً؟ أم أن علينا الانتظار قليلاً ريثما يتم الإفراج عن الوثائق التي تبين أزمة أثرياء النفط في تكساس أواخر الثمانينيات، ورغبتهم العارمة بوقف تدفق نفط الخليج بأية وسيلة ممكنة؟ حيث يبدو أن انتظارنا لن يطول لأن جورج بوش الابن كان أحد هؤلاء الأثرياء المهددين بالإفلاس، وهو قد لجأ إلى إدمان الكحول وتعاطي الكوكايين تحت ضغط هذه الأزمة.

وبالانتقال إلى كوبا يعود تشومسكي لأسلوبه المعهـود في نقـد السياسة الأميركيـة. حيـث لا تعـود المسـألة موضـوع مقارنـة بـل تصبح مسألة ظالم ومظلوم. فقد أرسلت كوبـا قواتهـا إلى أنغـولا لصد هجمات الحكومة العنصرية في جنوب إفريقيا (المدعومـة مـن الولايات المتحـدة) حـين تسـببت جنـوب إفريقيـا بدعـم أمـيركي بمجازر راح ضحيتها مليون ونصـف المليـون مـن البشـر وخسـائر مادية لجيرانها الأفارقة تجاوزت السـتين مليـار دولار وذلـك وفـق إحصـاءات الأمـم المتحـدة كمـا يقـول تشومسـكي. وهنـا يدعنـا المؤلف نستنتج بأن المقارنة غير واردة بين الدولـة المحـاصرة علـى مدى أربعين عاماً (وهي كوبا) التي تدعم شعوباً مقهورة في وجـه حكم عنصري مدعوم أميركياً.

وبذلك يخلص تشومسـكي إلى تعريـف الدولـة الخارجـة علـى القانون بأنها ليست بالضرورة إجرامية ولكنها متمردة على أوامـر الولايات المتحدة.

غياب العدو
يفجر التناقضات الأميركية

١٧- كابوس هيروشيما وصدمة كوسوفو

٢٠٠٠/٦/٢٤م

أتقن الأمريكيون فن استغلال الواقع دون هدر أي جهد في محاولة تعديله. وهذا ما جعلهم يتجاهلون الإيديولوجيا وينظرون إليها باحتقار. وكأنهم بذلك يردون على احتقار حضور المؤتمر الفلسفي الذي عقد في ألمانيا العام ١٩١٢ م، والذي تهكم على ما طرح فيه من أفكار عن قيام فكر أمريكي على يد (ويليام جايمس - مؤسس البراغماتية). والواقع أن (براغماتية جايمس) لا ترقى بالفعل إلى مستوى الفكر الفلسفي. وهذا ما تباهى به الأميركيون! فأعلنوا شماتتهم بما أسموه (سقوط الإيديولوجيات). ثم أعلنوا بعدها عقم الفكر الفلسفي السياسي

لانعدام فاعليته الإجرائية. وهم أبدلوا الاثنين بسياسة خاصة هي سياسة المصالح.

ولقد كان كلينتون أبرع رئيس أمريكي في قيادة هذه السياسة. وهي براعة سيذكرها له التاريخ، لأنها مبرهنة بالأرقام، ومثبتة بالمكاسب الاقتصادية التي حققها، والأهم من ذلك أنه قاد المصالح الأمريكية نحو بر الأمان، دون أن يهتم بوضع استراتيجية واضحة، ومن دون أن يلتزم بصورة منتظمة بتقارير إدارته. حتى باتت قراراته خفية حتى على فريق إدارته. حتى أمكن القول إن هذا الرئيس كان الأكثر اندفاعاً باتجاه لعبة المصالح المتطرفة. وهي اللعبة التي فجرت فتيل الأزمة التي كشفت عن عورات الولايات المتحدة ونقاط ضعفها، وكان ذلك خلال حرب كوسوفو.

لو راجعنا المشهد العالمي خلال تلك الحرب لوجدنا أنفسنا أمام مؤشرات خطرة والأخطر منها تقاطعاتها. ولنتذكر معاً:

١- إن الحرب تجاوزت الفترة المفترضة لها (٧٩ يوماً) مما أوصل الإدارة الأمريكية إلى حافة الهاوية. فهي عاجزة عن استخدام أسلحة ذات ثمن سياسي. كما أنها عاجزة عن اتخاذ قرار الإنزال البري ليس فقط بسبب ثمنه السياسي (طلب موافقة الكونغرس الجمهوري على إعلان الحرب) وإنما أيضاً لسبب أكثر

فضائحية، وهو رفض الجمهور الأمريكي القاطع تقديم ضحايا بشرية. وهذا ما أحرج إدارة كلنتون وحلفاءها الغربيين، الأمر الذي دعا فرنسا إلى تقديم أعداد الجنود اللازمة للإنزال البري. وعندها فقط تراجع ميلوسوفيتش الذي كان يتعامل باستهزاء مع هذه الدول القوية عسكرياً واقتصادياً والمفلسة من ناحية القيم، فلو كان لديها قيمة ما تستأهل التضحية لأجلها لما كان هذا التردد وهذا الضعف.

٢- تجلت صدمة كوسوفو على صعد إضافية أخرى. فقد تراجع كلينتون عن طرح (النظام العالمي الجديد) وأبدله بـ (الحلف العالمي الجديد) الذي تكرس بتعديل المبادئ الاستراتيجية للناتو. حيث بدا كلينتون قادراً على فرض إرادته على دول أوروبا الكبرى، وإجبارها على التورط، وعلى مخالفة المبادئ الأساسية، للاتحاد الأوروبي. في حين كان كلينتون عاجزاً وبصورة فضائحية أمام ميلوسوفيتش وحلفائه المعلنين والسريين. وكذلك أمام الصين. وهذا ما دفع بالأوروبيين لخوض محاولات تمرد على الناتو، ولا تزال مستمرة عبر محاولات تأمين قوة تدخل أوروبية مستقلة!

٣- لقد أعادت صدمة كوسوفو التذكير بالمبدأ القائل: (بأن النصر ليس من نصيب الأقوى. بل هو من نصيب الأكثر تصميماً. وبما أن شعوب الرفاهية عازفة عن تقديم الضحايا البشرية، فإن قوة دولها

مرشحة للشلل. في حين يملك الفاشيون الجدد (تحددهم الولايات المتحدة وتصنفهم على طريقتها الخاصة) القدرة على اتخاذ قرار الموت، بالطرق التي تعتبر غير متوقعة. فهم مستعدون للموت.. على طريقتهم الخاصة، وهذا ما يثير رعب شعوب الرفاهية وهلعها.

السيكولوجيون الأمريكيون كانوا قد طرحوا المشكلة منذ الثمانينيات. وتحديداً مع ظهور الإيدز. حين نبهوا من قصور نظام القيم الأمريكي وعجزه. ووجدوا الحاجة ملحة إلى تدعيم هذا النظام بعد خطوات وقائية - أخلاقية. أما رفض التضحية البشرية، فهو قد تبدى واضحاً في معاداة حرب فيتنام، ورفض الجمهور الأمريكي لها، ثم عاود الظهور عقب إصابة الجنود الأمريكيين بما سمي بـ (أعراض حرب الخليج) ثم إثبات علاقتها بإشعاعات اليورانيوم الخامد، المستخدم في صناعة الأسلحة الأمريكية. وتطور الخوف من الوقوع ضحية الصراع من الحروب إلى الإرهاب، وقد وصل هذا الخوف إلى قمته، عندما أعلن أن شرق أوسطيين (أي عرب) هم المسؤولون عن انفجار أوكلاهوما؟!

وهكذا وصل الخوف من وضعية الضحية البشرية لدى الولايات المتحدة وسكانها، إلى حدود الخوف من أشخاص، وتحويلهم إلى نوع من البعبع، على غرار بن لادن وغيره. فها هي الكتب الأمريكية تعلن الذعر الجماعي والرعب من شخص بن لادن. في حين تعلن كتب أخرى عن حاجة أمريكا لتوسيع حلف الناتو، واحتواء الاتحاد

الروسي. وبهذا المعنى يمكن اعتبار كوسوفو خطـوة أمريكيـة نحـو القوقاز. وعليه فقد خلفت هذه الحرب صدمة من نوع خاص. إذ أعلنت، أو قل فضحت، إن التصميم هو الطريق لمواجهة التمـادي الأمريكي في تحقيق المكاسب، وتثبيت المصالح. وهذا التصميـم لا يجـد متنفسـه إلا عـبر انبعـاث الفاشـية، أو مـا يطيـب للإعـلام الأمريكي تسميته بالحركات الفاشية.

ونأتي إلى الداخل الأمريكي حيث تدهور القيم يبلغ مـداه بعـد نهاية الحرب الباردة. فقـد غـابت تهديـدات الشـيطان الشـيوعي، وهو غياب أسـقط معـه أُسـلوباً طريفـاً مـن البـدع القيميـة، وهـو أسلوب القيم المعاكسة. فأصدقاء الشيوعيين هـم أعداء الأمريكيـين وقس عليـه. وهـذا مـا جعـل هنتغتـون يتسـاءل في مقالتـه (تـآكل المصالح الأمريكية) عمـا إذا كـانت الميلشيات الأمريكيـة البيضـاء مسـتعدة لتفجـير أوكلاهومـا لـو كـان للولايـات المتحـدة عـدو؟ أوَليس غياب العدو هو الذي يفجر تناقضات الداخـل الأمريكـي؟ إلا أن هذه التناقضات ليسـت كافيـة بحـد ذاتهـا لتفسـير الضعـف الداخلي الأمريكي. فهذا الضعف لا تفسير له سوى تعطل جهـاز القيـم الأمريكـي وفقدانـه للتوجـه، مـع تركـيزه علـى الرفاهيـة الاقتصادية التي تبدو راهناً، وكأنها القيمة الأمريكية الوحيدة.

الأكاديميون الأمريكيون يعرفون بالتفصيلات مظاهر هذا الضعف، وهم يعملون بجدية على تعويضها. وربما كان تسخير الإعلام وكاتب من أشهر الكتاب الصحفيين أحد وسائل هذا التعويض.

وفي التفصيلات أن الصحفي المعروف جداً (بوب غرين – Bob Green) أصدر كتاباً جديداً بعنوان (الواجب – أب وابنه، والرجل الذي كسب الحرب).

منذ البداية، تستغرب العنوان والموضوع والمحتوى. حيث تتساءل هل يحتاج مهني محترف في عالم الصحافة ويغوص في خباياها وأسرارها إلى مثل هذا الموضوع؟ فموضوع الكتاب حوار بين غرين ووالده المشرف على الوفاة. وهو حوار مبتور، ومستلحق بتسجيلات (استمع إليها غرين). وفيها يتكلم الوالد عن ذكرياته في الحرب العالمية الثانية، حيث يكرر الإشارة إلى اسم رجل يدعى (بول تيبيتز) هذا لمن لا يعرفه، هو الذي ألقى القنبلة النووية على هيروشيما. منفذاً بذلك الأوامر الصادرة إليه. جامعاً فريقاً سرياً مؤلفاً من ١٨٠٠ شخص. ثم قاد طائرته (أسماها على اسم أمه ((إينولاغي))) ليلقي القنبلة، وليصبح صانع أكبر كارثة صناعية في تاريخ البشرية (حتى الآن؟!). كان لا بد لبول أن يصاب بعارض الصدمة، لما فعلت يداه، ومن الطبيعي أن تكون

صدمته بحجم الكارثة التي خلفها. وهـذه الصدمـة تتبـدى بشـكل رئيسي بما يدعى (مشاعر الذنب لدى الناجين من الكارثة).

ولو أننا أخذنا الأمور مـن الناحيـة الاختصاصيـة (السـيكاترية) لأمكننا التشديد على ضرورة قيام بـول بقتـل نفسـه (بالانتحـار). لكنه تلقى علاجات مكثفة على ما يبدو، حتـى اكتفـى بـالانطواء والانسحاب. حتى إن المؤلف حاول طـوال عشـرين عامـاً مقابلـة بول ولـم ينجـح. ولكنـه نجـح في إتمـام هـذه المقابلـة بعـد سـماعه للأشرطة. فتمت المقابلة بهذه الحجـة! بـل إن العلاقـة تحولـت إلى صداقة، اكتشف بول خلالها الخصائص الإيجابية الفريدة في ذلـك الجيل، وهو يلخـص هـذه الخصـائص بعبـارة واحـدة (الإحسـاس بـالواجب)! ويخـوض (غريـن) في الجوانـب العاطفيـة والوجدانيـة للعلاقة مع الأهل. ويركز على كون معظم الأمريكيين الحـاليين لا يعرفون هذه الجوانب، ولا يقدرون الخصـائص الإيجابيـة في الجيـل السابق.. إلخ.

لكنـك فجـأة تصحـو مـن آثـار التنويـم المغناطيسـي لتتسـاءل باستنكار ماذا يريد (غرين)؟ أتراه يريد تـبرير جريمـة قتـل ملايـين البشر بقرار من رجل، وبتنفيذ من رجل آخر؟! أم هـل تـراه تـرك عمله الصحفـي ليسـاعد الوكالـة في تهيئـة الجمهـور لتقبـل عبـارة (نيكسون) الشهيرة: ((.. علـى أعدائنـا أن يدركـوا أننـا سـنصبح

حمقى إذا ضربت مصالحنا..)). مع أن حماقة (نيكسون) تميزت بوجود الحدود لها، وبالتالي للمصالح الأمريكية. أما اليوم فإن هذه المصالح لم تعد تعترف بأي حدود! وهذه حماقة بحد ذاتها! كما قد يسأل القارئ عما إذا كان (غرين) يسعى للإسهام في اختلاق قيم أمريكية جديدة، أو إعادة إحياء بعض قديمها؟ أو ربما هو أسهم في علاج بول، وهذه الفرضية الأخيرة مستبعدة، لأن بول توفي منذ بضعة أشهر. والكتاب يلقى رواجاً كبيراً في الولايات المتحدة، ويأتي في المرتبة الثانية في قائمة (أمازون) للكتب الأكثر مبيعاً في أمريكا. لكن هذا النجاح ليس سوى استغلال لحاجة الأمريكيين إلى سد الفراغ في حياتهم العاطفية. وهو الفراغ نفسه الذي يدفعهم باتجاه المخدرات حيناً، وباتجاه (تايسون) المغتصب، ومونيكا الداعرة أحياناً أخرى.. إنه مجتمع يبحث عن قيم، وعلينا أن نجد له عدواً يرضيه ويوجه قيمه، قبل أن يتحول الأمريكيون إلى حمقى، وعندها ستكون الكارثة أكبر من أي توقع!؟

الفصل الثالث

الولايات المتحدة في الشرق

١٨ - بن لادن ...
الرجل الذي أعلن الحرب على أميركا

غيفارا هل هو قابل للتعريب أو الأسلمة؟

١١/٩/١٩٩٩م

يتعامل الإعلام الأميركي مع بن لادن بصورة تذكر بالتوجهات التي أصدرتها الإدارة الأميركية في التعامل مع تشي غيفارا. والواقع أن وجوه الشبه الاثنين كثيرة. لكن الإدارة الأميركية تهتم بالوجوه الآتية منها:

١- أن كلاهما يعتبر رمزاً رافضاً لجهاز القيم الأميركي.

٢- اشتراكهما في إعلان العداء للولايات المتحدة.

٣- عملهما على تخوم المناطق التي تمثل مصالح استراتيجية أميركية، والخوف من امتداد الأثر عبر هذه التخوم إلى مناطق المصالح نفسها.

٤- اشتراكهما في سلوك الزهد السلطوي، مما يجعلهما مؤهلين للعيش في البراري بصحبة الأفاعي.

٥- قدرتهما على جلب تعاطف فئات من خارج دائرة معتقداتهما.

٦- استعدادهما الفطري للتنقل من جبهة إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر، والقتال في كل منهما بالاندفاع والكفاية نفسهما.

٧- قدرتهما كأفراد على التسبب بإزعاج فعلي للولايات المتحدة، وإجبارها على السعي لمواجهة شخص فرد. بما ينعكس سلباً على هيبتها كدولة، ويشكل إحراجاً أمام جمهورها.

نقاط الاختلاف بدورها كثيرة ويزيدها اختلاف الزمن المعيش. لكن نقاط التشابه هي الأخطر بالنسبة للإدارة الأميركية. وهي الأكثر استثارة لفضول الجمهور الأمريكي، وربما كان هدف إرضاء هذا الفضول هو سبب ظهور كتب أميركية عدة حول بن لادن وآخرها كتاب «بن لادن الرجل الذي أعلن الحرب على

أميركا)) لمؤلفه يوسف بودانسكي. وبحسب الاسم يرجح أن يكون المؤلف يهودياً من أصل بولندي. والمؤلف يشير منذ البداية مسألة أن الخلاص من بن لادن لا يعني نهاية المشكلة، وهو ينهي كتابه بعبارة: ((خطر بن لادن لا ينتهي بنهاية بن لادن!)).

والواقع أن الجمهور الأميركي بدأ يتساءل عن خلفيات قضية هذا الرجل. فالمكافأة المعلنة عن رأسه هي فقط خمسة ملايين دولار، لكن المصروفات الفعلية للقضية تتجاوز المليارات. إذ يكفي أن نذكر سحب الولايات المتحدة لدبلوماسييها وإغلاقها لسفاراتها في بلدان عديدة ولمدة تجاوزت الأسبوع خوفاً من ضربات توجهها جماعة بن لادن بمناسبة ذكرى القصف الأميركي لقاعدته في أفغانستان، كما أن الجمهور الأميركي بات يدرك عدم جدية مبلغ المكافأة للنيل من شخص تقدر ثروته بأكثر من مليار دولار، يدير إمبراطورية مالية تبلغ مليارات عدة من الدولارات. وهي ثروة تخلق أجواء أسطورية من حوله، حتى بدا هذا الكتاب وكأنه يؤكد على أسطورية بن لادن.

وإذا كان بن لادن يحظى بتعاطف فئات مسلمة غير ممارسة وحتى غير مسلحة، فإنه يواجه في المقابل تهمة الشراكة مع الأميركيين في القتال ضد الاتحاد السوفياتي، حتى إن بعضهم يعتبره صنيعة المخابرات المركزية الأميركية. وهذا البعض يستدل

بضآلة المكافأة (٥ ملايين دولار) على عدم جدية الرغبة الأميركية في الخلاص منه، ولقد دافع بن لادن عن نفسه في مقابلة تلفزيونية معتبراً أن اللقاء كان تكتيكياً حيث تقاطعت المصالح.

وفي عودة إلى الكتاب يتساءل القارئ عن مدى تلبيته لفضول القراء، ومدى ملامسته لهذه الموضوعات؟

- الكتاب يبدأ بالتركيز على خلافة بن لادن، وذلك ليس من منطلق الثقة بالقدرة الأميركية على تصفيته. بل من منطلق إثبات أن نهاية الرجل لا تنهي خطره. لذلك يركز على خلافة ابن بن لادن المدعو محمد (١٥ سنة) لوالده. فهذا اليافع يعايش الحياة القاسية لوالده، ويشارك في حراسته. كما يخضع محمد لدورات تدريب عسكرية منتظمة. وهو يتابع باهتمام المعلومات كافة المتعلقة بتنظيم والده المسمى بـ (القاعدة). هذا ويهتم المؤلف بالتأكيد على تخصيص بن لادن مبلغ مئة مليون دولار لعائلته، يقول إنها مودعة في بنوك في لندن موناكو وجزر الكاريبي. وهنا يقع بودانسكي في مطب جهله لأصول الإرث في الشريعة الإسلامية حيث لا تشكل هذه المخصصات سوى احتياطي للأزمات. فعائلة الشخص المسلم ترث كامل ثروته وفق الأصول المعتمدة. والمؤلف نفسه يركز على رغبة بن لادن بتوريث ابنه محمد للقاعدة، وليس للثروة (حسب حصته الشرعية) فقط. ولعل

الكتاب يبتعد في هذه النقطة عن الأسلوب الذي اتبعه بقية الكتّاب الأميركيين في كتاباتهم عن غيفارا وعن كاسترو لاحقاً. ويقوم هذا الأسلوب على إرضاء المهاجرين الأميركيين اللاتينيين المعادين للزعيمين. إلا أن بودانسكي يعود لاعتماد هذا الأسلوب في البقية الباقية من كتابه، من دون أن يلاحظ الفارق بين العرب الأميركيين وبين معادي الشيوعية اللاتين. فالتبرعات التي يجمعها هؤلاء لبن لادن تشير إلى انعدام شكوكهم بتعاونه مع المخابرات الأميركية. وذلك على عكس قسم كبير من العرب الآخرين ممن لا تزال الشكوك تراودهم بهذا الشأن. والطريف أن المؤلف يتجاهل مناقشة كل هذه النقاط مع إدراكه لأهميتها وحيويتها.

في المقابل نجد المؤلف يركز على تحالف محتمل بين بن لادن وصدام حسين، حتى يبدو، بالنسبة للقارئ الأميركي، وكأنه يبحث للشيطان عن أخ شقيق. لا لهدف، إلا تمام الأذى والإضرار بالمصالح الأميركية. وينطلق احتمال التحالف هذا من خبر نشرته الصحافة الأجنبية وسربته بعض الأوساط الصحفية العربية. ويتعلق الخبر باجتماع جرى قبل سنين بين بن لادن وبين مدير المخابرات العراقية في ذلك الوقت فاروق الحجازي. ولا يخفى على المهتمين دور الوساطة الذي يلعبه حسن الترابي (شريك بن لادن في القتال وفي الاستثمارات) بين الطرفين، بل إن فاعلية هذا الدور تتنامى مع

احتمالات تراجع إيران خاتمي عن دعم الحركات الأصولية. بل إن الكاتب يؤكد على وجود تعاون فعلي بين الطرفين يعود لأكثر من خمس سنوات. عندما تدخل ابن لادن في قتال القوات الأميركية في الصومال، وعندما قدم العراق الدعم لأعداد من الأفغان انتقاماً لضرب الولايات المتحدة وفرضها الحصار عليه. ويصل المؤلف بعد طول عناء للإيحاء بأن الإرهابيين لا بد لهم أن يلتقوا. متجاهلاً كل التجاهل اللقاء الحار بين الولايات المتحدة، وبين العرب الأفغان في قتال الاتحاد السوفياتي. ومهما يكن فإن أحداثاً كثيرة لاحقة تدعم وجهة نظر المؤلف وفرضياته حول هذا التحالف، ومنها أنباء اجتماع بين قصي صدام حسين وبين عبد الله القاسم ومحمد أبو الإسلام (المقربين من بن لادن) وأيضاً الأنباء التي رافقت شائعة مغادرة بن لادن أفغانستان ولجوءه إلى العراق، وأخيراً وليس آخراً المحاولات الأميركية الدائبة لتفجير الخلاف داخل حركة طالبان على محور إبقاء بن لادن أو إبعاده. وتشير بعض المصادر إلى أن انفجار ليلة ٢٤ آب (أغسطس) الماضي (٣ أطنان من المتفجرات) هو من إعداد أعضاء في حركة طالبان تلقوا وعوداً أميركية بالاعتراف الدولي وبالتعاون معهم شرط الخلاص من بن لادن. وهكذا فقد بات من المسلمات عدم قدرة بن لادن على الاستمرار بالإقامة في أفغانستان. ويرجح بعضهم أن افتتاح جبهة داغستان له

جملة أهداف من بينها تـأمين إقامـة بـن لادن. ويقـول آخـرون بـأن الولايات المتحدة، تدفع بن لادن في هذا الاتجاه وتظهر حلاً وحيـداً له. لأنها تريد عزل دول بحر قزوين عن روسيا. كمـا تريـد تحريـك الروس ضد بن لادن كونها تخشى أن يكون الإعـلام الأميركي قـد حوله إلى البطل!

١٩- الإسلام والغرب
بين التعاون والمواجهة
سياسة الاحتواء الغربية الخانقة
تغذي الإسلام السياسي

٢٠٠١/٤/٢٣م

منذ طرح صموئيل هنتنغتون لفرضيته حول (صدام الحضارات) وترشيحه للإسلام كقطب رئيسي في هذا الصدام والطروحات الغربية حول مستقبل الإسلام السياسي تتوالى. خصوصاً بعد إعلان كلينتون عدم تبنيه لهذا الطرح باعتباره لا يعكس الوقائع. ومن الكتابات حول الموضوع كتاب لفريد هاليداي بعنوان (الإسلام والغرب - خرافة المواجهة) يعكس فهماً أعمق لواقع الحال الإسلامي. ويظهر موضوعية تجاه العلاقة بين

الإسلام والغرب. ولكن دون أن يخلو من هفوات جعلته مرفوضاً من الطرفين معاً. وكذلك كتاب بيتر بارنتر المعنون: (إله المعارك - الحروب غير المقدسة) الذي يميل لتبيان تورط الغرب والمخابرات الأميركية خصوصاً في العمليات السوداء في البلاد الإسلامية تحت تغطية دينية. كما ظهرت سلسلة من الكتابات حول أسامة بن لادن. ومن أهمها كتاب يوسف بودانسكي (بن لادن الرجل الذي أعلن الحرب على أميركا)). وفي سيل هذه الكتابات التي تعكس الاهتمام المتنامي بهذا الموضوع يأتي الكتاب موضوع حديثنا ليشير إلى أن التمرد الإسلامي في الجزائر وتحركه في مصر وعقب حرب الخليج الثانية وتناميه داخل الولايات المتحدة وحضوره في النزاعات اليوغسلافية هي كلها عوامل جعلت من موضوع مستقبل الإسلام السياسي مادة حوارية مهمة في الحوارات السياسية الأوربية والأميركية. بل إن الكتاب يؤكد أن هذا المحور (الإسلام) هو أهم المحاور النقاشية في الغرب بعد سقوط الشيوعية. وذلك على المستويات السياسية العسكرية والاستراتيجية. وهنا نجد أن الكتاب يهمل القطب الآخر في صدام الحضارات. عنينا به الصين. حيث من المعروف أن الصين تاريخياً لا تلجأ للمواجهات البعيدة عن تخومها. وأنها تحتوي أعداءها ثم تأمل بامتصاصهم مع الوقت (على حد قول

نيكسون في مذكراته). وعليه فإن عدم بروز الخطر الصيني لا يعني غيابه. وها هي الأحداث تبين مدى الترقب الأميركي للتحركات الصينية الجارية بصمت وتكتم بحيث يستحيل على الولايات المتحدة تحديد القدرة العسكرية الفعلية للصين.

مهما يكن فإن هذه التحركات الإسلامية تجلب أنظار المراقبين الغربيين وتدعوهم لدراسة واقع التأثير الإسلامي ومستقبله. ويمكن اعتبار هذا الكتاب إحدى هذه المحاولات. خصوصاً وأنه يلفت الأنظار إلى نواحٍ متجاهلة في الكتابات السابقة الذكر. حيث يردّ الكتاب إشكالية العلاقة بين الإسلام والغرب إلى تناحر حضاري. حيث بقي الإسلام لحوالي ألف سنة في وضعية التفوق الحضاري على الصعد الثقافية والفكرية والعسكرية والتقنية وبقي كذلك لغاية قبل النهضة الأوربية، التي نازعته السيطرة على حوض المتوسط. وهذا ما يبرر الشعور الإسلامي بوقوع الدول الإسلامية تحت الحصار الأوربي والغربي عامة. ويزداد هذا الشعور في كونه مجلبة للتوجس من الغرب والريبة فيه دعم الغرب الأوربي لقيام إسرائيل على حساب الشرق الإسلامي. وذلك بحيث تأتي التدخلات الغربية في الشرق الأوسط لترسخ مشاعر اضطهاد الغرب للمسلمين.. إلخ من محاولات الكتّاب وربط تطورات علاقة الإسلام بالغرب عبر سلسلة من الأحداث المترابطة تاريخياً.

إلا أننا نقف عند هذا الحد لنتساءل عما إذا كان غياب الخلفية التاريخية للصراع كفيلاً بتحسين العلاقة بين الطرفين؟ فهل يمكن لسكان هذه المنطقة (بغض النظر عن ديانتهم أو مجريات أحداث تاريخهم) أن يغفروا هذه التدخلات الغربية في اقتصادياتهم وثقافتهم وأراضيهم وصراعاتهم مع غزاة خارجيين مدعومين من هذا الغرب؟ وهذه الأسئلة لا تهدف إلى تفريغ التسلسل التاريخي للعلاقة من دلالات. بل هي تهدف إلى منع فكرة الاختباء خلف هذه الأحداث التاريخية لتبرير الاعتداءات الغربية على الحقوق الإسلامية والعربية ومعهما حقوق دول العالم الأخرى والثالث خصوصاً. وعليه فإن الإصرار على عنوان الإسلام (دين) في مقابل الغرب (ثقافة) هو إصرار غير موضوعي. فهذه الانطلاقة الخاطئة كفيلة بردنا إلى فرضية صدام الحضارات. لأنها تحرم مؤلفي الكتاب وقراءهم من استيعاب الفوارق بين الإسلام العربي والإسلام الأميركي (وهو إسلام متعدد المنابع الثقافية. حيث يمتزج الإسلام العربي بالبهائية والقاديانية.. إلخ) عداك عن ما أشار له فريد هاليداي بالقول بأنه لا يوجد إسلام واحد بل هنالك إسلامات عدة. وذلك في إشارة إلى الاختلاف بين التيارات الإسلامية المختلفة.

إلا أننا نعود لنجد أن المؤلفين تمكنا من اجتياز هذه الثغرة الاستقرائية عبر اعتمادها المحاور الرئيسية الآتية:

١ - إن الصراع بين الغرب والإسلام ليس صراعاً دينياً.

٢- إن الغرب كان ولا يزال مسؤولاً عن إذكاء هذا الصراع.

٣- إن الصراعات كثيراً ما تنشب بين أبناء الدين الواحد. مثال ذلك ما تعرضت له المسيحية الشرقية من ظلم المسيحية الغربية. وكذلك حروب الدول المسيحية مع بعضها البعض.

٤- إن العنف ليس صفة لدين ما أو حكراً على أتباعه. وعليه فإن العنف ليس صفة جماعات سياسية - إسلامية فقط. إذ إن هناك جماعات مسيحية وهندوسية تعتمد العنف. (كان من الأولى تعميم صفة العنف على كافة الأصوليات الدينية الارتكاسية بحيث تضم جماعات العنف اليهودية المتطورة بدعم غربي. وحيث يتم تبيان أثر السياسة الغربية في إذكاء هذه الحركات بما فيها الحركات المسيحية الأميركية).

انطلاقاً من هذه المحاور يرد المؤلفان وبحق فرضية الصدام (الإسلامي - الغربي) إلى الاعتقاد بأن التسلط الغربي لا بد له من توليد ردة فعل ما. وفي سياق هذا التفكير يبدو الإسلاميون وكأنهم الأسرع استجابة لمثل هذه الردة - الفعل. إلا أنهما

يتابعان التساؤل عما إذا كان الإسلام فعلاً هو لاعب الدور البديل للاتحاد السوفياتي بحثاً عن المعادلة التي فقدت في غيابه، فأدت إلى التفكير ببديل له. لكننا نلمح في تساؤل الكتاب رفضاً لهذه الفرضية وصولاً إلى طرحه سؤالاً عن أسباب شيوع فكرة ترشيح الإسلام لهذا الدور؟

ويحاول الكتاب تحري أسباب هذا الترشيح فيجدها على النحو الآتي:

١- الصراع الطويل الأمد ذو الطابع الديني.

٢- اندماج الإسلام بعمق (أكثر من أي ديانة أخرى) في مؤسسة ونظام الدولة والمجتمع.

٣- كون الإسلام يمثل ثقافة مستقلة ومختلفة عن الغرب. وهو اختلاف مكّن الإسلام من مواجهة إغارات وانتهاكات التغريب. مما يعطيه المناعة في مواجهة مدّ الأفكار الغربية. وهي مناعة تمثلها الشخصيات السياسية العربية المختلفة.

٤- إن حتمية مواجهة المجتمعات الإسلامية لمتغيرات الراهن العالمي (عولمة نظام السوق والديمقراطية والحقوق) لا تعني عجز المجتمعات الإسلامية عن تعديل وتكييف هذه المتغيرات وفق احتياجات مجتمعاتها.

وهنا يصل الكتاب إلى التقرير بـأن استمرار العلاقـة بـين دول العالم الثالث وتلك المتقدمة يقتضي من الثانية التلاؤم مع المطـالب المحقـة لـلأولى. وإلا كـان التطـرف هـو النتيجـة الطبيعيـة لعـدم الإنصاف اللاحق بالدول الفقيرة. ومـن هـذا المنطلـق فـإن إهمـال مبـدأ الإنصـاف المـؤدي إلى زيـادة الضعـف الاسـتراتيجي للـدول المسـلمة سيفتح البـاب أمـام تنـامي دور الإسـلام في السياسـة الداخلية، للدول المسلمة وهنا تلعـب السيكولوجيا دوراً غايـة في التأثير والتقرير؟ إذ إن هذا الدور المتنامي للإسلام يضعه في علاقـة مع الغرب. هذه العلاقة التـي تتحـدد أطرهـا مـن خـلال الأفكـار المسبقة لكل طرف عن الآخر. لذلك كان من الطبيعي أن يتطـرق الكتاب لبحث ثنائية. صورة الإسلام عنـد الغـرب ومعهـا صـورة الغرب عند المسلمين. وما من شك أن شوائب عديدة تمنـع جـلاء هـاتين الصورتـين وشـفافيتهما. إذ إن كـلاًّ منهمـا متـأثرة بالحقبـة الاستعمارية وباتجاه المصالح. عداك عـن اضطرابـات العلاقـة إبـان فترة الحرب الباردة. وبـالرغم مـن تنـاقض هـاتين الصورتـين فقـد بحث الكتاب عن نقاط التقاء المصالح بـين الطرفـين وسـجلها وإن كانت غير متكافئة ومحدودة. مما قاد الحديث، وبصورة اسـتنتاجية طبيعية عن مدى موضوعية احتمال قيام تجمـع إسـلامي، لمواجهـة الغرب. ومعه جملة أسئلة تتعلق بالمسـلمين المهـاجرين إلى الغـرب.

فهل هم يلعبون دوراً توفيقياً أما إنهم يزيدون من احتمالات الاحتكاك بين الإسلام وبين الغرب؟ وفي رأينا الشخصي أن السؤال ليس بالبراءة التي يبدو فيها ظاهراً. فهو يربط بين تاريخ الاحتكاك ليوحي بخطر المهاجرين المسلمين. وهنا نعود لنذكر مرة أخرى بأن الابتزاز الممارس راهناً لثروات الدول العربية والإسلامية لا يحتاج إلى تاريخ من الصراع. فهو اضطهاد معاش ومعاصر وكاف لوحده (بدون أي خلفية تاريخية) لتوليد الاحتكاك. كما نريد أن نبين أن مصطلح الاحتكاك في هذا السياق لا يملك دلالة الصراع وإنما له دلالة محددة هي استرداد الحقوق والخلاص من الاضطهاد الممارس من وراء أقنعة غير عسكرية أو عسكرية غير مباشرة مجاراة لموضة الحقوق الدارجة. فالمسألة مطروحة من قبل الدول المرشحة لعداء الحرب من منطلق (حوار الحضارات) في حين يعود مصطلح (صدام الحضارات) إلى الغربيين وليس إلى المسلمين. لكن طرح الحوار يعني ويستتبع ضرورة التفاهم والتواصل إلى حلول ترضي الطرفين. وهنا نجد تقصير الكتاب في بحث مسألة مدى استعداد الغرب لمثل هذا التفاهم؟ وإن لم يقصر المؤلفان في عرضهما لانتهاكات الغرب وتدخلاته المعادية. إذ يسرد الكتاب التدخل الأوربي في مصر عام ١٩٥٦م والمسلسل الغربي العدواني الممتد حتى العام ١٩٩٣م

بتوجيه الضربـات العسـكرية للعـراق. دون نسـيان هيمنـة الدعـم الدائم والمبدئي الغربي لإسرائيل. مع إصرار الغرب على الاستمرار في سياسة الاحتواء الخانقة التي تغذي صعـود الإسـلام السياسـي. حتى يخلص المؤلفان للتقرير بأن الإسلام والغرب باتا يعيشان حالة من الحصار المتبادل تقتضي استكشاف القواعد الأساسية لأساليب التعايش العمليـة في نظـام عـالمي جديـد يفـرض التفـاعل المتبـادل. ويرى الكتاب أن هذه المهمة الأساسية لصناع السياسة الآن.

٢٠- ((الحروب غير المقدسة: أفغانستان... أميركا والإرهاب الدولي))

عمليات الولايات المتحدة السوداء في الشرق الأوسط

٢١/١٢/١٩٩٩م

بعد تسع سنين على صدور كتابه ((رد الدين - حروب أميركا الطويلة في الشرق الأوسط)) أصدر الصحفي مراسل شكبة ((آي. بي. سي)) الأميركية - جون كولي كتابه الجديد بعنوان: ((الحروب غير المقدسة: أفغانستان.. Un holy Wars: Afghanistan. America and International Terrorism: John K. cooley.

والكتاب يثير جدلاً مضاعفاً بالمقارنة مع الكتاب السابق، فالكتاب الجديد يعرض للعديد من الأسرار ويقدم دعماً لطروحات وفرضيات عديدة حول علاقة الولايات المتحدة بالإرهاب وبالجريمة المنظمة وحول دورها في الشرق الأوسط وتفاعلات هذا الدور وتجسيداته المعلنة والخفية.

تتوزع محتويات الكتاب على فصول عشرة هي الآتية:

١- كارتر وبريجينيف في وادي القرار.

٢- وأنوار السادات.

٣- وضياء الحق.

٤- ودينغ اكساياوبنغ.

٥- والمجندون والمدربون والمتدربون.

٦- والمتبرعون والمصرفيون والمنتفعون.

٧- وحقول المخدرات وأمراء المخدرات.

٨- وروسيا.

٩- ومصر والمغرب.

١٠- والهجوم على أميركا.

ويعزز المؤلف المعطيات التي يعرضها برسومات وخرائط وملاحق، كانت ضرورية لتوضيح هذه المعطيات وتوجيه القارئ.

ولعل أكثر الأسرار أهمية في الكتاب هي تلك المتعلقة بأنماط علاقات أميركا مع دول المنطقة حيث تطور الانفتاح الذي أرساه الرئيس نيكسون، على الصين لغاية إعلان الرئيس كارتر لها حليفة لأميركا في الصراع الدائر في أفغانستان، ويؤكد المؤلف أن

تعاون البلدين في هذا الصراع كان قد تجسد في عمليات استخباراتية إلكترونية ضد الاتحاد السوفياتي، كما يعرض المؤلف لدور المخابرات الباكستانية (أي. آس. أي) في ضبط وتقنين عمليات تدفق المقاتلين إلى أفغانستان، أيضاً يعرض المؤلف للأدوار التمويلية التي لعبتها دول عربية وإسلامية لدعم الحملة ضد الاتحاد السوفياتي.

وهكذا فإن تحالفات الولايات المتحدة تمكنت تحت إدارة وكالة استخبارات (سي. أي. إيه) من تجنيد ربع مليون مقاتل من جنسيات مختلفة وأمنت لهم التمويل عن طريق هذه التحالفات ولكن أيضاً عن طريق تجارة المخدرات. وهذا التمويل الذي يضع الوكالة موضع شك بإقامة علاقات سوداء مع الجريمة المنظمة وخصوصاً أباطرة المخدرات، حيث يشير كولي إلى اضطلاع ثلاثة لمنطقة (الهلال الذهبي) - (الشهيرة بتصدير المخدرات) وهي: الولايات المتحدة والصين برغبة الولايات المتحدة في توظيف المخدرات كسلاح في الحرب، حيث كان من الطبيعي توكيل (الوكالة) بهذه العملية السوداء، التي أدت إلى تسهيل انتشار الهيروين والحشيش في السوق العالمية.

ولدى تحليله لهذه المعطيات واستقراء مجريات أحداث مابعد العام ١٩٨٩م يجد كولي أن هذه التحالفات قد ورطت الولايات

المتحدة في جملة مآزق منها: اغتيال الرئيس أنور السادات، اختلال الاستقرار في الجزائر، إشاعة عدم الاستقرار في الشيشان، ظهور طالبان على المسرح العسكري والسياسي، تفجير المركز التجاري الدولي في نيويورك، تفجير سفارتي الولايات المتحدة في إفريقيا، وتهديدات الإرهاب الدولي للولايات المتحدة.

ويمكن اختصار مجمل هذه المآزق، أو العواقب الوخيمة كما يسميها المؤلف، بتحول ربع مليون مقاتل من الجبهة الأفغانية إلى جبهات أخرى بعد نهاية الحرب.

لكن قراءة كولي للأحداث هي قراءة خاضعة لمبادئ الرؤية الأميركية الأحادية للمصالح، الأمر الذي يفقد الكتاب الكثير من هيبته ومن الثقة بموضوعيته ومرجعيته، خصوصاً أن كولي لم ينج من مزالق الشطط التي تفضح نقصاً أساسياً في معلومات المؤلف ومرجعيته، مثال ذلك أنه ينسب بعض الحركات إلى ارتباطاتها بأفغانستان.

ولكن ماذا لو حاولنا العودة بهذه الأحداث والأسرار إلى زمنها التاريخي وقرأناها على ضوء زمن حدوثها، وعندها نرى:

أن الولايات المتحدة قد استغلت الصين الشيوعية في إسقاط الاتحاد السوفياتي، كما استغلت دولاً عربية وإسلامية في سبيل

ذلك وفي حين كانت دول عربية وإسلامية أخرى تقيم استراتيجيتها علىأساس التعاون مع الاتحاد السوفياتي ودعمه لها.

أن الولايات المتحدة لم تتخل عن عملياتها السوداء، بل أبدلتها بتوريط الآخرين في هذه العمليات، وهذا ما يفسر شراكتها في سوق المخدرات العالمية (الشرق الأوسط وأميركا اللاتينية وغيرها) كما يفسر اغتيال أنور السادات وضياء الحق وعمليات سوداء أخرى.

أن الولايات المتحدة لاتكتفي بتوريط أصدقائها بل إنها تتخلى عن هؤلاء الأصدقاء تبعاً لمصالحها، فمن الاغتيالات إلى ترك أصدقائها يواجهون مصيرهم بأنفسهم، فمن ضرب السفارة الصينية إلى دورها في حربي الخليج الأولى والثانية مروراً بحروب الجزائر ويوغوسلافيا والشيشان وغيرها التي تبدو نسخاً عن الحرب الأفغانية.

أن سلوك الولايات المتحدة كفيل بتحويل الأصدقاء إلى أعداء، إضافة إلى استعدادها الدائم للتخلي عن أصدقائها بعد توريطهم، وإذا كنا في مجال الحديث عن العواقب الوخيمة لهذا السلوك، فإن سلوك الولايات المتحدة مع دول الاتحاد الأوربي ستكون له

عواقب أكثر وخامة. ولعلنا نطلع يوماً على أسرار توريط هذه الدول في حرب كوسوفو وعلى ردود فعل هذه الدول المرتقبة بعد هذه الورطة، وبعدها ماذا عن ردود فعل الاتحاد الروسي تجاه حرب الشيشان الحالية؟ وما هي أسرار العلاقة بين يلتسين و(الوكالة).

٢١ـ الإسلام والغرب ... خرافة المواجهة

صدام الحضارات واقع أم خرافة؟

((... إن خرافة المواجهة بين الإسلام والغرب، هي خرافة مستديمة من جهتين متناقضتين في الظاهر. من المعسكر الغربي بالدرجة الأولى، ولكن ليس في الغرب حصراً. هذا المعسكر الذي يسعى لتحويل العالم الإسلامي إلى عدو آخر. ومن معسكر أولئك الذين يدعون، من داخل البلدان الإسلامية نفسها، إلى المواجهة مع العالم غير المسلم، وخصوصاً العالم الغربي. وهي تنطوي على محاجة، فهي إذ تنتقد إيديولوجيات من سعوا طويلاً إلى الهيمنة على العالم الإسلامي، فإنها تنتقد أيضاً الكثير مما يحدث بوصفه ردّاً (بديلاً) (محلياً) (أصيلاً) من داخل هذه البلدان نفسها. وبهذا المعنى فإن هذا الكتاب سيجابه بالرفض من قبل المجموعتين على حد سواء)).

هذه الفقرة جزء من المدخل الذي اختاره فريد هاليداي لكتابه ذي العنوان: (**الإسلام والغرب - خرافة المواجهة**) والذي صدرت طبعته العربية عن دار الساقي (بيروت - لندن).

الكتاب يعتمد مبدأ الاستقراء التاريخي للأحداث الشرق أوسطية مع محاولة ربطها بالسياق السياسي العالمي، ابتداء من فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. ويجهد المؤلف للحفاظ على موضوعية طروحاته، وكسب الغطاء المنطقي لها. مما يجعله يتنقل بين محاجات كثيرة، قد يبطئ القارئ في استيعابه لها ولأسلوب قفز المؤلف بينها.

الملاحظة الأولى هي أن هاليداي يرفض مسلمات عديدة. فهو لا يعترف بوجود ما يسمى النظام العالمي الجديد، لأنه يرى أن هذا النظام قد وجد نهايته مع سقوط الاتحاد السوفياتي العام ١٩٩١م، بحيث لم يعد قادراً على التمثل في نظام عالمي. بل هو يعتبر هذا النظام مجرد أسطورة. كما أنه، وبعد أن يفرق بين الإسلام الديني والإسلام السياسي، يجد أن هذا الأخير هو مجرد طرح غير قابل للتنفيذ ومختلف باختلاف الزمان والمكان. بل هو يكاد يجزم بعدم وجود إسلام سياسي واحد. فيؤكد وجود رؤى متعددة يؤكد عجزها عن تقديم الحلول الناجمة للمشاكل الاجتماعية - الاقتصادية التي بررت ظهورها وقبولها في بلدان عديدة.

على أية حال فإن هاليداي يوزع كتابه على فصول سبعة هي:

١- الشرق الأوسط والسياسة الدولية و ٢- الثورة الإيرانية من منظور مقارن و ٣- حرب الخليج الثانية و ٤- خرافة المواجهة بين الإسلام والغرب و ٥- خطر الإسلام أم خطر على الإسلام و ٦- حقوق الإنسان والشرق الأوسط الإسلامي و ٧- معاداة المسلمين والسياسة المعاصرة ثم (الاستشراق ونقاده).

ويبدأ المؤلف بمناقشة الإسلام السياسي، مبتعداً عن الإسلام بمفهومه الديني. معلناً أن مناقشته تتناول طرح الإسلام كنظام سياسي - اجتماعي، فيعلن عدم اعتقاده بجدوى اعتبار الوقائع السياسية - الاجتماعية، التي يصح فيها هذا المصطلح كجزء من ظاهرة واحدة. لأنه يرى أن هذا المصطلح لا يملك دلالة موحدة، أقله على مستوى التحليل السياسي. خصوصاً أن للمصطلح دلالات متغيرة من زمن لآخر ومن مكان لآخر، وتغير هذه الدلالات يجد برهانه في الفروقات الدلالية بين الإسلام العربي (الأموي والعباسي)، وبين الإسلام الفارسي والطوراني وأيضاً بين الحركات الإسلامية المعاصرة، حيث يلاحظ توظيف الرموز والمعتقدات الدينية توظيفات مختلفة.

لكننا نقف هنا للتأكيد على جهود المؤلف للتمسك بموضوعية تحليله ونظرته لتطبيقات الإسلام السياسي. وفي المقابل نسأل عن

اليهودية السياسية والخرافات المؤسسة لها، وأيضاً عن شيزوفرانيا أو تعدد شخصيات هذه اليهودية. والسؤال هنا ليس معترضاً إذا كان المؤلف معتمداً نهج الاستقراء التاريخي. حيث اليهودية تعتبر أن الالتزام بنظامها السياسي - الاجتماعي جزء من الإيمان اليهودي، ولا تقبل التفريق بين يهودية دينية وأخرى سياسية. بل إن مجرد محاولات التفريق قد فشلت في التجربة الإسرائيلية. فهل يجوز أن تقدم تحليلاً للشرق الأوسط السياسي بتجاهل هذه الوقائع؟ خصوصاً أن المؤلف سيتابع هذا التجاهل في حديثه عن خصوصية الشرق الأوسط، فيرى عدم جدوى اعتبار هذه المنطقة إحدى أكثر مناطق العالم تأزماً في حقبة ما بعد ١٩٤٥م. ويقدم لذلك الدلائل بالتذكير بسخونة الشرق الأقصى في الفترة عينها. ويخلص إلى التنبيه مما يمكن أن يسمى (نرجسية إقليمية)، شرق أوسطية، تميل لاعتبار إقليمها متفرداً في دراميته وأهمية أحداثه.

والواقع أنني أوافق المؤلف على استعمال مصطلح (النرجسية) لأن درامية الشرق الأوسط إنما تنبع من الجروح النرجسية، التي حدثت في جغرافية هذه المنطقة غداة الحرب العالمية الأولى. فكان أول هذه الجروح تحطيم حلم الدول العربية، ومن ثم وعد بلفور، واتفاقية سايكس - بيكو، واقتطاع تركيا لقسم من الساحل السوري الشمالي... إلخ من الجروح النرجسية - الجغرافية التي لا

تزال قابلة للتفجير، والتي كان يمكن للمؤلف أن يتابع على ضوئها مناقشة قضايا عديدة لاحقة في كتابه، فبالرغم من هول صراعات الشرق الأقصى، فإنها كانت ملتزمة بإطار إيديولوجي، في حين أن صراعات الشرق الأوسط، هي صراعات ناجمة عن التفكيك القسري للمنطقة. وهي صراعات قابلة للامتداد عبر الأجيال.

من هنا تأتي قابلية صراعات المنطقة للانفجار السريع، ولتغير أنظمتها السياسية، واتجاهاتها، وأيضاً من هنا خروج هذه الصراعات بقدر كبير من التشكيلات الأوسع للسياسة الدولية (كما يقول المؤلف).

ثم يذكر المؤلف خمسة أمثلة (يعتبرها أساسية) على خصوصية الشرق الأوسط وهي: ١- سيادة السلام و ٢- القضية الفلسطينية و ٣- التفاني من أجل الوحدة العربية و ٤- صعود الدول النفطية و ٥- الإرهاب. فيرى أن سيادة الإسلام إنما تعود لفشل التجارب العلمانية في حل الأزمات الاجتماعية - الاقتصادية - الثقافية، مما أفسح المجال لاقتراحات الحل الديني، متجاهلاً مرة أخرى أزمة الانتماء، التي تفسر العوامل الخمسة مجتمعة. حتى أمكن القول: إن صعود التيار الديني إنما جاء لتعويض فخ الانتماء الذي نسجته الجروح النرجسية - الجغرافية المشار إليها أعلاه.

لكن المؤلف يثير في المقابل موضوعاً في غاية الأهمية؛ وهو موضوع العنف داخل الأمة (الشرق أوسطية)، فيرى أن ضحايا هذا العنف هم من السكان المحليين، على عكس الانطباع السائد عن توجه هذا العنف نحو الأوربيين والغربيين إجمالاً. والواقع أن هذا الانطباع قد نجم أساساً عن التضخيم الإعلامي الغربي لحوادث العنف الموجه نحو الغربيين مع تجاهل تام لعنفهم المضاد وللعنف الداخلي. وهذا الأخير يجد تفسيره وتبريره من خلال مرض تعدد الشخصيات (الانتماءات) الناجم عن الجراحات الجغرافية الوحشية، التي لم تجد شفاءها لغاية اليوم، والتي يستطيع التيار الديني وحده أن يقدم وعداً بشفائها يرتبط بالعقيدة.

وينتقل المؤلف للحديث عن الثورة الإيرانية، فيركز على إيديولوجيتها الدينية، ويعتبرها الأولى من نوعها في التاريخ الحديث (منذ العام ١٧٨٩م) فقد كان الدين عماد هذه الثورة، وهيمن على أشكالها التنظيمية وكوادرها القيادية، وأهدافها المعلنة، مما أعطى لهذه الثورة تمايزها ولكنه ألزمها بنظام وضع للقرن السابع الميلادي، وليس لهذا الزمان الحالي. ومن هنا رفض هذه الثورة لأفكار التقديم التاريخي. وعند هذه النقطة نجد ضرورة تذكير المؤلف بإشكالية اليهودية السياسية التي استبقنا طرحها أعلاه. فها هي إسرائيل ترتدي رداءً عصرياً علمانياً، لتعيش واقعاً يعود إلى عدة قرون قبل الميلاد ولا تجد لها ناقداً.

ثم يأتي دور حرب الخليج الثانية، فيرى المؤلف حياد الإسلام فيها رغم وقوعها بين دولتين إسلاميتين. في المقابل يرى أن هذه الحرب قد طرحت للنقاش إشكاليات عديدة في العلاقات الدولية، مثل مسألة السيادة والتدخل في شؤون الغير، وسابقة تدخل الأمم المتحدة في شمال العراق... إلخ. بعد هذه الاستقراءات والعروض المتتالية يصل المؤلف إلى محور كتابته، وهو قضية المواجهة بين الإسلام والغرب (صدام الحضارات). ويبدأ هاليداي بردِّ فكرة وجود صراع كامن مستمر بين الإسلام والغرب، كما يرد فكرة إعادة إحياء هذا الصراع كنتيجة لنهاية الحرب الباردة، إلى طائفة الديماغوجيين (أوربيين وأميركيين). ومع هذه الطائفة بعض المسلمين المحليين، الذين افترضوا أن سقوط الأحزاب التابعة للشيوعية المنهارة ستفسح المجال لصعود أحزاب إسلامية، ستحل مكان البلشفية في تهديدها للغرب وفي عدائه.

ويرى المؤلف أن هذه الأفكار (حول صدام الحضارات) باتت شائعة في الغرب كما في الدول الإسلامية مما يجعل من محاولات وضعها في إطارها الصحيح عملية تتحدى كل الأطراف وقناعاتهم، دون أن يعني ذلك عدم وجود السبل للتعامل مع طائفة طويلة من المسائل المعقدة الموحية بحتمية الصراع إذا لم يتم إيجاد الحلول لها.

وهذا طرح يتسم بالموضوعية وبجدية لا تتأثر بشائعات الفكر التي تكاد تصل إلى حدود المسلمات والبديهيات. فهذا الصراع ظل كامناً طوال قرون، والفراغ الفكري المتخلف عن سقوط الشيوعية غير كاف نظرياً لإعادة إحياء هذا الصراع. وبالتالي فإنه مرشح للكمون لمدة زمنية مقبلة، كما أن الاستقراء التاريخي يثبت أن الصراعات وإن سارت نحو الحروب فإنها نهايتها الخمود. وكان المؤلف قد مهد لهذه الفرضيات بتبيانه أن الإرهاب والصراعات الشرق أوسطية توجهت نحو الداخل وليس نحو الخارج - الآخر... (الغرب). لكن الذي يبقى مسيئاً إلى موضوعية المؤلف وسلامة المنطق عرضه الفكري هو تجاهله لكون إسرائيل رمزاً تجسيدياً للغرب، يتجاوز احتلال الأراضي إلى انتهاك الحرمات الدينية الإسلامية والمسيحية.

وباللجوء إلى تأكيد توزع خارطة القوة العسكرية، يحاول هاليداي، تأكيد عجز الإسلام عن خوض مواجهة متكافئة مع الغرب. فالإمبراطورية العثمانية (الإسلامية) سقطت من العام ١٩١٨م، ولا سبيل لبعث رديف لها. وحتى إذا حصل ذلك فإن القوة العسكرية لن تتكافأ في حل مشاكلها الاجتماعية - الاقتصادية - الثقافية، فوجدت في الإسلام الملجأ والملاذ. أما في الغرب فإن أوربة باتت تخاف من موجات هجرة سكان العالم

الثالث إليها. أما الولايات المتحدة فهي تخشى من ألوان التعددية المقبلة إليها من بلدان العالم الثالث. وهي تعددية لم يعد بإمكان نظام القيم الأميركي استيعابها. فهي تحمل معها تعددية دينية وثقافية ولغوية. وهذا الخوف الأوربي - الأميركي يبطن الرفض الذي يشكل قاعدة انطلاق شائعات صدام الحضارات برأي هاليداي.

خلاصة، هل يتفق القارئ مع فكرة خرافية صدام الحضارات أم يختلف معها؟ في رأينا أن القارئ لا يملك حق الاتفاق أو الاختلاف حول هذا الموضوع؛ لأن هناك حكومات عالمية تعتمد هذه الشائعة وتتصرف على أساسها، بما يوحي بتحويلها من مجرد شائعة إلى واقع عالمي. حتى يبدو وكأن العالم يسير نحو حرب باردة جديدة، حيث لا حساب لكمية الأسلحة بل للقدرة على تحقيق الأذى. العالم الثالث من جهته ليس مذنباً إذا كان يعد ملياراً من المسلمين بين سكانه الذين يحلم بعضهم بهجرة إلى مدن الصفيح الغربية فيمنعون من ذلك.

٢٢ ـ إله المعارك / الحروب المقدسة بين المسيحيين والإسلام

التوظيفات السياسية للدين

١٩٩٨/١/١٧م

إن مراجعة المقولات المستقبلية، والتدقيق بإمكانات تحقيقها، تمر بمراجعة خطوات الاستقراء التاريخي التي تستند إليها هذه المقولات. ولعل أكثر الطروحات المستقبلية إثارة للضجة، الطرح القائل بحتمية صدام الحضارات. بل لعل أهم الأسئلة الداعية إلى إعادة النظر بهذا الطرح، هو السؤال عن الأسباب التي جذبت الاهتمام، المتنامي مثل كرة الثلج، لطرح مستقبلي يتنبّأ بتخلي الإنسانية عن مصالحها التي عقدها التطور، وحولته إلى صدام يرتكز على أساس ديني.

فمن اللافت أن مقالة (هنتنغتون) حول الموضوع لم تتعد الأربع صفحات، لكنها وجدت تربة خصبة لدى الجميع، حتى بدت وكأنها تفجر حقول ألغام العقل الباطن لدى مختلف الجماعات. فكان ذلك أقرب إلى تحليل فرويد لأسباب نجاح قصة (أوديب ملكاً)، حيث رأى فرويد أن نجاحها إنما يعود إلى إثارتها عقدة أوديب لدى المشاهدين.

من محاولات إعادة الاستقراء التاريخي لمقولة (صدام الحضارات) كتاب صادر عن دار نشر لندنية، هي (هاربر كولينز) تحت عنوان: **((إله المعارك - الحروب المقدسة بين المسيحية والإسلام))** **لمؤلفه بيتر بارتنر.**

منذ صفحاته الأولى يركز المؤلف، على استعراض المعتقدات الألوهية الحربية. وهو يتابع هذه المعتقدات، منذ عهد الإغريق، الذين كرسوا (مارس) إلهاً للحرب. في حين اختارت شعوب الأزتيك (كواتزكوتل) إلهاً للمعارك.

أما الأساطير الفارسية فإنها تتكلم عن (ميترا)، في حين تختار البوذية (يامانتاكا) سيداً للحروب. وبالانتقال إلى الديانات السماوية نجد أنها تتكلم عن رب واحد هو رب الكون، دون أن تكون له اختصاصات من بينها الحروب والمعارك. لكن ذلك لا ينفي مفهوم (الحرب المقدسة) لدى أتباع هذه الديانات، سواء هدفت إلى الدفاع عن الأتباع، أو إلى نشر الدين والتبشير به. والحقيقة أن الاستقراء التاريخي لمقولة صدام الحضارات لا يكتمل من دون التوصل إلى

التعريف الدقيق لمفهوم الحرب المقدسة، لدى كل المسيحيين والمسلمين (وأيضاً الكونفوشيوسيين بدورهم بالمقولة).

لكن منهج التأريخ يغلب على الكتاب بحكم كون مؤلفه مؤرخاً نزيهاً، يتجنب صخرة النقاش والتحليل الإيديولوجي لمفهوم الحرب المقدسة. وينتقل، بعد نظرة سريعة خاطفة إلى الفكر الديني، إلى التركيز على الحروب التاريخية التي خاضها كل من المسلمين والمسيحيين تحت شعار الدين. ويذكر بارتنر من هذه الحروب أربع مئة (و عدد المواجهات العسكرية الكبيرة التي يمكن أن تطلق عليها تسمية الحرب).

لكن المؤلف يعود ليصطدم بصخرة تحديد المفهوم التي سبق له تجنبها. ذلك أن كل الحروب التي تم خوضها، منذ تحول الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية وكل الحروب التي خاضتها الدول المسلمة لأكثر من أربعة عشر قرناً، كلها حروب تم خوضها تحت شعار (القدسية). فكيف يمكن تحديد معايير تضبط صفة القدسية في هذه الحروب؟ خصوصاً وأن المقاتلين في هذه الحروب كانوا مؤمنين بقدسيتها، أو أقله كانوا يخوضونها تحت هذا الشعار. وهذا يوضح مدى عدم دقة مصطلحات (الحرب المقدسة) و (الجهاد) وغيرها. بل إنه يوضح أن هذه المصطلحات مستخدمة منذ قرون بصورة عشوائية وفضفاضة. ويزداد غموض هذا

الاستخدام، وعدم جديته عندما يطالعنا التاريخ بالصراعات داخل الدين، التي يذهب ضحاياها تحت هذه الشعارات. فها هي حرب الخليج الأولى توقع ضحايا مسلمين من الطرفين، وصل عددهم إلى عشرة أضعاف قتلى المسلمين في الحروب الصليبية مجتمعة. والأمر ذاته يصح بالنسبة إلى الصراعات المسيحية - المسيحية.

ولا يفوت المؤلف التوقف عند فترة الحروب الصليبية وقفة طويلة يوضح فيها أن تسمية الصليبية لم تطلق على هذه الصراعات إلا بعد نهايتها، وتحديداً منذ القرن الثامن عشر، وهي قد أطلقت من قبل مؤرخين. وهذا لا يمنع أن الدين وشعار الحرب المقدسة كانا عنوانين لهذه الحروب. التي تبدت عن حروب مصالح لا علاقة لها بالدين إلا من حيث مصادفة كون المطامعين من المسيحيين والمطموع بهم من المسلمين. ويكرس التاريخ هذه الوقائع من خلال ما تبين عقب هذه الحروب، من تداخلات أدت إلى مشاركة أتباع ديانة كل منهما مع جيوش الديانة الأخرى، وذلك تحقيقاً للمصالح. ويذكر المؤلف بحالة (رودريجوز) الذي لقب بالسيد، وصارت له مرتبة القديسين في الغرب. وكان في الواقع من المرتزقة، وكان يقاتل لمن يدفع له أكثر. كما هنالك أيضاً مرتزقة مسلمون قاتلوا في الحروب الداخلية المسيحية، بدءاً من القرن الرابع عشر ولغاية الحروب الاستعمارية، (خصوصاً الفرنسية) لغاية الستينيات من هذا القرن.

عند هذا الحد يستخلص المؤلف انضواء الحروب المقدسة تحت معايير الحروب العادية، هي معايير تحددها المصالح المادية والسياسية وليس الدينية. فيوضح بأن الإسلام انتشر بالإقناع وليس بالقوة، ويعطي مثالاً بأن دولاً مثل إندونيسيا ونيجيريا أسلمتا دون أن تبلغهما قوة الإمبراطورية الإسلامية. كما يرى أن استخدام الأسلحة لتنصير أوربة الكافرة (من قبل روما)، لم يكن يهدف باطناً إلاّ إلى فرض مبدأ (السلام الروماني).

وهنا يلامس المؤلف موضوع (صدام الحضارات) عندما يستنتج انعكاس هذه الوقائع في عالم اليوم. فيرى أن الإسلام ينمو ويتوسع اليوم أكثر من بقية الأديان، وذلك من دون توسع إقليمي - عسكري (أي من دون حرب مقدسة).

وهكذا فإن معظم الحروب التاريخية المقدسة لم تكن مقدسة، وهي لا تقبل تبريرها فعلاً باسم (الإله)، ولا يمكن الاقتناع بنظرية القديس أوغسطين حول الحرب العادلة، وكذلك فإن كالفن قد أسقط مبدأ سفك الدماء باسم الله.

بهذا يكون المؤلف قد طرح فكرة تعكس استقراءه لتاريخ الصراعات المقدسة. ومؤداها لا منطقية توظيف الدين في الصراعات لا تعني نفي احتمال نشوبها، خصوصاً وأن الجمهور لا يعي هذه اللامنطقية والعبثية إلا بعد فوات الأوان، والأرجح بعد فترة من نهاية الحرب.

وبالانتقال إلى العنف الديني المعاصر يبدو المؤلف متمكناً ومنصفاً من خلال تجنبه النظرة السطحية لمفهوم (الجهاد) في الإسلام. فهو لا يتعجل، كما يفعل الإعلاميون الغربيون، باعتبار هذا المفهوم مبدأً إسلامياً لإلغاء الآخر. بل إنه يقرر أن الفتن التي تعرض لها الإسلام في بداياته ألغت فكرة الحرب الأهلية (بين المسلمين)، استناداً إلى العقيدة. كما ينقل فكرة إسلامية راسخة قوامها الحرب العادلة على النمط الأوغسطيني.

بعد هذا التوضيح، ينتقل بارتنر إلى ما يشبه الدراسة المفصلة للحركات الراديكالية الإسلامية المعاصرة، التي تعتمد مبدأ (الجهاد)، وتعتبر أعضاءها (جهاديين). فيعرض لمؤسسي هذه الحركات وناشطيها، بدءاً بالإخوان المسلمين والمجاهدين الأفغان وحزب الله في لبنان وجبهة الإنقاذ في الجزائر والجماعة الإسلامية في باكستان وإيران الخمينية... إلخ. ويخلص إلى أن مختلف هذه الحركات تعتمد هيكلية ذات مفاهيم غربية، وذلك على غرار التنظيمات والأحزاب السياسية (وهذا يرشح هذه الحركات لخوض صراعات مقدسة ذات أهداف سياسية).

لكن المؤلف يهمل موضوع الحركات الراديكالية الغربية. وخصوصاً حركة الميليشيات الأميركية المتطرفة، وهي حركات ترفق الديني بالعنصري. فهذه الحركات هي أقدر على تفجير صراعات

ذات طابع قدسي - عرقي، بسبب ظروفها الجغرافية وإمكاناتها العسكرية، الهادفة إلى تحديد أبعاد مستقبلية لـ (صدام الحضارات).

لكن الإنصاف يقتضي التوضيح بأن المؤلف لم يطرح علانية طموح الاستقراء التاريخي لمقولة (صدام الحضارات) وإن كان من البديهي أن كتابه سيصب في هذا الاتجاه. والواقع أن المؤلف تمكن بجدارة، من مرافقة قارئه في جولة تاريخية، لا تخلو من متاهات، ومن تضخم في عدد الأسماء والتواريخ والأرقام، التي تتدفق في الكتاب بشكل يربك القارئ، ويجعله يخلط بينها، إذا لم يكن مطلعاً مسبقاً على الموضوع، وقادراً على تقسيم حقباته. لذلك فإنه قد يحتاج إلى أكثر من قراءة واحدة، كما يحتاج للرجوع إليه لتوضيح بعض الوقائع وفصلها وتصنيفها.

ومهما يكن فإن الكتاب يشير إلى جهوزية المنطلقات الدينية لتغطية صراعات المصالح الراهنة بين الأغنياء وبين الفقراء. وهذا طبعاً وفق الانطباع الشخصي من قراءتي له. فإذا ما تأجل (صدام الحضارات المقدس) فإنه يتأجل ريثما تنقذ الولايات المتحدة تآكل مصالحها (كما يقول هنتنغتون) عن طريق حروب صغيرة، تولد حروباً صغيرة أخرى، ينتج عنها تحقيق المصالح الاقتصادية لأميركا، ومساعدتها لها على توجيه مصالحها باتجاه لا تتآكل فيه هذه المصالح.

٢٣- الأميركيون
يعودون إلى الشرق الأقصى
يحركون الأقليات
لتأكيد ضرورة وجودهم العسكري

٢٠٠٠/٨/٣م

الفيلم أميركي ويحكي عن مهووس جنسي هوسه التحرش بالفتيات في وسائل النقل العامة. حيث تضعه المصادفة أمام فتاة يابانية. يتحرش بها فلاتبدي حراكاً، ولعله ظن في سلوكها موافقة فتمادى في تحرشه! لكن الفتاة الساكنة كانت تحفظ تقاطيعه وشكله لتنقلها إلى جماعتها اليابانية، التي بقيت تطارد المهووس ولاترضى بديلاً عن قتله. أما عن سبب سكوت الفتاة فهو من المكونات الثقافية اليابانية. فكرامتها لاتسمح لها بإظهار نفسها في وضعية المغتصبة! لذلك فإن الانتقام للكرامة هو الجواب وليس الفضيحة.

وهذه الطريقة في التفكير ليست حصراً باليابان بل إنها تبدو مشتركة في ثقافات العرق الأصفر. وفي الفصل المخصص للصين في مذكرات نيكسون نجد تركيزه على أهمية الكرامة عند الصينيين. حتى إنه يقول بأن هؤلاء لو شعروا بالإهانة فلن يكون بالإمكان استرداد صداقتهم عن طريق المساعدات مهما كان حجمها.

ويبدو أن الاستراتيجيين الأميركيين المعاصرين لم يشاهدوا الفيلم ولم يقرؤوا مذكرات نيكسون، وذلك بدليل المواقف الحرجة التي تواجهها القوات الأميركية المرابطة في الشرق الأقصى، وحراجة هذه المواقف وحساسيتها تتضاعف في المجتمعات الصفراء الميسورة، وخصوصاً في اليابان حيث يبدو استمرار وجود القوات الأميركية في ذلك البلد وكأنه من المستحيلات. ومع أن فقر بعض دول المنطقة يخفف من وطأة هذا الوجود ولكن ذلك لايلغي صعوبة استمرارية هذا الوجود، ففي كوريا الجنوبية مثلاً بات الجمهور أكثر تقبلاً للمصالحة مع كوريا الشمالية أكثر من تقبله لوجود ٣٧ ألف جندي أميركي في بلاده.

ولعل نقطة الضعف الرئيسية في الوجود العسكري الأميركي هي إدراك عدم استعداد الجمهور الأميركي لتقديم ضحايا بشرية، وهذا ما تأكد من خلال تجنب الإنزال البري في كوسوفو، وهو تأكد من خلال السلوك التجنبي لإدارة كلينتون والذي تبدى

بتجنب استخدامها لأسلحة ذات ثمن سياسي في كل المواجهات التي خاضتها، بما فيها الغارات على مصنع الأدوية السوداني وقواعد بن لادن، وهذه المعطيات مجتمعة تضعف الثقة في الدور المحتمل، للقوات الأميركية، في الدفاع عن البلدان المضيفة لها.

وهكذا تجتمع تهم انعدام الفاعلية وعدم تقديم ضحايا بشرية أو استخدام أسلحة استراتيجية والحاجة إلى توريط الأصدقاء (ومنهم البلد المضيف) بحيث لايبقى من هذا الوجود سوى الوجوه السلبية لممارسات الجنود الأميركيين في البلدان المضيفة!

ولعل اليابان هي الأكثر حساسية (بسبب غناها) على هذه التصرفات. لذلك نجد من المفيد تقديم بعض النماذج اليابانية في سلوك الجنود الأميركيين، حيث اعتقلت الشرطة اليابانية واحداً من المارينز الأميركي، وعمره ١٩ عاماً، بتهمة اقتحام غرفة نوم فتاة يابانية عمرها ١٤ عاماً وتحرش بها أثناء نومها. وضم أرشيف الشرطة اليابانية آلاف المحاضر المتعلقة بسوء سلوك الجنود الأميركيين ومشاجراتهم وتخطيهم للقوانين للمشاعر الثقافية الوطنية.ومن السجلات هنالك حالة خطف قام بها ثلاثة من الجنود الأميركيين فخطفوا فتاة في الثانية عشرة من عمرها، وكانت هذه الحادثة في العام ١٩٩٥م، لكنها تبدو غير قابلة للنسيان بالرغم من مرور خمسة أعوام على حدوثها.

يبلغ عدد الجنود الأميركيين في اليابان حدود الـ٤٠ ألف جندي يتصرفون بطريقة لاتتناسب مع الثقافة اليابانية واضعين رؤساءهم، وحتى الإدارة الأميركية، في مواقف صعبة وأحياناً مذلة.

من هذه المواقف اضطرار اللواء في المارينز المدعو (إيرل. بي هيلستون) للاعتذار عن تصرفات جنوده إلى حاكم أكيناوا (كيتشي إينامين) بناء على إصرار هذا الأخير على تسلم الاعتذار. ولقد صرح الحاكم كيتشي إلى النيوزويك بأن مشاعر السخط على الجنود الأميركيين منتشرة بين اليابانيين وهي تشبه حمم البركان، فإذا ماحدثت أية حادثة جديدة فإنها ستولد الانفجار! أما (سوزيو تاكازاتو) عضو مجلس أكيناوا فتضيف: هل يعقل ألا تستطيع فتاة صغيرة أن تنام بأمان في بيتها؟ وهذا دليل على ضرورة مغادرة الجنود الأميركيين.

هذا على الصعيد الرسمي، أما علىصعيد الجمهور الآسيومي فإن حركات الاحتجاج الشعبي تزداد اتساعاً، ففي ٢٠/٧/٢٠٠٠م قام خمسة وعشرون ألفاً من اليابانيين شكلوا سلسلة بشرية حول قاعدة (كادينا) وهي أكثر القواعد الأميركية في الشرق الأقصى. أما في البلدان الأخرى فإن حركات الاحتجاج الشعبي أقل تنظيماً لكنها أكثر ضجيجاً وقابلية للتمرد.

ففي كوريا الجنوبية مثلاً اجتمع ١٠٠٠ متظاهر كوري جنوبي أمام السفارة الأميركية في سيؤول (خلال منتصف تموز/يوليو ٢٠٠٠م) وحملوا لافتات من نوع: ((كوريا لم تعد مستعمرتكم.. ارحلوا)) و((أيها اليانكي عد إلى بلادك!)). وهذه الشعارات تعكس جرعة من أعلى جرع العدوانية في مناطق الوجود الأميركي في الشرق الأقصى، وكانت مشاعر الكوريين المعادية لهذا الوجود قد ازدادت عقب الإعلان عن تورط الجيش الأميركي في مذبحة ستوغان ري، حيث قتل المئات إبان الحرب الكورية، وهذا التقرير يترجم اليوم بأن الأميركيين لم يكونوا خلال تلك الحرب سوى حماة لمصلحتهم. وهذا هو تفسير بقائهم حتى اليوم. وهذا ما يطرح المعادلة الخطرة بانتقاء أحد الشرين الأميركي أو الكوري - الشمالي، ويبدو أن الرأي سيستقر على الخيار الثاني، ومن علائم هذا التوجه نتيجة استفتاء أجرته صحيفة يومية كورية هي ((جونغاغ إيليو)) وبين أن ٥٧٪ من الكوريين يريدون خفضاً تدريجياً للوجود الأميركي و١١٪ يريدون إلغاء هذا الوجود كلياً، لكن هذا الاستفتاء جرى بعد قمة الكوريتين، وبمعنى آخر فإن الأمر يختلف في حال وجود تهديد خارجي، ففي حال وجود مثل هذا التهديد فإن الجيش الأميركي هو موضع ترحيب، وجنوده يجدون أمامهم أسواق بغاء لاتضطرهم لارتكاب

جرائم جنسية، ولسنا هنا في مجال مناقشة سياسة الاحتواء الأميركي فحسبنا القول بأن الدول غير المتعرضة لتهديد لا ترحب بالجنود الأميركيين، وهذا يعني أن عليهم أن يقرروا إما الانسحاب وإما خلق توترات جديدة تعيد صفة الضرورة لوجودهم!

ويبدو أن هذه التوترات لن تتأخر، فالتسلح الياباني يثير قلق الصين وكوريا كما أن زيادة القوة الصينية تثير مخاوف اليابان وتايوان والفيليبين. هذا دون أن ننسى دفع الولايات المتحدة للاعب جديد في المنطقة. وهذا اللاعب هو أوستراليا التي دخلت المنطقة من باب (تيمور الشرقية) وهو باب مرشح للتوسع عبر تطبيق سياسة التفتيت العنقودية لأندونيسيا ولدول عديدة في المنطقة، إذ تمكن الاستعمار الأوربي من تحويل الشرق الأقصى إلى مجموعات متنافرة من الأقليات، وهذا التفتيت يتجاوز الانتماء العرقي والوطني. كما حدث في كوريا وفيتنام وتايوان وأندونيسيا وغيرها.

وهكذا فإن الاستراتيجيين الأميركيين لايعلقون كبير أهمية على مدى قبول أو رفض السكان المحليين لوجودهم العسكري، إلا أنهم مهتمون بمعرفة العدو القادم في المنطقة، وهل هو الصين؟ أم كوريا الشمالية؟ وفي كلتا الحالتين يبقى قسم من دول المنطقة

على شعوره بالحاجة للحماية الأميركية ومهما يكن فإن هذه المنطقة ستكون محور اهتمام الرئيس الأميركي المقبل خصوصاً بعد دخول روسيا على الخط وقيام الرئيس بوتين بمحاولات ترميم صداقات الاتحاد السوفياتي السابق في المنطقة، وأخطر هذه المحاولات هي محاولة اجتذاب الصين، وهي محاولة لم تعد تصطدم بخلافات عقائدية وإيديولوجية كما كانت الحال خلال الحرب الباردة (بعد ستالين)، ولعل الاستراتيجيين الأميركيين بحاجة لإعادة قراءة هذه السطور في مذكرات رئيسهم السابق نيكسون إذ يقول: «... إذا فقد الصينيون الثقة بالولايات المتحدة فليس ثمة مساعدة تجارية أو مالية، مهما بلغت قيمتها، من شأنها الإبقاء على العلاقة الصينية - الأميركية سارية المفعول. فإذ ذاك سوف تلجأ الصين إلى نمطها التاريخي في احتواء أعدائها والأمل بامتصاصهم (بمعنى أن الصين تملك الصبر والوقت الكافيين وهي لاتتعجل امتصاص أعدائها. وهذه النظرة تدعمها مراجعة تاريخ علاقة الصين بالآخرين».. ويتابع نيكسون بالقول بأن فقدان الثقة هذا سيدفع بالصين للتحالف مع الاتحاد السوفياتي متجاوزاً كافة الخلافات العقائدية بينهما. الاستراتيجيون الأميركيون مرتاحون لمستوى القبول الذي تتمتع به بلادهم في المنطقة. وفي هذا المجال يصرح رئيس مركز آسيا والمحيط الهادئ للدراسات الأمنية (وهو

جنرال مارينز متقاعد) بأن دولاً عديدة في المنطقة ترحب بالقوات الأميركية باعتبارها درعاً واقياً وحامياً لهـا، مع اعتراف الجنرال بأن وضع المنطقة الراهن أعقـد وأصعب كثيراً منه قبل عـامين. ولكن ألا يخفـي هـذا التصريح خلفـه الحاجـة الأميركيـة المتزايدة للقبول؟ ومعها الرغبة باسترجاع بعض المواقع التي فقدتها في المنطقة؟

لو أننا قبلنا مثل هذا الافتراض فإن استرجاع القواعد الأميركية في الفيليبين سيكون أحد الأولويات الأميركية في المنطقة. ومعه عدم التفريط بأية قاعدة جديدة. وهذا الافتراض من شأنه أن يطرح التساؤل حول مايجري في الفيليبين، حيث تحريك لمشكلات الأقليات وليس اختطاف أبو سياف للسياح بأهمها وإن كان أكثرها ضجة وإحراجاً للحكومة الفيليبينية. فهل يكون ذلك مقدمة لاستعادة القاعدتين ولو بتقسيم الفيليبين؟!

لاشك أن في ذلك بعض المبالغة، فقد ينطوي الأمر على تحريك للأقليات كما في مختلف أنحاء المنطقة، أما عن استعادة القاعدتين فإن الحفاظ على القواعد الموجودة هو الأهم والأجدى، ثم إن مشكلة المارينز ليس في تأمين وجوده ولكن في عجزه عن تقديم ضحايا بشرية، خصوصاً في منطقة تستثير ذكريات كوريا وفيتنام وخسائرهم والعقد الناجمة عنهما.

وكل ذلك لايمنع تصدر الشرق الأقصى للاهتمامات الاستراتيجية الأميركية بعد الاطمئنان إلى النفوذ في القوقاز وفي الشرق الأوسط. وبعد أن تدنت أهمية الحزام الأوراسي، فالشرق الأقصى يضم عدوين مستقبليين يمكنهما متحدين أن يغيرا قواعد اللعبة بأكملها خصوصاً في حال انضمام روسيا إليهما. ومن هنا أهمية البرنامج الأميركي للدفاع ضد الصواريخ الموجهة وحيوية إدخال أوستراليا في اللعبة وأهمية إثارة مشكلات الأقليات وضرورة تدمير اقتصاديات دول تلك المنطقة، فهل يبقى للشرق الأوسط أي حصة في الإدارة الأميركية لخلف كلينتون؟

الجواب عن هذا السؤال رهن برغبة إسرائيل بالمقامرة في تلك المنطقة. وهي رغبة أعلنتها عبر تعزيز علاقاتها مع الصين. ولا يمكن ادعاء المفاجأة عند اكتشاف (صين غيت) على غرار (إيران غيت). ولكن هذه المرة لن يكون الأمر ببساطة بيع الأسلحة إلى إيرانيين. فهذه المنطقة محظورة على إسرائيل وتدخلها في الشرق الأقصى سيكون وخيم العواقب عليها، لكن مشكلة اليهود التاريخية هي أنهم مغامرون جيدون إلا أن ثقتهم الزائدة بقدراتهم تفوت عليهم فرصة الانسحاب في الوقت المناسب.

هل ترتكب إسرائيل خطيئة التدخل في منطقة محظورة عليها أميركياً؟!

وماذا عن دورنا نحن العرب؟ وقد فقدنا وضعية العداء لأميركا حتى باتت مطمئنة إلى مصالحها في بلادنا، فإن نحن استمرينا بتأمين هذا الاطمئنان فإننا سنكون خارج اللعبة، فلو أردنا دخولها فإن علينا خفض مستوى هذا الأمان، وعندها ستكون إسرائيل هي المبادرة لتحريك المشهد الشرق أوسطي كي تستعيد بعضاً من أهميتها، وكل هذا يعني أن علينا فقط أن ننجو من سلام اللحظة الأخيرة ثم نستكين لنشاهد دينامية إعادة توزيع السلطة في العالم علنا نستطيع أن نتموقع فيها وأن نتخذ مكاناً مناسباً لها هذه المرة.

٢٤- الولايات المتحدة
حروب رمزية مقسطة

٨/١٠/١٩٩٩م

في مذكراته يقول الرئيس الأميركي الأسبق (نيكسون): ((لو سألني الأميركيين عن البلد الذي يمكن أن يضمن الرخاء لأولاده لأجبته أوستراليا)). وهذا الجواب يستند إلى معدلات التنمية المتوقعة لهذا البلد الضخم الذي يشكل قارة لوحده. ويمتد على مساحة ٧٦٩٢٠٢٤كلم٢ في حين لايتجاوز عدد سكانه العشرين مليون نسمة (أي بمعدل كثافة ٣أشخاص في كل كلم٢). إضافة إلى ثرواته الطبيعية وارتفاع معدلات استثماره، وهذا البلد بكر سياسياً كما هو بكر جغرافياً، فهو لايزال تابعاً للتاج البريطاني، وعدد سكانه يجعله على هامش سياسة المنطقة المحيطة به.

لكن التوقعات الاقتصادية للمستقبلين الأميركيين تشير إلى تشابه شديد بين أحوال أوستراليا في نهاية القرن العشرين، وبين أحوال الولايات المتحدة آواخر القرن التاسع عشر، لذلك سعى الأميركيون للتمهيد إلى ضم أوستراليا لحلف الناتو عندما بدلوا أهدافه الاستراتيجية وغيروها بصورة جذرية بمناسبة عيده الخمسين.

وبمراجعة هذه التعديلات نجد أن الناتو قد أباح لنفسه التدخل في أي مكان من القارة الأوربية وشمال إفريقية والشرق الأوسط والقوقاز، إن هو وجد فيها تهديداً لمصالح أعضائه، ولقد تجاهلت هذه التعديلات منطقة الشرق الأوسط، وكأنها تتراجع أمام مناطق النفوذ الصيني، أو تتجنب اللعب على تخومه القريبة، ولكن الناتو في المقابل وضع خطة توسع مستقبلية ليضم بين أعضائه دولاً لا علاقة لها بالأطلسي أو بأوربة، وفي طليعتها أوستراليا.

بعد تقاطع هذه المؤشرات لايمكن النظر ببراءة إلى أزمة تيمور الشرقية، ولا إلى الحماسة الأوسترالية غير المسبوقة للتدخل العسكري، وللعب دور من هذا النوع تتولى فيه أوستراليا القيادة! وبمعنى آخر فإن هذا البلد هو الوجه الجديد الذي يلعب دور البطولة المطلقة في أول ظهور له: ومثل هذا الدور لايمكن تهيئته إلا عبر ظروف محددة. منها ما سبق لنا عرضه أعلاه، عن حماسة

الولايات المتحدة لمشاركة هذا البلد في مستقبله ولزرعه في الشرق الأقصى العاصي على أي تدخل أميركي مباشر في الظروف الراهنة.

وقبل متابعة قراءة المؤشرات المتوافرة لابد من التوقف قليلاً لملاحظة وجود الشبه بين أزمتي (كوسوفو) و(تيمور). حيث الولايات المتحدة صاحبة قرار في الحالتين. وحيث الأزمتان ساهمتا في خلق واقع جديد، وشديد الاختلاف عن سابقه، في المناطق الحساسة المحيطة به، فقد كانت أزمة كوسوفو مقدمة لإعادة ترتيب أميركية للقارة الأوربية على أساس حلف جديد (حافظ على اسم الناتو واختلف عنه جذرياً من الناحية الاستراتيجية). فإذا ما توقعنا تغيرات شبيهة في الشرق الأقصى، فإن توقعنا يكون منطقياً، ولايكون في إطار تضخيم مسألة صغيرة (قطعة أرض خاصة باقية لاتتجاوز الست مئة ألف نسمة)، كما لايكون على علاقة بأية نظرية من نظريات المؤامرة، بل إن المسألة ببساطة هي استراتيجية أميركية جديدة تطبق وفق القواعد نفسها في أماكن مختلفة. وهذه الاستراتيجية مجهولة بحيث ينظر إليها بعض المحللين على أنها نوع من الفوضى. وهي جديدة بحيث يصعب رسم ملامح محددة لها! ومع ذلك فإننا نراجع الشكوى الأميركية من العجز عن تحقيق سطوة توازي القوة العسكرية الأميركية، ومعها الرفض الأميركي القاطع لتقديم ضحايا بشرية، وأيضاً وهذا هو الأهم العجز الأميركي عند التعامل مع الواقع

الذي تخلفه حرب ذات مفهوم تقليدي، بدليل العجز عن الخلاص الأميركي من المأزق العراقي.

بعد هذه المراجعة نرى أن الولايات المتحدة قد وجدت الحل بإشعال حروب رمزية، بمعنى الحروب المحدودة مساحة وموضوعاً وبمجموعات متورطة فيها، ولو أخذنا (كوسوفو) مثالاً على الحرب الرمزية لوجدنا أنها أتاحت للولايات المتحدة الاستخدام الفاعل لتفوقها العسكري، كما أتاحت لها ردع الدول المناوئة المحتملة وابتزازها بنقاط ضغطها، وأخيراً فإن الحرب الرمزية هذه أتاحت لأميركا فرصة إعادة ترتيب القارة الأوربية وإعادة إحياء حلف الناتو وتسخيره لخدمة مصالحها، ثم أخيراً فقد أتاحت حرب كوسوفو (الرمزية) للولايات المتحدة تحقيق نصر عسكري دون أن تضطر لإعلان الحرب. ومن هنا الإصرار الأميركي على تجنب الإنزال البري كونه يعني إعلان الحرب.

وبالانتقال إلى تيمور نجد أن الولايات المتحدة قد أتقنت لعبة الحرب الرمزية مستفيدة من تجاربها السابقة، فهي لم تنح الأمم المتحدة بل جعلتها في مركز اللوحة، وهي لم تتورط بأي نوع من أنواع التدخل المباشر، بل إنها لم تضطر حتى لاستخدام قوتها العسكرية، بل اكتفت بمجرد التهديد فيها، فكانت النتيجة نصراً لا سابق له، تجلى أكثر ما تجلى بالنقاط الآتية:

١- سلخ أقلية قوامها ست مئة ألف شخص عن دولة يتعدى تعداد سكانها ٢١٠ ملايين نسمة، مما يعني إمكانية التفتيت العنقودي للعالم بأسره، إذ لا توجد أية دولة فيه تخلو من أقلية نسبتها واحد إلى أربع مئة من عدد السكان (راجع مقالتنا في الكفاح العربي - البوسنة وكوسوفو والبقية تأتي).

٢- أدخلت أوستراليا المسرح السياسي - العسكري العالمي من أوسع أبوابه، كمقدمة لتأهيلها لدور مستقبلي فائق الطموح.

٣- إعادة الاعتبار إلى الدولة الاستعمارية السابقة لأندونيسيا وهي البرتغال، التي سجلت عودة حالمة إلى المنطقة، ولعلها مثال على مكافآت الناتو الجديد.

٤- تفعيل دور القروض الاقتصادية في تحقيق الانتصارات السياسية ودعم الحروب الرمزية (حيث تمت مساومة أندونيسيا على قرض بقيمة ٧٠ مليار دولار).

٥- التأسيس لفرع آسيوي لحلف الناتو الأميركي، وزرع مناطق قابلة للتفجير المستقبلي وصالحة للاستخدام كذريعة لإنشاء قواعد عسكرية واقتصادية تتحكم في المنطقة.

٦- تشجيع التنين الصيني على الرجوع إلى سيرته الأولى بالانغلاق على نفسه وعدم التدخل بما يجري حوله، باستثناء تخومه المباشرة.

عند هذا الحد لابد لنا من الاعتراف بعبقرية الحرب الرمزية، فهي الحل الذي أتاح للولايات المتحدة التمتع بسطوة توازي قوتها العسكرية ولا تتعارض مع رغبته بعدم التورط بحروب ذات مفهوم تقليدي وضحايا ونتائج إنسانية مترتبة عليها، الأمر الذي يجعلنا نستعجل السؤال عن ملعب التنس (أي الرقعة المحدودة) للحروب الرمزية المقبلة؟

الفصل الرابع

الفوضى في السياسة الأميركية

٢٥- اللوبي اليهودي
و انبثاق الفوضى الأميركية

١٩/١/٢٠٠١م

كانت كثافة الحضور اليهودي في إدارة كلينتون الثانية مصدراً من مصادر الانتقاد الأساسية لهذه الإدارة. وهذه الانتقادات لاتستند إلى معاداة السامية، وإن كانت ترهب إلصاق هذه التهمة بها. فالمسألة ببساطة هي وجود جماعات ضغط صاحبة مصالح تتعارض ومصالح التحالفات التي يقيمها اللوبي اليهودي. الأسوأ من ذلك أن كلينتون نفسه كان متضايقاً من يهود فريقه. بل هو كان يخشى مواجهتهم. فهو ينتمي إلى قالب سلوكي (منفعل-

إيجابي) يحدده عالم الشخصيات الأميركي باربر على أنه لا يواجه، بل يعتمد على المداورة وقدرته و مرونته في الحوار. كما أنه يقع دائماً ضحية أصدقائه القدامى الذين يجلبون له العار. وكان اليهود هم أولئك الأصدقاء القدامى الذين دعموه في حملته الثانية فتحمل العار الذي جلبوه له على غرار ما يفعل المنفعل- الإيجابي.

وهنا يجب ألا ننسى أن عار مونيكا كان من صناعة يهودية، وهي نفسها يهودية. و تضاعف هذا العار من خلال تصريح الرئيس الروسي السابق يلتسين في (مذكراته) المنشورة منذ بضعة أشهر، حيث يعلن بأنه حذر كلينتون شخصياً من أن الجمهوريين قد زرعوا له متدربة اسمها مونيكا للإيقاع به، لكنه لم يرتدع!. وقصة مونيكا مثيرة للاستغراب، لأن رؤساء عديدين كانوا يقومون بمغامرات عاطفية خارج - زوجية، ولم يلاحقوا على النحو الذي لوحق به كلينتون. مما يؤكد على أن الموضوع يتخطى الفضيحة الأخلاقية إلى أخرى سياسية. ولقد ظهرت المرارة واضحة لدى كلينتون في مقابلته الأخيرة مع الصحافي الأميركي هارولد إيفانز وهي من نوع مقابلات التلميع الوداعية. إلا أن العار الأكبر جلبته له المدعوة أولبرايت التي تحالفت مع هيلاري ضد العديد من أصدقاء كلينتون المقربين[1] وتقربت

(١) راجع عرض كتاب أولبرايت، في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

منها، حتى باتت وكأنها حماة غير عاقلة لكلينتون. الذي كان يرغب بإسناد وزارة الخارجية مثلاً لريتشارد هولبروك، لكنه و بتاثير من هيلاري، و اللوبي اليهودي اضطر لتعيين أولبرايت في هذا المنصب، فكانت الكوارث المتلاحقة التي قضت مضجع الرئيس طيلة هذه الفترة. فبمجرد تعيينها شعر العرب بتحدٍ كبير نظراً لقيادة يهودية لمباحثات السلام خصوصاً بعد استبعاد الأطراف الدولية الأخرى. و هي أضافت إلى ذلك الإصرار على إقصاء بطرس غالي من رئاسة الأمم المتحدة وعدم التجديد له[1] مع ما في ذلك من تحدٍ لمصر وللدول العربية الصديقة الأخرى.

١- اليهود يجلبون العار لكلينتون

وإذا أردنا إعطاء مثال عملي على حجم العار الذي جلبه اليهود لكلينتون علينا أن نراجع تصريحات الوزراء اليهود في تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ١٩٩٨م، وخصوصاً كوهين وأولبرايت. حيث تؤكد هذه التصريحات على النية الأميركية بتوجيه ضربة قاصمة للعراق. ويزداد هذا العار مع تزامن هذه التصريحات مع تسريبات إسرائيلية حول استعداد إسرائيل لتنفيذ عملية كوماندوس لاغتيال الرئيس العراقي. الأمر الذي أحرج

(١) راجع عرض كتاب غالي ٥ سنوات في البيت الزجاجي، في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

كلينتون، ومعه كافة الدول العربية. إذ لم توافق أية دولة منها، وتحت أية ظروف على تغيير رئيس عربي بقوة خارجية، فما بالك باغتياله العلني. وتحديداً في الفترة التي يتم البحث فيها عربياً لإيجاد مخرج لأزمة تجاهلتها الإدارة الأميركية عن عمد. في حينه، تخلص كلينتون من هذا المأزق اليهودي المدبر عن طريق طلب مشورة الكونغرس، بل وطلب نصح زعمائه بما يوحي بعدم رغبته بتوجيه الضربة. ليعود فيستبدلها بضربة محدودة من دون ثمن سياسي، ولكن بشعار، يذكر بالعمليات الكبيرة هو (ثعلب الصحراء).

وهكذا عندما بدأ الحديث عن الترشيحات الرئاسية كان هم كلينتون إرضاء هيلاري، و تشجيع طموحها السياسي، حتى يظهر لها فعاليته ونفعه لها، ويضمن أو يحتاط لعدم طلاقها له فور انتهاء ولايته. مما يعني حاجته الماسة لاسترضاء اليهود، ويهود نيويورك خصوصاً. لذلك لم تعد لدى كلينتون القوة لدعم أصدقائه الديموقراطيين المؤهلين لخوض المعركة. فاستسلم للخيار اليهودي آل غور الذي اختاره اليهود نائباً للرئيس، مع طموح ترشيحه لاحقاً بسبب ولاء أسرته التاريخي لليهود. وهكذا اختار الديموقراطيون أسوأ مرشح لديهم بعد حملة يهودية شعواء لاستبعاد بيل برادلي. و توالت ظروف الانتخابات، وكان

واضحاً أن هم الرئيس إنما ينحصر بالعمل لصالح زوجته، وضمان فوزها بمقعد نيويورك. ولقد لعب الحظ لعبته إذ انسحب المرشح الجمهوري المنافس لها بسبب مرضه. ولم تكن لتفوز لولا هذه الصدفة.

مع بداية الحملة بدا و كأن الجمهوريين يدفعون بأفضل ما لديهم، في حين يدفع الديموقراطيون بأسوأ ما لديهم. لكن هذا الانطباع لم يدم طويلاً، إذ بدأ بالتراجع مع أولى المقابلات التلفزيونية. التي أظهرت سلبية كلا المرشحين وبهتانهما. بحيث بات المعلقون يحصون عدد النقاط التي يخسرها كل منهما بعد ظهوره التلفزيوني. وباتت الغلبة لمن يخسر أقل، وليس لمن يربح أكثر.

حتى بدت المعركة باردة و مملة، وهي لم تكن لتجذب نصف العدد الفعلي من الناخبين، لولا التحضيرات المسبقة لها. فقد تعلم الجمهوريون من تجربة فشل بوش الأب فعملوا على تحريك أكبر نسبة ممكنة من الناخبين المحافظين، البروتستانت تحديداً، ونجحوا في ذلك أي نجاح. أما الديموقراطيون فقد قبلوا ترشيح اليهودي ليبرمان في حركة يائسة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. في محاولة إيحائية للأقليات كي تتحرك لكسر الاحتكار البروتستانتي – الأبيض لهذه المناصب. ومع ذلك بقيت المعركة باردة–باهتة لغاية بداية معركة الفرز!.

معركة الفرز هذه كانت صناعة يهودية صرفة. وقبل الاطلاع على الدور اليهودي فيها، لا بد لنا من مراجعة الموقف اليهودي من مجريات الانتخابات عموماً. فقد كان اليهود يريدون مرشحاً قابلاً للتحويل إلى يمين الوسط، وهي قابلية يمثلها غور بامتياز. إلا أنهم فوجئوا بحجم الاستعداد الجمهوري للانتخابات، وبمباشرة تدخل قوى الضغط في دعم حملة بوش. لذلك تردد العديد منهم بقبول ترشيح ليبرمان كنائب رئيس. لكن الترشيح أقر في النهاية، من منطلق أن ضعف غور يبرر فشل ليبرمان ويعظم فوزه!. وهكذا فإن النتيجة لم تكن مفاجئة، وهي فوز بوش مدعوماً بقوى الضغط الأكثر فعالية. ولقد حدث مثل هذا التقارب في النتائج مرات عديدة في الانتخابات الأميركية، وكان المرشح الخاسر يتقبل خسارته بروح رياضية. هذا ما حصل عندما خسر نيكسون أمام كينيدي - الكاثوليكي السابقة التي كان يمكنها أن تحشد البروتستانت المحافظين. كما حصل ذلك في كل مرة يخسر فيها مرشح ما بفارق ضئيل. و هذا ما دفع بالجميع إلى التساؤل عن سبب كل هذه الضجة!؟.

٢ - اللوبي اليهودي يصطنع الأزمة

إن ما حدث من إرباك يعود إلى أسطورة يهودية هي أسطورة (الماسادا)، التي يجهلها غور. لذلك عمد للاتصال ببوش وتهنئته،

كما يجب أن يحصل في مثل هـذه الحـالات. إلا أن مكالمة هاتفيـة يهودية روت لغـور حكايـة الماسـادا، فـتراجع عـن التهنئـة، ليبـدأ حملات الاعتراض.

و(الماسادا) هي أسطورة يهودية. حيث الكلمـة بالعبريـة تعنـي الحصن أو القلعة. وتقول الأسطورة: إن جماعة من اليهـود هربـت من القدس بعـد سقوطها في يد الرومان عام ٧٠ ميلادية، ولجأت إلى الحصن (الماسادا) حيـث استمرت في مقاومـة الرومـان ثـلاث سنوات. وعندما أيقنت الجماعة خسارتها عمد جميع أعضائها إلى الانتحار كي يحفظوا كرامتهم. فالموت عند اليهودي أهون من أن يذل - هكذا تقول الأسطورة.

أما الحقيقة فقـد كشفتها البحوث الآثاريـة (الآركيولوجيـة) و نشـرها أحـد المؤرخـين الإسـرائيليين الجـدد. وتقـول الحقيقـة: إن سكان الماسادا كانـوا من قطاع الطرق الإرهابيين الذين يرهبـون حتى اليهـود. وهم لم يفروا مـن القـدس، لأنهـم لـم يكونـوا مـن سكانها أصلاً. وهم انتحروا لأنهم علموا أن الرومـان سيقتلونهم بسبب جرائمهم.

إلا أن اليهود لا يزالون مصرين على هذه الأسطورة كما علـى غيرهـا، ومـن هنـا كـان قرارهـم بعـدم الاستسـلام!. وعلـى هـذا

الأساس قرروا خوض المعركة حتى نهايتها. فكانت البداية بأنهم طلبوا من غور سحب اعترافه بالهزيمة. وذلك وفقاً للسيناريو التالي:

١- يتلقى غور رسالة من مديرة حملته الانتخابية (دونا برازيل)، تخبره فيها بأن الأمر لم يحسم بعد. وذلك استناداً إلى رأي مدعي عامّ ولاية فلوريدا، بوب بتروورث - ديموقراطي.

٢- العمل على تضييق الفارق في الأصوات الشعبية إلى ما دون النصف في المئة. وعندها يسمح قانون الولاية بطلب إعادة الفرز.

٣- إعلان نائب فلوريدا اليهودي روبرت ويكفلر أن ثلاثة آلاف يهودي قد صوتوا خطأً لصالح بوكانان، يلقب بـ (هتلر الأميركي) وذلك بسبب تعقيد البطاقة الانتخابية. مطالباً بإلغاء أصوات منطقة (بوكاراتون) التي حصل فيها هذا الخطأ.

٤- قام عدد من سكان بوكاراتون، بإيحاء من ليبرمان بتقديم دعاوى مستعجلة لإبطال نتائج منطقتهم. وسرعان ما ألغيت فعلاً هذه النتائج. مما أدى إلى تدني فارق الأصوات إلى ما دون النصف في المئة، وبدأت المطالبة بإعادة الفرز الإلكتروني.

٥- بعد يوم واحد من نشوب الجدل حول النتائج قام الديموقراطيون بجمع ثلاثة ملايين دولار لتغطية تكاليف رحلة الاعتراض.

٦- بدء حملة شائعات منظمة توحي بتأخير طويل لظهور النتائج، إيحاء بحدة التقارب وتغطية لشراسة الاعتراض، وبجدية آمال غور بالفوز - كلها إيحاءات كاذبة كما سيظهر لاحقاً.

٧- ايحاء غور بضرورة انتظار نتائج التصويت من المقيمين في الخارج. مترافقاً مع شائعة وجود أصوات إسرائيلية - أميركية مرجحة لفوز غور.

٨- الاستعداد للمطالبة بإعادة الفرز يدوياً، واستنفار فريق من كبار المحامين لخوض المعركة القانونية، وعلى رأسهم وارين كريستوفر وزير الخارجية السابق.

و لكن وبالرغم من كل هذه الجهود، هل كان فريق غور مؤمناً فعلاً باحتمالات فوزه بعد افتعاله لكل هذه المشاكل؟.

إن الثقة بهذا الفريق، وبخبرته تدفع المراقب إلى التأكيد على عدم إيمانهم بمثل هذه الاحتمالات، وهم إذ خاضوها فذلك لجملة دوافع وأسباب، قد تختلف من عضو في الفريق الآخر لتصب في خانة الاستجابة لرغبة ليبرمان واللوبي اليهودي من خلفه، للتصرف وفق قواعد الماسادا!. وتنغيص فوز الجمهوريين.

٣ – فوز بوش المؤكد

أما عن أسباب انعدام حظوظ هذه الاحتمالات فهي تعود إلى القانون الانتخابي نفسه. دون أن يعني ذلك فشل المحامين الديموقراطيين في استغلال ثغرات هذا القانون، وإبرازها بما يجعل من تعديل هذا القانون ضرورة مستقبلية ملحة. ففي حالة التنافس بوش/غور يقدم القانون الأميركي الاحتمالات التالية:

١- إعلان فوز بوش رسمياً، ورفض الاعتراضات المقدمة بسبب عدم جديتها.

٢- قبول إعادة الفرز، مما كان سيؤخر نتائج فلوريدا إلى ما بعد ١٨ كانون الأول (ديسمبر) موعد اجتماع الكونغرس لتثبيت انتخاب الرئيس. وفي هذه الحالة يتقدم غور بمجموع ٢٦٧ صوتاً من الكلية الانتخابية مقابل ٢٤٦ لبوش. لكن ذلك سيعني إلغاء انتخابات فلوريدا!. كما أنه سيعني تخطي مبدأ ضرورة الحصول على ٢٧٠ صوتاً كحد أدنى. لذلك ينص القانون على أن يتحول الانتخاب إلى مجلس النواب، حيث لكل ولاية صوت واحد. وفي هذه الحالة أيضاً يضمن بوش الفوز لكونه يضمن أصوات ٢٨ ولاية. بما فيها ولاية تكساس، التي حكمها كلينتون، و تينيسي (التي حكمها غور).

٣- أن يصدر الأمر إلى جيب بوش بوصفه حاكم فلوريدا، وفقط في حال تفوق غور في الأصوات الشعبية لتعيين مندوبين موالين لغور. الأمر الذي كان سيجعل لفلوريدا كليتين انتخابيتين. مما سيطرح التصويت في الكونغرس لتحديد أيّ منهما هي الشرعية، وبالنظر إلى تساوي النفوذ في الكونغرس، فقد كان من المحتمل العودة إلى قرار حاكم الولاية جيب بوش. و هذا كان أمل غور الوحيد بالفوز. لكن هذا الأمل بدوره لم يكن جدياً. ذلك أن جيب كان قد أعلن في مؤتمر صحفي تنحيه عن القيام بأي دور في عمليات إعادة الفرز، من أجل الحفاظ على هيبة واحترام ونزاهة ناخب فلوريدا. وهو بذلك تجنب تهمة الانحياز لأخيه وغازل الناخبين بلباقة، وكذلك مهد للاعتراض على أمر تعيين كلية انتخابية ديموقراطية.

٤- احتمال مستبعد تماماً، لكننا نذكره بسبب مطالبة محامي غور به. أو تلويحهم بهذه المطالبة. وهو احتمال إعادة الانتخابات في ولاية فلوريدا. على أن يحق الاقتراع فقط لمن اقترعوا في الدورة الأولى. ولكن حتى لو حدث ذلك، فإن بوش كان سيحظى بالأصوات الديموقراطية الغاضبة من تحول غور إلى يمين الوسط، إضافة إلى أولئك الذين أعلنوا أن النظام أهم من شخص الرئيس وحزبه. دون أن ننسى أولئك المتعاطفين مع

بوش، بصفته ضحية اللوبي اليهودي. الذي يحاول تكرار ما فعله مع بوش الأب.

و هكذا تجتمع المعطيات والمؤشرات، لتبرهن أن كل هذه الأزمة كانت من صناعة اللوبي اليهودي، مع توريطه لغلاة الديموقراطيين فيها. فقد كان فوز غور مستحيلاً بالرغم من كل الجهود المشروعة وغير المشروعة التي وظفت لحسابه. ومن بينها اختيار وليم دبللي مديراً لحملته الانتخابية. وديللي هو ابن ديللي مدير حملة كينيدي قبل ٤٠ سنة. الذي لاتزال تروى حوله الروايات عن مساهمته في إنجاح كينيدي عن طريق إدخاله للمافيا، لدعم كينيدي، وأيضاً عن طريق استغلال الأخطاء، التزوير بالتعبير الأميركي. ولكن ماذا عن الآثار السلبية لهذه المكابرة اليهودية. التي دفعت باللوبي اليهودي إلى خوض معركة استعراضية من دون أمل؟

٤ – عقابيل المكابرة اليهودية

أما وقد استعرض اللوبي اليهودي الأميركي جبروته وقدرته على إثارة مشاكل حقيقية، فإن السؤال يطرح عن الآثار الجانبية لهذه المكابرة. وهي آثار قد لاتظهر مباشرة. فأغلب الظن أن هذه المكابرة لم تنته بعد. بل هي ستستمر بصورة ابتزازية تحاول

الحصول على أكبر المكاسب الممكنة عبر التهديدات اللاحقة بإثارة المشاكل في وجه الرئيس الجديد. الذي لم يعد قادراً على تجاهل النفوذ اليهودي وقدرته. وبالمقارنة مع سابقه نيكسون نجد أن اليهود كانوا سبب خسارته أمام كينيدي، ثم عادوا وصوتوا ضده في الدورة التي فاز فيها، ومع ذلك فقد كانت أول معونة مالية أميركية كبيرة لإسرائيل من تقديم نيكسون.

و لكن هل يمكن أن تمر معركة بمثل هذه الضراوة من دون خسائر؟ وما هذه الخسائر؟ أو ما الظاهر منها على السطح لغاية الآن؟

لقد دفعت المنافسة الحادة – المكابرة إلى تضييق هامش الفوز، فتحول إلى أدنى فارق في تاريخ الانتخابات الأميركية. وكان ذلك أحد أهم الخسائر اليهودية. إذ أوحى للأقليات بقدرتها على الفعل، وعلى التأثير في مجرى الانتخابات. بل لعلها المرة الأولى التي يتنافس فيها مرشحون لكسب الصوت العربي – الأميركي. فقد اجتمع كل من بوش و غور مع ممثلين عن الجالية العربية، لإقناعهم بالتصويت لهم. وهذه السابقة سيكون لها أثرها في عمل الجالية العربية على تنظيم نفسها استعداداً للانتخابات القادمة. ومثلها جاليات أخرى كانت تشعر بالعجز و بانعدام القدرة على التأثير.

الخسارة الثانية تمثلت بخسارة اللوبي اليهودي لتيارات المسيحية الأصولية التي سبقت الصهيونية بالمطالبة بإقامة إسرائيل. فهذه التيارات تعد إقامة اليهود في الولايات المتحدة مؤقتة بانتظار عودتهم إلى إسرائيل، تمهيداً لظهور المسيح . لذلك استنكرت هذه التيارات ترشيح يهودي لمنصب نائب الرئيس، لأن ذلك يعني توطين اليهود في أميركا، وإعاقة ظهور المسيح.

إن شراسة المعركة التي خاضها اللوبي اليهودي لاتتناسب ونمط المعارك بين الحزبين التي تتسم عادة بالروح الرياضية. وبالتسليم بالنتائج صيانة للنظام الأميركي. حيث ينظر الأميركيون إلى دستورهم على أنه إنجيل جديد. لذلك يمكن التأكيد على أن الجمهور الديموقراطي لم يكن راضياً عن هذه المكابرة. وهو كان يلمح النمط اليهودي فيها. ونحن في غنى عن القول: إن الديموقراطيين يرفضون تحويل زعامة حزبهم وقراراته إلى يهودية. وإن كانوا يقبلون اليهود، وأقليات عديدة أخرى في إطار ليبيرالي ليس إلا!.

لقد خاض بوش الأب هذه الانتخابات على أنها معركة حياته. وهو مدرك تمام الإدراك لدور الصوت اليهودي في إسقاطه أمام كلينتون. لذلك فهو أعد للمعركة انطلاقاً من مسلمة العداء

اليهودي لمعركة ابنه. وهو في المقابل حرك وجيش قوى الضغط الأميركية المحافظة لهذه المعركة. وكان من أهم أهدافه مواجهة الصوت اليهودي بتحريك الصوت الأميركي. وكان له ما أراد، إذ كانت نسبة اقتراع الأميركيين من أعلى النسب في تاريخ الانتخابات الأميركية. مما نزع عن الصوت اليهودي خاصيته، (يتخذ الصوت اليهودي أهمية مضاعفة بسبب إقبال نسبة كبيرة من اليهود على الاقتراع، في حين يظهر الأميركيون عادة نوعاً من اللامبالاة الانتخابية، وتكون نسبة اقتراعهم متدنية). و هذه الوقائع تضع اليهود في موقع العداء لعدد أكبر من الأميركين، وتستثير ضدهم قوى الضغط الفاعلة المؤيدة لبوش، مما سوف ينعكس على المصالح الشخصية لليهود. وهذا من شأنه أن يتسبب بعثرة الصوت اليهودي لاحقاً. ولقد أدرك قسم من اليهود هذه الوقائع، فعارضوا بشدة ترشيح يهودي لمنصب نائب الرئيس[1].

ويبقى السؤال عن أداء الرئيس الجديد؟ و هو سؤال يحاول العديدون البحث عن إجابات مقنعة عنه. فأما عن التنبؤ بأدائه الشخصي، فيمكن استنتاجه عبر تحليل نفسي لنمطه السلوكي (فاعل- سلبي)، وأيضاً لما هو متاح عن ماضيه و عن سلوكه أثناء

---

(١) راجع استفتاء مجلة نيوزويك بهذا الصدد.

الانتخابات. وكذلك يمكن تبين علائم مواقفه السياسية عبر تحليل مواقف الأب، ستكون له فاعلية من الدرجة الأولى والتوجه الجمهوري العام بالنسبة إلى القضايا المطروحة.

لكن ما لا يمكن التنبؤ به هو عنصر المفاجأة! فالولايات المتحدة مقبلة على سنوات صاخبة، بل شديدة الصخب. لذلك فإن بوش قد يجد نفسه في مواجهة قرارات شبيهة بتلك التي اتخذها ريغان مع ما تطلبته تلك المرحلة من مطالب متناقضة. لكن الفوارق بين ريغان و بوش (منفعل/فاعل) قد تحمل في طياتها مفاجآت عديدة غير متوقعة!

٢٦- المصالح الأميركية
وتقسيط الحرب في ثعلب الصحراء

٩/٢/١٩٩٩م

عندما أعلنت الولايات المتحدة عن عقد أول مؤتمر فلسفي أميركي قهقه الأكاديميون الألمان ضحكاً، لاعتبارهم الخبر فكاهة ظريفة. فالمتفلسفيون الأوروبيون لم يكونوا قادرين على تخيل إمكانية إنتاج فكر فلسفي من قبل المهاجرين الأوروبيين إلى أميركا، الذين أضيف إليهم لاحقاً المهاجرون اليهود الهاربون من أوروبا، وبعضهم كان من أكاديميي الدرجة الأولى. ومع ذلك فإن الأمر لايزال يبدو وكأنه نكتة. فقد اضطر الأميركيون لإعلان نهاية الإيديولوجيات قبل أن يعمدوا إلى تسويق أفكارهم التي لم يتمكنوا من الرقي بها إلى مصاف الإيديولوجية. وذلك لجملة

أسباب يأتي في طليعتها عدم قابلية هذه الأفكار للتعميم. فهي مع تطبيقاتها تتغير بتغير المصالح وميادين التطبيق.

ولعلنا بحاجة هنا إلى إعطاء بعض الأمثلة المعيوشة على ذلك. ونختارها من حدث طازج هو (ثعلب الصحراء)، تلك العملية التي تستدعي جملة أسئلة يمكن لإثارتها ولأجوبتها المتوقعة أن تعطي لمحة معبرة عن نمط التفكير الأميركي، من هذه الأسئلة:

١- **الحرب بالتقسيط**: كانت تكنولوجيا الحرب الأميركية قادرة على تحقيق النتائج التي حصلت عليها من خلال ساعة واحدة من القصف المركز. فلماذا توزع الضربة على أربع ليال؟ ثم لماذا كانت هذه الحرب ليلية؟ وهذه الأسئلة تستدعي أخرى، حيث كانت كل مراحل الحرب العراقية مقسطة. وكانت كل مرحلة تنتهي على وعد الاستئناف لاحقاً. وهذا يستتبع السؤال عن الهدف من تقسيط هذه الحرب.

٢- **ضحايا (ثعلب الصحراء)**: في تشرين الثاني (نوفمبر) سوقت الإدارة الأميركية ذريعة التراجع عن الضربة العسكرية، بأنها ستوقع عشرات الآلاف من الضحايا المدنيين. ثم قامت بعد ذلك بشهرين بالعملية فماذا حدث؟ هل باتت الولايات المتحدة أقل اهتماماً بعدد الضحايا أم أنها باتت أقل إنسانية؟ أم أنها وجدت عصاً سحرية للإقلال من عدد الضحايا؟

في المقابل هل كان للإعلان عن احتمال وقوع عشرات آلاف الضحايا صلة ما (مباشرة أو غير مباشرة) بتحرك الشارع العربي؟ وهل كانت هذه الصلة مدروسة أم أنها لا إرادية - غبية؟

وبالنتيجة تحصل الضربة ولا توقع سوى عدد محدود من الضحايا، بما يطرح السؤال عن السبب الحقيقي لتأجيل الضربة من تشرين الثاني (نوفمبر) إلى كانون الأول (ديسمبر)؟ والذي اضطر الولايات المتحدة لاختراع هذه الكذبة! وأيضاً لماذا علقت الضربة مع وعد متابعتها في قسط آخر لاحق.

٣- **(ثعلب الصحراء)**: إن المطلع على السيكولوجية الأميركية يدرك مدى تطير هذه. ففي الولايات المتحدة يبلغ التطير من الرقم ١٣ حدود إلغاء الطابق الثالث عشر في مبانيها: وهو يصل إلى حدود لجوء العديد من المسؤولين الأميركيين لاستشارة المنجمين. فهل يتفق هذا التطير مع اعتماد (ثعلب الصحراء) وهو لقب (رومل) القائد الألماني، الذي خسر معركة العلمين!

وهنا يطرح السؤال عما إذا كان لهذا العنوان صلة ما بـ(ثعلب العراق) نوري السعيد وبحلف بغداد؟ وبالتالي عن علاقته بالمعارضة العراقية الخاضعة للمعايير الأميركية؟ وهذا يستدعي السؤال عن حصة هذه المعارضة في (ثعلب الصحراء)، وعن

أسباب عجزها عن القيام بدورها، وهل لهذا العجز علاقة بتقسيط الضربة على أربع ليال؟ وبإنهاء العملية على وعد متابعتها؟

٤- **الشارع العربي**: شكل سقوط جدار برلين ضربة قاصمة للتيارات القومية العربية، التي اعتمدت الإيديولوجيا الاشتراكية. حتى رأى بعضهم أن سقوط الاتحاد السوفياتي رديف لسقوط القومية. ووصل الأمر ببعضهم إلى حدود إعلان وفاة هذه القومية، وانعكست هذه الأحداث على الشارع العربي بظاهرة الرّهاب الأميريكي (أي الخوف المرضي من الولايات المتحدة).

إن بحمل التصرفات والمواقف الأميريكية كانت تصب في خانة دعم إسرائيل والعداء للعرب. وهو عداء لم تخف وطأته إلا في حالات التمهيد لتغلغل إسرائيلي في المنطقة، سواء عن طريق سياسة الأحلاف، أو عن طريق المشروعات السلمية. وأمام الهيمنة المطلقة عالمياً للولايات المتحدة وجدنا الشارع العربي ينكص إلى الدين، كبديل وحيد متاح للاشتراكية المتبخرة.

وفجأة يبعث الشارع العربي بمناسبة (ثعلب الصحراء) فهل كان هذا الانبعاث مفاجئاً حقاً؟ أم هو كان مدروساً بدقة؟ هل كان للإيحاء باحتمال وقوع عشرات آلاف الضحايا العراقيين علاقة بهذا الانبعاث؟

٥- سقوط الأنظمة العربية: تتحدث المخابرات الأميركية عن سقوط الأنظمة العربية، وكأنها تتحدث عن مناقلات في واحدة من المؤسسات الأميركية. فقد سربت هذه المخابرات شائعة مفادها أنها اضطرت للإيعاز بوقف (ثعلب الصحراء) بسبب حركة الشارع العربي التي كادت تطيح ببعض الأنظمة العربية، وهي تتحدث بحرية عن رغبتها في إزالة النظام العراقي، وتحدد رغبتها في خلافة هذا الزعيم العربي أو ذاك.

ويأتي بعد ذلك تحليل ردود فعل الشارع العربي، ومدى استجابته لمختلف هذه الإيحاءات. حيث يبدو هذا التحليل مناقضاً للحسابات الأميركية. لكن عجز الجامعة العربية عن حشد التأييد لعقد قمة عربية يصب في هذه الحسابات. والسؤال هنا هو: هل تقبل الجماهير والأنظمة العربية تغيير هذا النظام أو ذاك على أيد أميركية؟ حتى إذا كان بعضها يرى ذلك ضرورة؟ وإذا كان من الطبيعي أن لكل نظام معارضيه، ولكن هل يقبل المعارضون بقبول الدعم الأميركي الكامل من أجل إزاحة النظام؟ وما موقف الشارع من هؤلاء في حال قبولهم لهذا الدعم؟

إن مجمل الأجوبة والمواقف المتعلقة بهذا الموضوع، لا يمكنها أن تكون دقيقة مالم ينظر إليها على ضوء الضغوط الاقتصادية، التي تمارسها الولايات المتحدة على مختلف الأقطار العربية. فمن

إنزال سعر النفط إلى ثمانية دولارات (والتهديد بالنزول به إلى خمسة دولارات) إلى التهديد بحجب المعونات، وصولاً إلى الحصار الاقتصادي متعدد الدرجات.

إنها سياسة إفقار العرب بغضّ النظر عن اتجاهاتهم وأنظمة حكمهم. بل إن الإفقار بات يتخطى الحكومات إلى الأفراد، حيث تتم الاستعدادات للحجز على الحسابات المصرفية للمتمولين العرب بحجة دعمهم لحركات إرهابية.

٦- **رؤية مستقبلية:** الأميريكيون يؤمنون أشد الإيمان بعلم مستجد يدعى بالمستقبليات، لذلك فإن تقديم رؤية مستقبلية قد يكون مقدمة لأي حوار جدي معهم. ولكي تكون هذه الرؤية أكثر إقناعاً فإننا نشدد فيها على نظرية الاستقراء التاريخي ونبدأ بـ:

أ - **انبعاث القوميات:** لم يتمكن الحكم الشيوعي السوفياتي من دفن القوميات التي ضمها اتحاده على الرغم من استخدامه الوسائل كافة والحيل المتوافرة، من منع الدين، إلى الفوضى الديموغرافية، وفرض لغة بديلة، حتى أمكن الإعلان عن وفاة هذه القوميات. لكن هذا الإعلان لم يكن أكثر من كذبة عابرة، لأن هذه عادت للانبعاث فور نهاية وسائل كبتها.

ب - **ثورات الفقراء:** منذ عهد الرومان ولغاية وقتنا الراهن والأمثلة تتوالى على ثورات الفقراء. ولعل الولايات المتحدة لاتزال تذكر مواصفات المهاجرين الأوائل إلى أميريكا وصفاتهم وأسباب هجرتهم. ولعلها تذكر أيضاً أن الأحداث التي هزت اقتصادها، كانت أحداثاً داخلية من صنع مواطنين أميريكيين فقراء. ولعل آخرها كانت حوادث (لوس آنجلوس) التي تهدد باندلاع ثورة أمريكية للفقراء. وإن كانت حركة الفقراء البيض أكثر هولاً، وهي التي تجلت بانفجار أوكلاهوما.

جـ - **صدام الحضارات:** عندما يطرح المنظرون الأميريكيون الإسلام كعدو حضاري لبلادهم، فإنهم يعطون الصدارة فيه للإسلام العربي، لأنه إسلام لم يهادنوه قط. ففي مراحل مختلفة تمكنت الولايات المتحدة من مهادنة الإسلام الطوراني والفارسي والآسيوي، وتعاونت معهم. أما الإسلام العربي فقد اختارت له الولايات المتحدة موقع العداء الدائم. وكان انفجار مركز نيويورك التجاري أحد أقوى ترجمات هذا العداء. وهو كرّس الإسلام العربي في واجهة العداء الإسلامي للغرب.

د - **صدمات حديثة العهد:** إن الذاكرة الأميريكية تحتفظ بالعديد من الذكريات الصدمية في المنطقة العربية. ومنها الهجوم على مقر المارينز في بيروت (أعقبه انسحاب أمريكي من لبنان)

والهجوم على القاعدة الأميريكية في الرياض، والهجوم على القوات الأميريكية في الصومال، بالإضافة إلى تفجير السفارات، وعمليات الخطف، وغيرها من الضربات التي وجهت إلى المصالح الأميريكية.

ولو أننا راجعنا فاعلية الضربات لوجدنا أنها ضئيلة الأثر إذ إن مجمل خسائرها (مادية وبشرية) لا تتخطى خسائر حوادث السير في أسبوع عادي من حياة الولايات المتحدة. لكن هذه الصدمات استطاعت توليد رعب أميريكي، هو الخوف من الإرهاب، والذي يصل إلى حدود تخيل تعرض المواطن الأميريكي لهجمات بالأسلحة الجرثومية. مما يؤدي إلى إنفاق المليارات على دراسات الإرهاب وسبل مقاومته. في المقابل نجد أن المسؤولين يحافظون على رباطة جأشهم وموضوعيتهم، فيركزون خوفهم على إرهاب الميليشيات الأميريكية المتطرفة، في حين يخصصون مبالغ ضئيلة للإرهاب المستورد، (مثال ذلك أن جائزة من يقدم معلومات عن بن لادن لا تتجاوز خمسة ملايين دولار، ومخصصات المعارضة العراقية لا تتجاوز مئة مليون دولار. في حين تنفق المليارات على برنامج حماية الشهود في قضايا الإرهاب عامة).

هـ - الفحص الموضوعي لحالة فقدان الوعي العربية: إن الجسد العربي لايزال يحتفظ بقدرته على الإحساس، وعلى إعطاء

ارتكاسات مطابقة ومضبوطة، مثل ارتكاسات التعاطف مع جارودي وتشومسكي وهيكل، والأفلام التي تحكي قصص (عبد الناصر) والحروب العدوانية الإسرائيلية، ورفض التطبيع، وإقامة العلاقات مع إسرائيل وغيرها من الارتكاسات، التي تعكس سلامة الجهاز العصبي لهذا الجسد. لكنه يعاني في المقابل عمه الحواس (Agnosie) مما يفقده القدرة على تنظيم هذه الارتكاسات في ردة فعل معقدة، من شأنها أن تتكامل مجموعة مؤلفة من ارتكاسات عدة. بما يعني عجز هذا الجسد عن إظهار تبديات انفعالية متكاملة (يعادل عجز الشارع عن تنظيم ردود فعل متكاملة). ولكن هل يمكن اعتبار ردة فعل الشارع العربي تجاه عملية (ثعلب الصحراء) إيذاناً بنهاية عمه الحواس هذا؟

انطلاقاً من هذه المعطيات تتشكل الرؤية المستقبلية التي تجزم باستحالة القضاء على الطابع الجمعي للعقل العربي (بغض النظر عن توجهاته الإيديولوجية) مما يجعل احتمالات تطويره لردود فعل منظمة جيداً احتمالات أكيدة. **وهذا التأكيد يجعل من مصلحة الولايات المتحدة أن تخفف من عدائها لهذا العقل وجسده.** فهاهي الأقليات بدأت تمردها على نظام السخرة الأميركية. أما المعتدلون العرب (وفق التسمية الأميريكية) فإنهم يتلقون الخيبات المتتالية. وهاهم المهادنون العرب وقد بدأ صبرهم ينفد. أما أغنياؤهم فقد بدؤوا يشهدون عملية امتصاص أموالهم بأساليب دراكولا.

ونصل إلى العرب الخائفين الذين لم تعد الولايات المتحدة قادرة على بيعهم مشاعر الأمان. كل ذلك في مقابل الإسلام العربي، الذي بدأ ينظر للولايات المتحدة على أنها عدوة الدين، بعد أن رأى فيها حليفة له في الحرب الأفغانية. فهل تدرك الولايات المتحدة أن مصالحها في المنطقة تسير لحو بداية النهاية. إنه فصل مهم من فصول (تآكل المصالح الأميريكية) التي لفت (هنتنغتون) الأنظار إليها.

٢٧- الانتخابات الأميركية...
قراءة تحليلية-رجعية

١٥/٢/٢٠٠١م

في ٢٠/٤/١٩٨٩م وقف الجنرال الأميركي شوارزكوف أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ الأميركي، ليدلي بتقريره عن المنطقة الواقعة في إطار مسؤولياته والممتدة من أفغانستان إلى السودان. ومن هذا التقرير نقتطف المقاطع التالية: ... تتعرض المنطقة لثلاثة تهديدات هي: احتمال الغزو السوفياتي الصريح، وزيادة النفوذ العسكري والسياسي السوفياتي، والتهديد الإرهابي...إن التهديد السوفياتي آخذ في الازدياد، والسوفيات يحققون مكاسب على حسابنا...علينا أن نظهر لأصدقائنا في المنطقة، أن التزامنا جاد وقابل للدوام...إن أهمية النفط العربي ستتزايد مع حلول العام ٢٠٠٠م إذ سينخفض الناتج المحلي لدينا بنسبة ٢٠٪ في ذلك العام، مما سيزيد من اعتمادنا على نفط المنطقة.

لذلك علينا الاحتفاظ بوجود بحري في الخليج يتناسب مع مستوى التهديد... علينا أن نكون مستعدين للقتال إذا لزم الأمر. وهذا يعني أن نحتفظ بالقوات المخصصة للقيادة المركزية في حالة استعداد عليا، وأن نمدها بالقدرة على إقامة الجسور الجوية والبحرية إلى المنطقة في أوقات الأزمات... ومن المتوقع أن يزداد النفوذ الاقتصادي السوفياتي في إيران... أما العراق فمن المتوقع أن يشكل تهديداً عسكرياً للدول الأضعف، والأكثر محافظة في مجلس التعاون الخليجي، ويمكن أن تصبح مطالبة العراق الملحة في أجزاء استراتيجية مهمة في شمال الكويت مشكلة في المستقبل. كما أنه من المتوقع أن يعمل العراق على تطوير صناعة أسلحة محلية تلعب دوراً جوهرياً في التسعينيات. لذلك فإن على الولايات المتحدة أن تلعب دوراً في جعل كل من إيران والعراق يمثلان للاعتدال...

إن تحقيق هذه الأهداف يقتضي الحفاظ على قدرة تأمين الإمدادات سواء عن طريق الجسور، أو عن طريق التخزين. حيث من المتوقع أن يتضاعف عجز هذه القدرة بحلول العام ٢٠٠٠م...

إن هذه المقتطفات تتمتع بدلالات خاصة لدى قراءتها، على ضوء اللحظة السياسية-الاقتصادية الراهنة. ويهمنا تحديداً أن الاتحاد السوفياتي احتفظ بقدرته على المنافسة لغاية نيسان (أبريل) من العام ١٩٨٩م، وأنه كان يحتاج إلى قرارات كي يتجنب

السقوط. وما يقدمه التقريرهو نوع من الإسقاط الأميركي. أي اقتراحات التصرف الأميركية لو كانت الولايات المتحدة مكان الاتحاد السوفياتي. كما أن القراءة الراهنة لهذا التقرير تنزع عنه صفة التقرير، لتجعله مجموعة اقتراحات ومطالبات بتعزيز سيطرة الولايات المتحدة على المنطقة.

و لكن ما العلاقة بين كل ما تقدم وبين الانتخابات الأميركية ونتائجها ؟

بداية هناك التزامن بين تاريخ هذه الانتخابات العام ٢٠٠٠م، وبين توقعات التقرير المؤكدة على انفجار العديد من الأزمات الأميركية في هذا العام. فانخفاض الإنتاج الأميركي للنفط بنسبة الـ ٢٠٪ المشار إليها تفسر لنا آلية من آليات ارتفاع أسعار النفط المرافقة للانتخابات. مما يؤكد إصرار كلينتون على متابعة سياسته في تصدير الفوضى إلى الخارج حتى اليوم الأخير من ولايته. وهذا يستتبع قائمة من التساؤلات لعل أهمها:

١- إلى متى يمكن الاستمرار في هذا التصدير، وقد بدأت معظم الدول ترفضه؟

٢- هل يمكن للرئيس الأميركي القادم أن يتقن هذه السياسة في التصدير؟

٣- أي من المرشحين (بوش أم غور) كان أقدر على متابعة هذه السياسة؟

٤- أي من المرشحين كان أقدر على تصويبها؟

٥- إن الرئيس الحالي سيواجه قمة الأزمات الأميركية، فأيهما كان أقدر على مواجهتها؟

٦- إن الاقتصاد الأميركي لايحتمل الهزات السياسية ويحتاج إلى الحسم ؟

٧- هل تعد أزمة الانتخابات مقدمة الفوضى الداخلية الأميركية؟

٨- هل يتحمل المواطن الأميركي تطرف الحملة الانتخابية بما يضر مصالحه؟

٩- ما دور اليهودي ليبرمان، واليهود إجمالاً، في رفض الاستسلام للنتائج؟

١٠- هل عكست شدة التنافس انقساماً فعلياً في الرأي العام الأميركي؟

١١- ما العوامل الكامنة وراء إخراج النتائج بهذه الصورة؟

١٢- ما التغيرات الخفية في العلاقة بين جماعات الضغط الأميركية؟

١٣- هل كان لبيل غيتس دور انتقامي لاتهام شركته بالاحتكار؟

١٤- هل يمكن اعتبار اختيار ليبرمان محاولة ديموقراطية لمواجهة جماعات الضغط؟

١٥- هل يمكن نفي احتمال وجود فضائح عديدة ومتشعبة في هذه الانتخابات؟

١٦- هل هي نهاية النظام الانتخابي الحالي ونقطة الانطلاق لتعديله؟

١٧- هل كان أحد الحزبين مستعداً للتضحية بخسارة شراكته في النظام لكسب دورة انتخابية؟

١٨- هل من علاقة بين أزمة الانتخابات وبين الميليشيات البيضاء؟

١٩- هل يؤثر ضعف الفائز على الإرهاب الأميركي الداخلي؟

٢٠-كيف يمكن للرئيس الفائز مواجهة المشاكل التي تجاهل كلينتون حلها؟

هذه الأسئلة ليست سوى غيض من فيض، من الأسئلة التي ستطرح للنقاش خلال السنة الأولى من حكم بوش الابن. إلا أن ما يمكن تأكيده من دون أي تردد، هو أن هذا الفوز سيكون أصعب من الخسارة. لأن بوش لا يواجه عقابيل الأسئلة المطروحة أعلاه فقط؛ بل سيواجه إضافة إليها تحديات جدية، لإخراجه من منصبه. فقد بات من المسلمات بأن كلا المرشحين قد اعتمد أساليب غير شرعية ومدانة، وكافية، لإثارة المشاكل في وجه الفائز منهما. لكن فوز آل غور كان سيتخذ بعداً مختلفاً، لأن تنحيته تحمل يهودياً إلى سدة الرئاسة الأميركية.

مما تقدم، يتضح لنا أن مناقشة السباق الرئاسي الأميركي متشعبة بما يجعل الإحاطة بها مستحيلة. خصوصاً وأن المعلن هو قمة جبل الجليد، وأن الحصول على بعض المعلومات والأجوبة مستحيل. لذلك نكتفي بهذا القدر من إثارة التساؤلات لننتقل إلى عرض رؤية سيكولوجية، قد تساعد على فهم قسم من الأزمة. ونبدأ هذه القراءة بـ:

١-الرئيس الفائز

نظراً لتراكم الأزمات، وأزمان العديد منها، من الطبيعي أن نتوقع أن تكون لشخصية الرئيس الجديد وأفكاره المسبقة أهمية غير اعتيادية في اتخاذ القرارات. إلا أننا نلاحظ من ضمن المفارقات أن كلينتون لم يقبل بوضعية **(البطة العرجاء)** صفة تطلق على الرؤساء الأميركيين في آخر أيام حكمهم، فقد بقي كلينتون شديد الفعالية حتى اللحظة الأخيرة. بما يجلب الشكوك، بل قل: يؤكدها، (تحدثنا في مقالات سابقة عن مناورات كلينتون للتمرد على هذه الوضعية)، حول ما إذا كان يفتعل الأزمات ليحافظ على أهميته. حيث دلائل عديدة تشير إلى تواطئه مع باراك وشارون في أزمة الأقصى، منها تقرير سربته وسائل الإعلام الأميركية ونقلته بعض الصحف العربية. كما أنها المرة

الأولى التي يبدأ فيها رئيس أميركي ولايته من موقع البطة العرجاء. فأيّاً كان الفائز، فإنه سيكون ضعيفاً وملاحقاً من قبل الرأي العام بسبب عدم مرونته وأدائه الضعيف في الانتخابات. وكأنه سرق فوزاً لا يستحقه.

مما يسهل مهمة الحزب المعارض في إثارة الفضائح حوله. وهي مهمة أسهل بالنسبة إلى الجمهوريين، كونهم يحظون بنفوذ أكبر بين جماعات الضغط الاقتصادية. أما الآن وقد فاز بوش، فإن عليه مواجهة اللوبي اليهودي، وطريقته الخاصة بإثارة الفضائح.

وهذا يقودنا إلى التساؤل عن إمكانية مواجهة **(بطة عرجاء)** لقرارات مصيرية وحاسمة؟ الأمر الذي يزيد احتمالات اللجوء إلى الحلول الأقل تعقلاً. ويزداد الوضع تعقيداً بمراجعة النمط السلوكي للرئيس المنتخب. عداك عن التحليل النفسي لشخصيته، بناء على التصرفات المعلنة، والمعلومات المتوافرة عن سيرته الشخصية. وعلى سبيل المقارنة لا بأس من عرض النمط السلوكي للمرشح الخاسر آل غور قبل التطرق لتحليل بوش.

- التحليل النفسي لشخصية وسلوك آل غور

إذا ما اعتمدنا تصنيفات دايفيد باربر لسلوك الرؤساء الأميركيين نجد أن آل غور يقع في خانة (المنفعل السلبي). وهو

نمط يصفه باربر على النحو التالي : إنه يدخل إلى عالم السياسة من باب حس الواجب والخدمة، وليس لتحقيق المتعة. وهو لا يجني من الرئاسة إلا القليل من القناعة والرضا. وهذا النمط يميل إلى تجنب المواقف الصراعية والانسحاب منها. وغالباً ما يغطي تراجعه بالإعلان عن مبادئ غامضة، على غرار ما فعله كوليدج وآيزنهاور. أما عن الخصائص الفردية لغور، فإن معالمها تتضح من خلال متابعة ماضيه الشخصي والسياسي، خصوصاً في موقع نائب الرئيس. وهي تشير إلى عجزه عن تأسيس شخصيته المستقلة. ويعود ذلك إلى تبعيته لأمه، وإلى بقائه أسيراً لصورة والده السياسية. وهو الأسر الذي كرسه باختياره ليبرمان اليهودي نائباً له، فقد كان والد غور سيناتوراً عن ولاية تينيسي، وكان مقتنعاً أن لا مكان له في عالم السياسة من دون مساعدة اليهود. مما جعله يتطرف دائماً لمصلحة إسرائيل، وهذه الخلفية تفسر لنا العقائدية الصهيونية التي يبرزها غور من دون أدنى حرج. كما تلاحظ في تصرفات غور علائم ما يعرف بـ (الشخصية التجنبية) فهو يبدو محبباً وقريباً، ولكن في دائرة ضيقة من الأصدقاء.. في حين يبدو متصنعاً ومتعالياً، موقف تعويضي مألوف عند التجنبي، خارج هذه الدائرة. مما يجعله فاشلاً في كسب مودة الجمهور. فقدرته على كسب المودة هي قدرة انتقائية، ربما حصرها باليهود دون غيرهم بسبب تبعيته لهم.

ولكن ماذا عن التوقعات المتعلقة بالسياسة الأميركية لو فاز غور؟.

لو فاز غور لاستتبع فوزه تغيرات عميقة في السياسة الأميركية. وذلك:

أولاً بسبب الاختلاف الكبير بين شخصيته وشخصية كلينتون. التي طغت طيلة سنوات على شخصية غور، وكرسته في وضعية التابع. حتى بات ابتعاده عن كلينتون ضرورياً خلال الحملة الرئاسية.

أما السبب الثاني والأهم، فيكمن في شخصية غور التي دفعته الى التطرف العقائدي الصهيوني، عبر آلية التبعية- الاستسلامية التي نسخها عن صورة والده السياسية. وهذا يعني أن فرص تصدير الفوضى كانت ستستغل بتدخل إسرائيلي باتجاه تصديرها إلى الدول العربية. حيث من غير المستبعد تحويل أزمة القدس الراهنة إلى كوسوفو جديدة. عداك عن إثارة العديد من مكامن الفوضى المحتملة، والتي تحفظ عليها كلينتون في سعيه لتحقيق المكاسب الاقتصادية، انطلاقاً من شعاره (**أميركا أولاً**). حيث كان لابد للثنائي غور-ليبرمان من تنفيذ مبدأ بديل هو (**إسرائيل أولاً**). إلا أن سؤالاً في غاية الوجاهة يقفز إلى الذهن وهو: هل كان غور ليستمر في الرئاسة لو قدر له الفوز؟. أم أن الرغبة اليهودية في تسجيل سابقة رئيس يهودي لأميركا كانت ستحول دون هذا الاستمرار؟. أما عن التوقعات العملية لسلوك

غور الرئاسي، فتتضمن اختفاء قدرة المناورة والضغط المدروس، التي يجيدها كلينتون الذي لايصل إلى حدود المواجهة المكلفة سياسياً أو اقتصادياً. وستحل مكانها سلبية الهروب من أية مواجهة حقيقية. فإذا ما طبقنا ذلك على الشرق الأوسط فإنه يعني نهاية الجولات المكوكية والضغوطات الدافعة للمفاوضات على جميع الأطراف. ليحل مكان هذه الضغوطات مبدأ سلام غامض ومؤجل. مع الهروب إلى الأماكن التي تكون صراعاتها أقل حدة، وأكثر نظرية. كما أن نجاح غور كان سيعني إيجاد صيغة ما لتخفيف الحصار على العراق، ولكن دون إيجاد حلول جذرية للقضية العراقية. مع الاستمرار في احتواء العراق احتواء طويل الأمد.

- التحليل النفسي لجورج بوش الابن

وفق تصنيف باربر ينتمي بوش إلى نمط (الفاعل السلبي) ويمتاز **هذا النمط بأنه يملك طاقة شخصية عالية، لكنها موجهة في كفاح قهري لا متعة فيه. ومن هنا عجزه عن تحمل الإحباطات. ذلك أنه لا يحصل من جهوده على كفاية عاطفية مقبولة. فالطابع القهري لعمله يحد من هذا المردود ويقلصه. كما يواجه صاحب هذا النمط صعوبة في السيطرة على مشاعره العدائية، مثال ذلك الإحراج الذي تعرض له بوش لتلفظه بكلمات نابية، وجهها لأحد المراسلين الصحفيين أثناء**

الحملة الانتخابية دون أن يعرف أنه لا يزال مسموعاً. ولقد كان نيكسون من هذا النمط ومثالاً عليه. وهو شبه لا يبشر بالخير في حال تعرض بوش الفائز لإثارة الفضائح أو الأزمات الداخلية. كما أن هذا النمط معرض أكثر من غيره للجوء إلى الطرق الملتوية التي قد تنفجر في وجهه لاحقاً.

أما عن العلائم الفردية لشخصية بوش فنذكر منها إصابته بالاكتئاب، كرد فعل على سوء ظروفه المالية في أواخر الثمانينيات. حيث دفعه اضطراب المزاج إلى تعاطي الكحول والكوكايين من بعدها، بحسب بعض الروايات. و من الوجهة السيكاترية يمكننا اعتبار هذا الاضطراب عابراً. خصوصاً بعد الأرباح التي جناها هو وأثرياء النفط في تكساس بمناسبة حرب الخليج الثانية، يؤكد البعض أن هدف رفع أسعار النفط لعام ١٩٩٠م كان أحد أهم أسباب هذه الحرب. فمن دونها كانت الشركات النفطية الأميركية عرضة للإفلاس، لتدني سعر البرميل إلى تسعة دولارات وما دون. ولكن ماذا عن سياسته الشرق أوسطية بعد فوزه؟

إن تأثير والده سيكون بارزاً، وشديد الوضوح في هذه السياسة. مما يعني أن العلائم الرئيسية لسياسة الأب سوف تعاود الظهور. ومنها، في الشرق الأوسط ، رفض قبول معاملة إسرائيل كشريك للولايات المتحدة. والضغط عليها باتجاه تحقيق السلام.

حيث لا يمكن توقع قبول بوش بمطلب باراك من كلينتون بعدم الضغط على إسرائيل، بحجة أن الرأي العام الإسرائيلي غير مهيأ تماماً للتنازلات. إذ إن بوش، الأب خاصة، سيعتبر هذا الموقف وقاحة في غير مكانها. خصوصاً وأن الجمهوريين رافضين لطريقة كلينتون في الاستغلال الاقتصادي للأزمات، كونهم يرون فيها مكاسب راهنة، ذات أخطار مستقبلية فائقة. الأمر الذي سيؤدي إلى انخفاض المكاسب الاقتصادية الأميركية. ومعها زيادة بحث الجمهوريين عن أساليب جديدة لخفض النفقات. مما سينعكس على إسرائيل بأضرار اقتصادية. أما بالنسبة إلى القضية العراقية، فمن المتوقع أن يبحث لها بوش عن حل جذري. يتضمن الاعتراف بعدم جدوى استمرار الحصار. اعتماداً على الاستعداد العراقي، لتقديم تنازلات حيوية بالنسبة إلى الاقتصاد الأميركي بتوجهه الجمهوري.

٢- ما قبل الانتخابات

تقودنا مناقشة النتائج الرئاسية الأميركية للعودة إلى فترة ما قبل الانتخابات. وهنا نود الإشارة بأننا لا نريد ادعاء الحكمة بأثر رجعي. لذلك سنلتزم بآرائنا المنشورة حول الموضوع في وسائل إعلامية مختلفة، ونورد منها بالعناوين وتواريخ النشر ما يلي:

- الإسـرائيليون يدعمـون غـور ويتحفظـون علـى بوش/٣٠/٣/٢٠٠٠م.

- الأخـلاق الرئاسـية... التنبـؤ بـالأداء في البيـت الأبيض/٢٨/٤/٢٠٠٠م.

- العملية السلمية والرئيس الأميركي الجديد/٦/٩/١٩٩٩م.

- قوة بوش تجعل غور حصاناً ميؤوساً منه/٢٠/٦/٢٠٠٠م.

- اغتيـال غـور لتكريـس ليبرمـان أول رئيـس يهـودي أميركي/٢٦/٨/٢٠٠٠م.

- الأميركي ينتخب الرخاء لا الأخلاق/١٩/٦/٢٠٠٠م.

- دور اللوبـي اليهـودي في توجيـه سياسـة البيـت الأبيض/٢٧/٦/٢٠٠٠م.

- بوش الابن أكثر حظاً للفوز/٥/٦/٢٠٠٠م.

بعد هـذا التذكير، ننتقل إلـى بعض التفاصيل التي كانت عابرة في فترة ما قبـل الانتخابات وتحولت إلى أساسية بعدهـا. وأولى التفاصيل أن كلينتـون كـان مـن النمـط المنفعـل الإيجابي. وهـذا النمط يجلب لنفسه العار بسبب أصدقائـه القدامى. وهـذا تحديـداً مصـدر العارعند كلينتون. فقد أتته فضيحـة مونيكـا مـن اليهـود

الذين أعطوه ٨٧٪ من أصواتهم. و لقد برز عدم رضا كلينتون عن فريقه في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٨م، عندما راح هذا الفريق يعلن عن ضربة كاسحة للعراق. واضعاً كلينتون موضع الحرج في حال التراجع. وفي حينه نجح في تجنب هذا المأزق، واستبدل الضربة بـ (**ثعلب الصحراء**) التي كانت محدودة من دون ثمن سياسي. وبذلك نجح في إظهار غور وأولبرايت وغيرهم في وضع العاجزين-الجاهلين. فهو كان يميل لاعتماد هولبروك وزيراً لخارجيته إلا أنه اضطر لتعيين أولبرايت بسبب ضغوط متنوعة. كما كان معارضاً ضمناً لترشيح غور لدرجة أن مساعدي الأخير نصحوه بالابتعاد عن كلينتون إن هو أراد الفوز. بل إنهم دفعوه باتجاه خطوات مناقضة لتوجه كلينتون. حتى وضعوه على يسار الوسط، وهو موقع غير ملائم للأميركي العادي. وإن كان ملائماً لليهود الأميركيين. لكن الخدمة اليهودية الأكبر لغور، تجلت باستبعاد المنافسين الديمقراطيين الأقوياء. وحصر المنافسة بين غور وبين برادلي. ولولا دعم اليهود لكان برادلي هو المرشح الديمقراطي. وهكذا يمكن القول: إن غور كان منذ البداية مرشحاً ضعيفاً. وإن لكلينتون دوره في إضعافه أكثر فأكثر. ولعل هذا الضعف هو التفسير الوحيد لقبول الديمقراطيين باختراق العرف الأميركي بترشيح ليبرمان اليهودي. وهو الترشيح

الذي خلط الكثير من الأوراق. ولعله حظي بقبول كلينتون لكونه يؤمن الأصوات اليهودية النيويوركية لزوجته هيلاري. التي كانت المستفيدة المباشرة من ترشيح ليبرمان. وهكذا خاض الديمقراطيون الانتخابات معتمدين على نقاط القوة التالية:

- الرخاء الذي أمنته سياسة كلينتون المغامرة التي حققت فائضاً قدره ١١٥ مليار دولار مقابل عجز كان متوقعاً في حدود الـ ٤٠٠ مليار دولار، تصريح جاك ليو-مدير هيئة الميزانية في البيت الأبيض.

- المراهنة على زيادة حصتهم من أصوات اليهود من ٨٧٪ التي حصل عليها كلينتون إلى ٩٠٪ وهذا ما حدث فعلاً لولا أخطاء ثقب البطاقة الانتخابية لصالح بوكانان.

- تجنب بعثرة الأصوات. حيث كان رالف نادر هو الأداة المبعثرة للصوت الديمقراطي. في حين بعثر بوكانان الصوت الجمهوري.

- اعتماد الطريقة الكلينتونية في تمويل الانتخابات. التي وصفها الجمهوريون بأنها براعة استغلال نظام فاسد يجب تعديله.

- التطرف في وعود انتخابية أطلقها غور في محاولة يائسة لتحسين وضعه الانتخابي.

أما الجمهوريون فهم لم يراهنوا أصلاً على الصوت اليهودي. حتى إن المرشح بوش قد تجاهل زيارة باراك لواشنطن، ولم يسع للقائه جرياً على عادة المرشحين. لذلك كان سعيهم منذ البداية باتجاه زيادة إقبال الأميركيين على الاقتراع. وهم نجحوا في ذلك أيما نجاح. ويمكن تلخيص منطلقات الجمهوريين ونقاط قوتهم في الانتخابات كما يلي:

- زيادة إقبال الناخب الأميركي لتعويض خسارة الصوت اليهودي.

- استغلال نقمة المهاجرين الكوبيين بسبب قضية الطفل الكوبي.

- تجنب بعثرة الأصوات الجمهورية، ودعم بعثرة الديمقراطية.

- طرح موضوع الأخلاقيات الرئاسية. مع الاستجابة لتقليدية المحافظين.

- تنمية دافعية الناخب المحافظ في مواجهة ترشيح يهودي نائباً للرئيس.

- تجنب عثرات التمويل وإرباكاته.

- دعم جماعات الضغط الاقتصادي .

- الرغبة الأميركية المعهودة بالتغيير.

- رصيد جورج بوش الأب السياسي والاقتصادي، ومعاداة الصوت اليهودي له.

٣- أسباب الأزمة ومحركاتها

بدأت الانتخابات بشعور عام مفاده دفع الجمهوريين بأفضل مرشح لديهم. مقابل أسوأ مرشح ديمقراطي. مما خلف الانطباع بفوز حاسم لبوش. و بدا الجمهوريون مطمئنين للنتيجة.

بحيث كان من السهل على المراقبين ترجيح فوز بوش. لكن مفاجآت عديدة ما لبثت أن تبدت بشكل غير متوقع. ويمكن تلخيص هذه المفاجآت بأنها نتيجة لاستعداد مسبق لدى الطرفين لاستخدام كل الثغرات الممكنة في قانون الانتخاب الأميركي. ولكي نفهم ما جرى، علينا أن نعرض لأهم الثغرات المستخدمة في مجرى العملية الانتخابية. وهي ثغرات يمكن تقسيمها إلى فئتين رئيسيتين:

الأولى: فئة الثغرات التي أثيرت الاعتراضات القانونية بسببها.

والثانية: تلك القابلة للاستخدام لاحقاً لإثارة المشاكل والفضائح والمطالبات بتعديل قانون الانتخاب، وربما بمطالبة بعض

الولايات إدخال التعديلات على قوانينها المرتبطة بالقانون الفيديرالي.

لكننا، وقبل الخوض في هذه الثغرات، نجد من الأهم توضيح الأسباب المباشرة للأزمة واللغط اللذين رافقا هذه الانتخابات. و لعله من المفيد أن نضيف إلى هذه الأسباب استقراء لحالات التنافس الحادة في تاريخ الانتخابات الأميركية. عل هذا الاستقراء يساعد على دعم قدرتنا على التنبؤ بالسلوك الرئاسي لبوش الابن، وللمشاكل المحتمل تفجيرها في ولايته. ونبدأ بـ:

أ- الأزمات الانتخابية الأميركية السابقة

بالرغم من الانتكاسات العديدة التي منيت بها حملة المرشح بوش، فهو قد خرج من الانتخابات بأصوات ٢٨ ولاية من أصل ٤٩ ولاية بعد استبعاد ولاية كاليفورنيا موضوع الخلاف. مما يعني أنه كان ضامناً للفوز في حال نشوء أزمة رئاسية. حيث ينص الدستور على انتخاب الرئيس في هذه الحالة بواقع صوت واحد لكل ولاية بغض النظر عن عدد مندوبيها.

وهكذا فإن الأزمة الناشبة كانت من نوع الضوضاء الاستعراضية، أكثر منها أملاً بفوز حقيقي.

فمشاركة ليبرمان في الانتخابات كانت من منطلق ضعف آل غور. فإذا خسر كانت الخسارة بسبب هذا الضعف. أما إذا فاز، فإن ذلك يعني قدرة اللوبي اليهودي على اجتراح المعجزات. وكانت الخسارة هي الأرجح. لذلك كان الإعداد مبكراً للأزمة. وهو اعتماد لابد له من الاستناد إلى الأزمات السابقة، والنسج على منوالها. ومن هنا ضرورة استعراض الأزمات الانتخابية السابقة، ومحاولة تحري مدى استنساخها في الأزمة التي اصطنعها اللوبي اليهودي حتى لا تكون خسارته سهلة.

وتعود أولى هذه الأزمات إلى العام ١٨٠٠م حيث تساوت أصوات المندوبين بين المرشحين توماس جيفرسون وأرون بير، إذ حصل كل منهما على ٧٣ صوتاً. وفي حينه حسم مجلس النواب الأمر بالتصويت لصالح جيفرسون. واستتبعت هذه الأزمة التعديل ١٢ في الدستور الأميركي الذي نص على انتخاب الرئيس من قبل مجلس النواب، ونائبه من قبل مجلس الشيوخ في حال عدم تمكن أي من المرشحين من الفوز، بعدد أصوات المندوبين المطلوب، النصف زائد واحد. أما إذا فاز المرشح بهذا العدد، فإنه يصبح رئيساً حتى لو خسر الأصوات الشعبية. وهكذا تمكن ثلاثة رؤساء أميركيين من الفوز بالرئاسة مع خسارتهم للأصوات الشعبية. وهؤلاء هم: جون كوينسي أدامز ١٨٣٤م، ووذرفورد بي هيس ١٨٧٦م، وبنيامين هاريسون ١٨٨٨م.

ب- رهانات فريق غور

استندت رهانات فريق غور في الأزمة الأخيرة إلى الثغرات الدستورية التالية:

١- إن أصوات المندوبين، ما يعرف بالكلية الانتخابية، تصب كاملة لصالح المرشح الفائز بأغلبية أصوات المندوبين. مع استثناء ولايتي مين و نبراسكا. حيث يسجل لكل مرشح عدد الأصوات التي ينالها. مما يعني اختلاف شروط الانتخابات، وظروفها بين ولاية وأخرى.

وهو اختلاف لا تبرز أهميته إلا في حالة التقارب الحاد في الأصوات الشعبية. وهذا ما حصل في الانتخابات الأخيرة. حيث بدا الديموقراطيون، وكأنهم يشجعون بقية الولايات كاليفورنيا خصوصاً، على أن تحذو حذو هاتين الولايتين. إذ كان اقتسام أصوات كاليفورنيا بين المرشحين (٢٥صوتاً) كافياً لإيصال غور إلى الرئاسة.

٢- اعتماد البطاقات الإلكترونية في بعض الولايات، منها كاليفورنيا، وبطاقات الفرز الضوئي في ولايات أخرى. مما يعني اختلافاً مادياً في شروط الانتخاب بين ولاية وأخرى. إلى هذه النقطة استندت مطالبة غور بإعادة فرز الأصوات يدوياً.

٣- افتعال أزمة تقارب الأصوات عن طريق المطالبة بإلغاء آلاف الأصوات في مناطق ذات حضور يهودي. بحجة وجود أخطاء في ثقب البطاقات لصالح المرشح بات بوكانان المللقب بعدو اليهود. وتم قبول الحجة بسبب منطقيتها. فكانت السبيل إلى تضييق الفارق بين بوش وغور إلى ما دون الـ ٢٪ من الأصوات الشعبية. وهذا الإلغاء صناعة يهودية هو الذي فتح الأبواب عريضة أمام الأزمة.

ولكن السؤال يطرح حول ما إذا كان فريق غور مؤمناً فعلاً باحتمال فوزه؟ أم إنه كان يحاول فقط أن يخوض معركة خاسرة حتى نهايتها؟

فقد كان غور مدركاً لاستحالة الفوز. وهو عبر عن هذا الإدراك بتهنئته لبوش، ما لبث أن سحبها، وقرر خوض الخسارة حتى النهاية. أما عن أسباب ودوافع التأكد من هذه الخسارة فهي تعود إلى طبيعة النظام الانتخابي الأميركي. كما إلى الظروف الموضوعية التي جرت وفقها الانتخابات.

أما عن النظام الانتخابي فمن أهم ثغراته ترك تحديد النتيجة للكلية الانتخابية، مع صيغة ضمنية تقتضي بأان يصوت المندوبون وفق الميل الشعبي. فلو أخذنا مثال مين ونبراسكا لوجدنا أن

الصوت الشعبي فاقد لتأثيره على المندوبين. هذا بالإضافة إلى الثغرات المذكورة أعلاه، والتي تقتضي اللجوء إلى مجلسي النواب والشيوخ لحسم النتائج الملتبسة.

إلا أن ما يجب قوله هو: إن هذا النظام كان يمثل نوعاً من الطوباوية الديموقراطية خارج الأزمات. فهو يجمع بين الانتخاب الشعبي المباشر للرئيس، وبين النظام الحزبي التعددي، وبين مشاركة ممثلي الشعب. لكن هذه المعادلة التوفيقية-التوليفية تتحول الى خطر داهم في الأزمات. وخصوصاً في حالات سوء الاستخدام المقصودة. فما الذي كان يحصل لو أن غور وفريقه قررا الخوض في المنافسة حتى نهايتها؟

ولهذا السؤال جوابان مختلفان بصورة جذرية. فهنالك ما كان سيحدث فعلاً. وما كان يمكنه أن يثار من مشاكل بهدف اختلاق أزمة دستورية. فأما بالنسبة إلى ما كان سيحدث فعلاً فهو تثبيت فوز بوش بقرار من المحكمة الدستورية ذات الأغلبية الجمهورية، وبضغط جماعات الضغط المقرر ولو بصورة غير مباشرة. مما يدفع إلى التساؤل عن سبب إصرار الديموقراطيين على افتعال الأزمة. وهو سؤال يؤكد دور اللوبي اليهودي فيها. حيث مالت غالبية الديموقراطيين إلى الانسحاب بروح رياضية، والتسليم بالهزيمة، وعدم إحراج النظام وبنيته الدستورية. أما عن المشاكل الممكنة الإثارة عبر دفع الأمور نحو التأزم.

جـ- سيناريوهات الأزمة واحتمالاتها

كان أبسط السيناريوهات وأكثرها إنقاذاً لماء وجه الديموقراطية الأميركية هو قيام المحكمة العليا بوقف إعادة الفرز، مما يدفع غور إلى التسليم بالخسارة، ويحسم المسألة. لكن سيناريوهات عديدة أخرى كانت محتملة. فالقانون الأميركي يعتمد على السوابق في القضايا المشابهة. مما كان من شأنه أن يدعم محامي غور بإثارتهم للسوابق الانتخابية المشار إليها من قبل. وبغض النظر عما إذا كان قرار المحكمة العليا إنقاذاً لماء الوجه، أم إنه خضع لتوازن قوى الضغط، فإن استعراض السيناريوهات الأخرى يبقى ضرورياً. وهذه السيناريوهات هي:

أن تسمح المحكمة باستمرار إعادة الفرز. وهذا كان يعني عدم انتهائه في ١٨ كانون الأول (ديسمبر)، وهو موعد اجتماع الكونغرس للبت بالنتيجة. مما كان سيعني استبعاد أصوات فلوريدا، وعندها كان غور حاصلاً على ٢٦٧ صوتاً من أصوات الكلية الانتخابية، مقابل ٢٤٦ لبوش. وعندها كان على الكونغرس أن يقرر إما فوز غور بهذا الفارق، وإما الإصرار على ألـ ٢٧٠ صوتاً التي يقرها القانون. وفي الحالة الأخيرة ينص القانون على إحالة الانتخابات إلى مجلس النواب حيث تعطى كل ولاية صوتاً واحداً. وهنا تجدر الإشارة إلى أن بوش كان ضامناً

لأصوات ٢٨ ولاية. مما يعني أن بوش كان سيفوز بالرغم من كل هذه الضجة. ولكن ألم يكن هنالك سيناريو، يمكنه أن يؤدي إلى فوز غور؟

هذا السيناريو موجود نظرياً، لكنه مستحيل عملياً، كونه يضع البلاد في أزمة دستورية تهدد مستقبل النظام. وهذا السيناريو هو التالي: أن توافق المحكمة العليا على استمرار إعادة الفرز. وأن يتفوق غور في عدد الأصوات الشعبية. وتصدر الأوامر إلى شقيق بوش وإلى هاريس بالتوقيع على الكلية الانتخابية لمصلحة غور على أساس فوزه الشعبي. وعندها كان سيكون لفلوريدا كليتان انتخابيتان . واحدة جمهورية، والأخرى ديمقراطية. وكان على مجلسي النواب والشيوخ أن يصوتا لتقرير أيهما الشرعية!؟. لكن هذا التصويت لم يكن ليحسم المعركة. فللجمهوريين أغلبية ضئيلة في مجلس النواب. وللديموقراطيين مثلها في مجلس الشيوخ. بحيث يصبح على الكونغرس أن يقبل المجموعة التي عينتها الولاية. أي تلك الديموقراطية التي صادق عليها شقيق بوش. وبذلك يصبح غور رئيساً.

بعد هذا الاستعراض لمختلف السيناريوهات يتأكد لنا، أن معركة غور كانت خاسرة على جميع الصعد. فحتى سيناريو فوزه المستحيل لم يكن ليلقى القبول الشعبي، ولا قبول قوى الضغط.

بل هو كان سيعزز جماعة المرشح بوكانان (هتلر الأميركي) - داعم للنازيين الأميركيين الجدد. مما سيحوله إلى زعيم شعبي، ويدخل البلاد في مرحلة متطورة من مراحل معاداة السامية. واليهود يدركون ذلك بعمق. لذلك اكتفوا بإظهار أنفسهم بأنهم لايتراجعون بسهولة، وبأنهم يدعمون أصدقاءهم بشرف، وحتى النهاية!. وهذا يذكرنا بقبولهم ترشيح ليبرمان وفق مبدأ أنه يترشح مع مرشح ضعيف، فإذا ما خسر، فإن ذلك يكون بسبب غور، أما إذا فاز، فإن ذلك يكون بفضل اليهود!. إلا أنه من الواضح أن اليهود وبالرغم من وعيهم لكل هذه المآزق قد ذهبوا إلى أبعد من اللازم، في تحدي الشعور الأميركي. فحتى الديموقراطيين تحولوا لمطالبة غور بالتسليم بروح رياضية، وعدم التورط أكثر من ذلك في استغلال الثغرات القانونية على الطريقة اليهودية!

د- الولايات المتحدة-قراءة مستقبلية

ماذا ينتظر أميركا بعد هذا الامتحان العسير؟.

ولهذا السؤال متفرعات لا تحصى بسهولة. لذلك نترجمها على شكل أسئلة مثل:

كيف سيكون أداء بوش؟، وهل سيتأثر بما جرى أثناء الانتخابات؟، هل سيتابع فريق غور معركته بالضرب تحت الحزام عن طريق إثارة فضائح لاحقة في وجه بوش؟.

كيف سيواجه بوش احتمالات موت داعميه الأساسيين؛ وهما والده المصاب باضطراب نبض القلب-السكتة القلبية، ونائبه ديك شيني أصيب بذبحة قلبية أثناء الفرز؟. كيف سيتعامل بوش مع كونغرس منقسم نصفياً؟. هل يتابع بوش سياسة تصدير الفوضى؟ أم يحاول تعقيل الأمور فيتخلى عن الدخل الإضافي والوفرة الاقتصادية الكلينتونية؟.

وماذا عن الشرق الأوسط؟. وبقية العالم؟.

لكن السؤال الأهم يبقى ماذا عن الرئيس نفسه؟. فبمراجعة تاريخ الرؤساء الأميركيين نجد أن الفائزين منهم بنسب أصوات متقاربة، تعكس انقساماً عميقاً بين جماعات الضغط لم يحكموا بصورة طبيعية. فقد اغتيل كينيدي وأجبر نيكسون على الاستقالة، بصورة مذلة وقس عليه. مما يؤكد أن معارك الرئاسة الأميركية الشرسة، تستمر على مدى ولاية الرئيس الفائز بصعوبة.

إن الخوف من تفجر الفوضى الداخلية الأميركية ليس من قبيل الخوف غير المبرر. فهي كانت موجودة منذ زمن كلينتون، الذي صدرها إلى الخارج، وفي جميع الاتجاهات. وعلى بوش أن يدفع ثمن هذا التصدير باهظاً، مما سيجعل فوزه أصعب كثيراً من الخسارة. فتركة كلينتون أثقل كثيراً من الاحتمال، ولعل أبرز مساوئها التالية:

- الضحايا المتخلفة عن استخدام أسلحة اليورانيوم الخامد (ديبليتيد اليورانيوم) في كوسوفو والبلدان المجاورة لها وبين الجيوش الحليفة. عداك عن الضحايا العرب في الخليج وفي فلسطين ولبنان.

- الفائض الاقتصادي البالغ ١١٥ مليار دولار عام ١٩٩٩م الذي حققه كلينتون عن طريق استغلاله للأزمات و توظيفها اقتصادياً على حساب المصلحة السياسية الأميركية.

- تمرد الدول الأوروبية من أعضاء حلف الأطلسي الذين يشعرون بظلم أميركي، يهدد اتحادهم وعملتهم المشتركة. كما يشعرون بأنهم كانوا موضع ابتزاز خلال حرب كوسوفو. إضافة لخسائرهم الاقتصادية المستمرة فيها.

- سياسة كلينتون الشرق أوسطية المتميزة بتورط غير مقبول و بوعود غير قابلة للتنفيذ.

- استفزاز الداخل الأميركي، وبخاصة جماعة الميليشيات البيضاء (الآريين) المعادية لليهود، وللحكومة الفيديرالية لأنها خاضعة لهم.

- الأزمات العالقة التي تركها كلينتون من دون حلول، حتى تحولت إلى الإنتان، وباتت تتطلب قرارات فائقة السرعة لاستحالة تأجيلها لمدد إضافية. ومن هذه المشاكل المنتنة: الحصارات الأميركية متعددة الدرجات على بلدان عديدة، وخصوصاً الحالة العراقية.

ومنها أيضاً التحرك الروسي الذي بدأ يعطي للجنرالات دورهم. وهذا كان موضوع خشية بوش الأب. وهذا التحرك إن هو إلا نتيجة لترك إدارة كلينتون لروسيا كي تواجه فقرها وجوعها بنفسها. وهنا نذكر كتاب جورج شورروش (أزمة الرأسمالية العالمية) وفيه روايته عن دعوته لكلينتون من أجل التدخل للحؤول دون انهيار الاقتصاد الروسي، ورفض كلينتون هذا التدخل. الأمر الذي انعكس بمجاعة روسية لا تزال بوادرها قائمة حتى اليوم. حيث يتحمل الروس الجوع على أمل أن يقودهم بوتين إلى استعادة هيبتهم التي تقيهم من الجوع!؟.

إن قراءة متأنية لهذه الأسئلة، والوقائع، تقودنا الى توقع تراجع اقتصادي أميركي قد لا يكون عنيفاً، ولكنه مؤثر بكل تأكيد. وأيضاً إلى أزمات في بورصة الإلكترونيات، ومعها ضعف داخلي، ليس فقط بسبب ضعف وصول الرئيس، بل يضاف اليه تنامي القوى المعارضة للحكومة الفيديرالية. وأيضاً الحركات الإرهابية التي تريد الانتقام مما تصنفه ظلماً أميركياً. إنه الزمن الأميركي الصعب والصاخب. لذلك علينا، نحن العرب، أن نتريث كثيراً قبل الاستجابة لإغراءات الاعتراف الأميركي، التي يلوح بها الرئيس الجديد، معتمداً على صداقات والده العربية. فالولايات المتحدة قد تكون بلداً غير آمناً خلال السنوات المقبلة!.

٢٨- الإدارة الأميركية
وسياسة البطة العرجاء

١٧/٢/٢٠٠١م

تبدو الولايات المتحدة اليوم وكأنها مارد صنع من الإسفنج. وتعود بداية هذا الانطباع إلى فترة التحضير للانتخابات الرئاسية الأخيرة. حين تمكن اللوبي اليهودي من إظهار نفوذه وتحكمه بإدارة كلينتون. بدءاً بإقصاء بيل برادلي لصالح غور، وهو ابن صديق حميم لليهود، مروراً بترشيح يهودي نائباً للرئيس وصولاً إلى استغلال اللحظات الأخيرة لكلينتون في البيت الأبيض من أجل خدمة اللوبي اليهودي. حتى بلغ النفوذ اليهودي في تلك الفترة حدوداً غير مسبوقة في تاريخ الولايات المتحدة. ومع هذه السوابق المتلاحقة إرباك ساد العملية الانتخابية برمتها. وتجلى بالصراع على أصوات فلوريدا. وهو الصراع الذي خاضه اليهود حتى نهايته على طريقة أسطورة الماسادا اليهودية. وهذه الاستعارة

في مكانها كونها تبين المصالح المتضاربة بين يهود إسرائيل ويهود أميركا. وأيضا لكونها تطرح بطولة وهمية للوبي اليهودي.

وسط هذا الإرباك تحولت الأصوات اليهودية الجمهورية إلى الديمقراطي غور، الذي بلغت نسبة تأييد اليهود له حداً غير مسبوق في تاريخ الانتخابات الأميركية إذ حصل على نسبة ٩٧٪ من أصوات اليهود. وخسر الديموقراطيون في المقابل أصوات أقليات مؤيدة لهم تقليدياً، منها الأقلية العربية والأميركية اللاتينية. كما تحول قسم من أصوات الآريين الأمريكيين لدعم بوش. إضافة إلى الإرباك الناجم عن تزوير الانتخابات، كما في أكثر الدول تخلفاً. وهو تزوير سيحتاج الى وقت كي تتسرب بعض تفاصيله، إذ ضم فريق غور شخصيات اتهمت بالتزوير في انتخاب كينيدي، كما ضم فريق بوش بعض المعروفين بالمهام الاستخباراتية. هكذا خرجت الولايات المتحدة من هذه الانتخابات، وهي لاتختلف كثيراً عن أية دولة من الدول النامية الخاضعة لتأثيرات خارجية، تكبت رغبات ناخبيها وتتجاهل خياراتهم الحقيقية. ومع هذا الكبت مشاعر اضطهاد قابلة للتطور، ولإعادة طرح العديد من تناقضات الموزاييك الأمريكي وإشكالياته. لكن الأخطر هو مواجهة الإدارة الأميركية الجديدة لجملة مآزق لا سابق لها في السياسة الأميركية، فيما بعد الحرب

العالمية الثانية. إذ تمرد الرئيس السابق كلينتون بنجاح منقطع النظير على وضعية (البطة العرجاء)، وهو وصف تطلقه الصحافة الأميركية على الرئيس في آخر سنة لرئاسته، حين يصبح عاجزاً عن اتخاذ قرارات بعيدة الأمد ومقررة، محافظاً على أهمية قراراته وفاعليتها حتى اللحظة الأخيرة في حكمه. ويبدو أن ثمن هذا التمرد سيكون في قدوم رئيس جديد ليبدأ عهده من وضعية (البطة العرجاء). إذ يتوجب عليه العمل للخلاص من قرارات السنة، بل والأشهر الأخيرة من حكم كلينتون. وهي وضعية ستكلف الرئيس الجديد غالياً.

١ – بوش بطة عرجاء

يبدأ جورج ووكر بوش فترته الرئاسية مثقلاً بجملة وضعيات حرجة، يمكن لكل منها أن يتسبب في تحويل السنوات الأميركية القادمة إلى سنوات صاخبة وصعبة. فالانشطار النصفي لمجلسي الشيوخ والنواب يكبل الإدارة الأميركية ويعارض مشروعها الأساسي لخفض الضرائب بقيمة ١,٦ تريليون دولار. كما أن السعي الحثيث للوبي اليهودي لإعادة اعتباره بعد هزيمة ليبرمان تشكل تحدياً لايمكن للإدارة الجديدة تجاهله. خصوصاً وأنها تعرف أنه مستعد للضرب تحت الحزام وفي أكثر الأماكن

حساسية. ومن الفضائح التي لن يتورع هذا اللوبي عن إثارتها نذكر بعض تسريباته المدروسة، المساومة اليهودية المعهودة على طريقة التجزئة مع الاحتفاظ دائماً بتهديد جاهز لمساومة أخرى[1].

ونبدأ بفضيحة تتناول ديك تشيني نائب بوش. حيث يتهم بالتورط في مكاسب مشبوهة في إفريقية عبر شراكته للفرنسيين المتورطين الذين حاكمتهم فرنسا بهذه التهمة ومنهم ابن الرئيس ميتران. كذلك تثار أحاديث عن سلوك شائن لأبناء شقيق الرئيس. وأيضاً التشكيك البالغ الإيحاء بقدرات أعضاء فريق الإدارة الجديدة بدءاً بكولن باول الذي تسوق له صورة العاجز عن إدارة الخارجية الأميركية مع إيحاء بأنه سيكون مجرد ستارة للقرارات المقبلة لهذه الإدارة. عداك عن التهم الموجهة للرئيس نفسه. بدءاً بالقول: إنه وطبقته النفطية المستفيدون الأوائل من مشروع الخفض الضريبي مروراً بشبهات تمويل حملته الانتخابية وصولاً إلى شراكته السابقة مع أسامة بن لادن. إضافة للإرباك الذي يسببه تدخل بوش الأب، وفريقه ووكالة المخابرات (التي رئسها الأب قبل انتخابه). ومع هذا التدخل تبنى الرئيس لمشروع الخفض الضريبي الذي طرحه الجمهوريون على الكونغرس العام ١٩٩٩م، وفشلوا يومها في تمريره. ويبلغ هذا التدخل حدود

---

(١) انظر كتابنا النفس المغلولة.

التفريق بين السلوك الرئاسي الحالي لبوش وبين سلوكه المتوقع في حالة وفاة الأب (٧٦ عاماً)، وكذلك احتمالات الوفاة المفاجئة لديك تشيني. وهذا الإرباك متعدد المصادر يبين لنا معاناة بوش من وضعية البطة العرجاء. وتتكشف هذه المعاناة بصورة أوضح لدى مقارنة سلوك كلينتون في أواخر أيامه، ضغط لعقد اجتماع طابا وتوقيع تسوية سلمية عبره على المسار الفلسطيني، وبين سلوك بوش الذي فضل التريث لرؤية نتائج الانتخابات الإسرائيلية! وكأن الولايات المتحدة لم تعد الناخب الأول في هذه الانتخابات. والذي أرسل باول إلى الشرق الأوسط كي يتجاهل الصراع العربي – الإسرائيلي والانتفاضة، وليحصر حديثه بالعقوبات العراقية، بعد التحذيرات الأميركية الموجهة إلى الأنظمة العربية من أخطار اتساع الهوة بينها وبين الشارع بسبب المسألة العراقية! ثم عمد لإجراء مناورات مشتركة مع إسرائيل عقب انتخاب شارون. وكأن كل ما يملكه هو التأكيد لإسرائيل على التزام الولايات المتحدة بأمنها.

وبالرغم من أن هذه البرودة الشرق أوسطية كانت متوقعة من أية إدارة جمهورية، فإن غموض موقف بوش يتخطى التوقعات لكونه يلامس حدود الاستقالة من الشرق الأوسط، مقابل تعويض تقاعدي بضمان السيطرة على نفطه.

هذا وتمتد وضعية البطة العرجاء على مواقف الإدارة الجديدة في البلقان (ألبان مقدونيا)، وفي إندونيسية كما في أفغانستان. لكن أبرز مظاهر شلل هذه الإدارة، يتبدى في علاقتها مع الشركاء في حلف الناتو. الذين استدرجهم كلينتون إلى فخ كوسوفو، وهم يجهدون للخروج منه. في حين لاتقدم الإدارة الجديدة أية تسوية مقبولة لهذا الوضع. بل إنها تطرح أعباء إضافية على هؤلاء الشركاء. ومنها أعباء مشروع الجدار الصاروخي الأميركي.

في المحصلة تبدو الإدارة الجديدة وكأنها تسعى للحصول على أهداف متعارضة. وهو تعارض كان قابلاً للتجاوز، لولا تركة كلينتون، والآثار الجانبية المستمرة لسياساتها التي صنعها فريقه اليهودي. بحيث تبدو أمنية آل بوش بتجاهل فترة كلينتون أمنية غير واقعية. فهل يفرض شبح كلينتون نفسه على الإدارة الجديدة أم أنها ستنجح في محاولتها للخلاص من هذه التركة الثقيلة المشبعة بالفساد على غرار ما يحدث في الدول النامية؟

٢- كلينتون وتركته الثقيلة

منذ بداية انتخابات الفترة الثانية لكلينتون والجمهوريون يطرحون الجانب الأخلاقي في سلوكه السياسي. بل إنهم أعلنوا مراراً عن قدرته المميزة في استغلال ثغرات القانون الأميركي حتى

النهاية، دون رادع أخلاقي. إلا أن النجاح الاقتصادي لسياسات كلينتون جعل الناخب الأميركي يتغاضى عن النواحي الأخلاقية. فقد كان شعار كلينتون الانتخابي (أميركا أولاً) شديد الجاذبية والتطابق مع عقلية المواطن الأميركي الباحثة عن الرفاهية واللامبالية بالآخر لدرجة إطلاق حريته بقيد واحد هو قيد المصالح الأميركية.

لدى خروجه من البيت الأبيض بدا كلينتون وكأنه لايريد أن يخيب رأي الجمهوريين فيه. إذ خرج بفضيحة عفو رئاسي من الدرجة الأولى. ملقياً بتبعات ثماني سنوات من حكمه على عاتق الإدارة الجديدة. التي أعلنت منذ البداية عن صعوبة تعاملها مع هذه التركة الثقيلة. خاصة أنها تمتد على كامل السياسة الأميركية في الداخل والخارج على حد سواء. وإذا كان المجال هنا لايتسع لعرض أعباء هذه التركة، فإن القضايا الساخنة ممكنة العرض، وأهمها:

١- **الملف العراقي:** الذي تحول للإنتان، بعد عزوف كلينتون عن إيجاد أي حل له تهرب من خطة تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٨م للهجوم الحاسم على العراق، واستبدلها بضربة محدودة تحت شعار (ثعلب الصحراء). ورفض الحسم لا باتجاه رفع الحصار، ولا باتجاه التدخل الفاعل على الطريقة الأميركية. لكن

احداً لاينكر حسن وخبث استغلال كلينتون لهذه الوضعية. بذلك بات بوش يواجه الوجه الإنساني للمسألة العراقية.

٢- **الملف البلقاني:** الذي أبقاه كلينتون معلقاً وقابلاً لإعادة التفجير في شتى الاتجاهات إذ رفض الحسم عن طريق الإنزال البري، ورفض المغامرة بأي ثمن سياسي في كوسوفو، لدرجة رفضه إعلانها حرباً. فإذا ما توقفت الفائدة الاقتصادية الأميركية من هذا النزاع، انسحب منه كلينتون تاركاً للاتحاد الأوروبي دفع خسائر الحرب، وكلفة إعادة الإعمار، ومعهما انتظار الشكل الجديد للصراع في هذه المنطقة المزروعة بألغام الصراع والتناقضات.

٣- **الملف الروسي:** حيث بوتين يتمرد على وضعية يلتسين بدعم من الجنرالات الروس حيث اعتمد كلينتون في المسألة الروسية على استشارات يهود إدارته المرتبطين بيهود روسيا الأثرياء. لدرجة رفض معها التجاوب مع صيحات صديقه جورج شوروش لإنقاذ روسيا من المجاعة. فتركها تواجه قدرها، مما أدى إلى تنامي قوة الجنرالات وصعود بريماكوف الذي استبدل ببوتين. بحيث بات على بوش ومنذ استلامه للرئاسة أن يواجه حماسة الجنرالات الروس، وفوضى الأسلحة الروسية، وطموحات بوتين في التحالف مع أصدقاء الأمس في الشرق الأقصى.

٤- **الملف الصيني:** الذي ازداد غموضاً بعد حادثة قصف السفارة الصينية في بلغراد حيث يؤكد الخبراء في الشؤون الصينية بأن الصين لايمكنها أن تقبل مجرد ادعاء الخطأ في هذه الحادثة، بل هي تريد ثمناً استراتيجياً لمثل هذه الأخطاء. وقدرنا شخصياً في حينه أن تنازلات كلينتون مؤجلة الإعلان وأن من بينها دعم دخول الصين إلى منظمة التجارة العالمية. وهذا ما حدث قبل خروج كلينتون من البيت الأبيض (وإن تأخر هذا الدخول فعلياً لغاية الأن). ولقد تعرض بوش بسبب حادثة طائرة التجسس لامتحان عسير ومبكر في هذا الملف.

٥- **الملف الإسرائيلي:** حيث حول اليهود، في إدارة كلينتون، إسرائيل إلى شريك استراتيجي تتعدى حدود شراكته منطقة الشرق الأوسط إلى القوقاز وإفريقية و أوروبا الشرقية. وصولاً إلى الترشيح اليهودي لحكم الولايات المتحدة، مما يضع الرئيس الجديد في مواجهة غير مسبوقة مع اللوبي اليهودي الذي سيغير وجهة ضغوطاته، من طلب الدعم لإسرائيل إلى المحافظة على مكاسب اليهود الأميركيين المتحققة في ظل إدارة كلينتون. وعلى بوش أن يواجه تصاعد تهديدات إسرائيل العسكرية لتعويض التهاء اللوبي اليهودي عن دعمها.

٦- **ملف حلف الأطلسي:** الذي أدخل عليه كلينتون تغييرات استراتيجية تكاد تكون مرفوضة من قبل الجميع. إذ ترفضه دول الاتحاد الأوروبي؛ لأنه يتعارض مع مبادئ الاتحاد، وروسيا لملامسته حدودها، وغيرها من الدول المعنية. إضافة إلى تعارضه مع الرؤية الاستراتيجية لبوش، وللسياسات الجمهورية إجمالاً؛ إذ تضمن التعديل إغفالاً للمصالح الأميركية في الشرق الأقصى وتنازلاً للأوربيين في شمال إفريقية، وتركيزاً على أوروبا الشرقية والقوقاز، التي لم تعد مهمة بعد اكتشاف ضآلة مخزونها النفطي.

٧- **الملف الاقتصادي:** الذي يأتي ليتمم الآثار الجانبية الخطيرة للملفات المعروضة من قبلُ.

٣ - عقابيل الانتخابات

وصل بوش الابن إلى سدة الرئاسة مثقلاً بنتيجة مشككة نتيجة حصوله على أدنى مستوى من الفارق في الصوت الانتخابي، وعلى أغلبية مشكوك فيها في الكلية الانتخابية. وانعكست معركة الفوارق البسيطة على الكونغرس ومجلس الشيوخ، اللذين قسمتهما الانتخابات بالتساوي، تقريباً، بين بوش الجمهوري، وبين الديموقراطيين. واذا كانت مشاريع بوش الاستراتيجية قادرة على تخطي هذا الانشطار، والحصول على دعم الديموقراطيين

النواب والشيوخ من أجل حماية المصالح الأميركية، وخشية من الفيتو الرئاسي، فإنه لن يحصل على ذلك في كل مشاريعه. وبذلك فإنه يبدأ عهده محاصراً من المجلسين معاً. ولعل في ذلك التفسير لتأكيد طاقمه على صعوبة وثقل تركة كلينتون. ومعها التركيز على فضائح هذا الرئيس الذي أبى أن يترك الحكم من دون فضائح. فكانت فضيحة عفوه عن الميليارديرا اليهودي مارك ريتش. التي تلقفها بوش ليطرحها دليلاً حسياً على تجاوزات كلينتون. الذي استنجد باللوبي اليهودي عبر إعلانه أن العفو تم بناء على طلب مسبق مشروط من باراك، وهنا اعترض اليهود على هذه التهمة، لكنهم سارعوا بالضغط على إدارة بوش لإنهاء التحقيق في هذه الفضيحة. واعتمدوا على ذلك بطلب شهادة محامي ريتش السابق المدعو لويس سكوتر ليبي، والذي يعمل حالياً رئيساً لهيئة موظفي نائب بوش ديك تشيني. وهذا المثال يبين أن فضائح كلينتون تتمتع بحماية اللوبي اليهودي، على غرار حماية اللوبي له أثناء فضيحة مونيكا التي هدفت لمحاكمة مظاهر فساده الأخرى، وبالتالي تعذر اعتماد أسلوب الشكوى من تركة ثقيلة لعدم إمكانية برهنتها.

واذا كان صحيحاً أن العديد من الرؤساء الأميركيين قد حكموا في ظل كونغرس معارض فإن الصعوبات كانت تواجه

فقط أصحاب الرغبة بالتغيير من بينهم. بل إن هذه الصعوبات كانت أكثر بروزاً في حالة الذين كانوا يرغبون في الحصول على أهداف متعارضة وليس فقط بالتغيير. وفي حالة بوش فإنه يسعى للانقلاب شبه التام على سياسات كلينتون، التي يعتبرها الجمهوريون طائشة، إضافة لرغبته في الجمع بين نقيضين اقتصاديين. إذ إنه ينوي تخفيض الضرائب مع تخفيض الإنفاق. وهو هدف فشل فيه والده كما ريغان والعديد من الرؤساء الجمهوريين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن سياسة الجمهوريين تعتمد على خفض الإنفاق، في حين يعتمد الديموقراطيون سياسة السعي لتأمين مصادر للإنفاق. ونظراً لإهمال الجمهوريين لمصادر الإنفاق، فإنهم غالباً ما يعتمدون سياسات الخفض الضريبي. إلا أنهم غالباً ما يفشلون في الجمع بين الاثنين معاً. فقد حاول ريغان مثل هذا الجمع، وشن حملة انفعالية على الحكومة متهماً إياها بالإنفاق الزائد، ولكنه فشل في الحد من الإنفاق. خاصة وأنه رغب في ذلك مع رغبته بالإنفاق على مشروعه (حرب النجوم) وهما رغبتان متعارضتان. كذلك فشلت محاولات الكونغرس الجمهوري في خفض الضرائب تحت حكم رؤساء ديموقراطيين وقس عليه. أما بوش الأب الذي وافق على زيادة طفيفة في الضريبة، كتنازل لخفض الإنفاق. ونجح في ذلك، لكنه واجه

معارضة اليمين الجمهوري. ونأتي إلى الابن لنجده راغباً بالجمع بين خفض الضرائب والصرف على مشروع (الجدار الصاروخي) وخفض الإنفاق. وهي رغبات تبين قراءة السوابق الأميركية استحالة الجمع بينهما. مع ملاحظة أن فشل بوش في هذا الجمع لن يمر من دون حساب. فتشكيك الجمهوريين في سياسة كلينتون الديموقراطي يجعلهم أمام امتحان لإثبات نجاح أفكارهم الاقتصادية. فإذا ما ثبتت استحالة تطبيق هذه الأفكار أو فشلها، فإن مصداقية الرئيس وحزبه ستكونان موضع شكوك. أضف إلى ذلك أنه وفي حال استمرار الفوائض في الميزانية، فان ذلك سيعني أن كلينتون كان على حق في سياساته. وأن هذه السياسات كانت قابلة للاعتماد على عكس الدعاية الجمهورية. ويزداد الوضع حراجة بسبب حدة التنافس الانتخابي التي أجبرت الطرفان المتنافسان على طرح هذه الإشكاليات على الجمهور. ليبقى هذا الجمهور حكماً مراقباً وطرفاً في هذه الخلافات. وسيكون عبء هذا الحكم ثقيلاً في الانتخابات القادمة. فإذا ما خسر بوش رهاناته الاقتصادية فإن ذلك سيعني خسارة الجمهوريين لثقة الناخبين لعدة سنوات قادمة. وهذا الرابط بين سلوك بوش ومستقبل الحزب الجمهوري سوف يؤدي إلى عجزه عن ضبط الجمهوريين الفاعلين، وعن كسب تأييدهم بالسهولة

المعتادة. مع الإشارة إلى أن العرج الأكبر في بداية رئاسة بوش متعلق أيضاً بظروف الانتخابات. إذ اضطر للاستعانة بنافذين جمهوريين أقوياء. وأدخلهم في إدارته ليصبحوا أكثر منه فعالية. أو على الأقل فإن هذا ما تثبته الظواهر الأولى لسلوك بوش. حيث ترى النيوزويك أن ديك تشيني قد تخطى مهمات نائب الرئيس التقليدية. وأنه كان سبباً لخوف كولن باول من هيمنته إذ اشترط باول ألا يقع تحت تدخلات تشيني في وزارته. إضافة إلى ما تبينه إحصاءات الثروة عن كون بوش أقل ثروة من الفاعلين في طاقمه الرئاسي.

لمجمل هذه الأسباب يمكن قبول الرأي القائل بدخول بوش إلى الرئاسة، وهو بطة عرجاء!. مما يستتبع سؤالاً مكملاً هو: كيف سيخرج منها إذن؟.

وكنا قد عرضنا لجوابنا الشخصي على هذا السؤال عن طريق المقارنة بين خروج الرؤساء الحاكمين بأقلية أصوات وبين خروج بوش. إلا أن ما يستأهل التوقف عنده في هذا السياق هو أن بوش يبدو إضافة إلى كل ماسبق أحد أسوأ الرؤساء الأميركيين حظاً. إذ لم يكد يتسلم الرئاسة، حتى انهارت على رأسه المصائب المتنوعة. وكل منها امتحان عسير لرئيس في مثل ظروفه.

٤- مصائب بوش الابن

بعض مصائب الأشهر الثلاثة الأولى في ولاية بوش قد تبدو نتيجة منطقية للتغيير من سلوك كلينتون وأجوائه إلى سلوك وأجواء جديدة ومخالفة. وبعضها يمكن تبريره بأنه من بقايا معركة طاحنة ومن آثارها الجانبية. إلا أن قسماً هاماً من هذه المصائب، لايمكن إبعاد صفة الحظ السيئ عنه. وهذا النوع من المصائب هو الأكثر بروزاً وخطورة. وأهم هذه المصائب:

١- غرق الباخرة اليابانية. الذي أعاد إحياء المطالبة بخروج القوات الأميركية من اليابان، في الوقت الذي تتركز فيه الاستراتيجية الأميركية الجديدة في تلك المنطقة.

٢- الخطأ العسكري في مناورات الكويت. الذي أعاد طرح مستوى ذكاء الأسلحة الذكية الأميركية. بما يحرج الوجود الأميركي في المنطقة. أقله على صعيد الرأي العام.

٣- اصطدام طائرة التجسس الأميركية بطائرة صينية، وإجبارها على الهبوط في مطار صيني. مما أدى لاندلاع أزمة أعادت إحياء أزمة السفارة الصينية، وأحرجت بوش بعد أن كانت إدارته قد بدأت بتوجيه قائمة من التهم للصين. ومما لاشك فيه أن الصين لن تساهم في حل هذه الأزمة ما لم تحصل على

تراجعات استراتيجية أميركية. تستدعي إعادة حسابات الخطط الأميركية في المنطقة.

٤- طواعية النقاط الثلاث السابقة لاستخدام الرئيس بوتين ومساعدتها له على تسهيل اتصالاته ومشاريعه في المنطقة. وهي بالطبع معاكسة للتوجهات الأميركية فيها.

هذه المصادفات السيئة لابد لها من التسبب في زيادة عرج البطة الداخلة حديثاً إلى البيت الأبيض. فهي أزمات لايسهل التعامل معها. وربما كان من الأفضل لبوش أن يبدأ عهده بالاعتذار من الصين على أن يكمله تحت تأثير ما عبر عنه الرئيس نيكسون بالقول: ((**إذا فقد الصينيون ثقتهم بالولايات المتحدة، فليس ثمة مساعدة تجارية أو مالية، مهما بلغت قيمتها، من شأنها الإبقاء على العلاقات الأميركية — الصينية سارية المفعول. فإذ ذاك ستلجأ الصين إلى نمطها التاريخي في احتواء أعدائها والأمل بامتصاصهم**))[1].

إن الأشهر الأولى من الولاية الأميركية الجديدة، لاتبدو باعثة على التفاؤل، فهل يستمر الحظ في معاكسة الرئيس الجديد، فيدفعه بالاتجاه الكلينتوني الذي استبدل الاستراتيجية بمذهب الكسب الربوي اليهودي الذي لايميز الصديق من العدو، كونه يرى في الجميع مواضيع قابلة للابتزاز؟. أم أن ذلك سيعجل بإنهاء ولايته قبل أوانها على غرار سابقيه من رؤساء الفوارق الانتخابية

(١) انظر مذكرات نيكسون.

الضئيلة، كينيدي ونيكسون وغيرهما؟. أم ترى أنَّ مستقبل بوش مرتبط بالطريق الثالث، وهو طريق الرؤساء الأميركيين الذين أدخلوا تعديلات أساسية على علاقة بلادهم مع إسرائيل. فكان منهم جيمي كارتر الذي خطا خطوات غير مقبولة يهودياً من منظمة التحرير. وقبله كان كينيدي الذي اطلع على البرنامج النووي الإسرائيلي، وحاول تعويقه، تقول إحدى الفرضيات: إنه قتل لهذا السبب، وبعده بوش الأب الذي قلص الدور الإسرائيلي في المنطقة ليقتاد إسرائيل بعدها إلى مؤتمر مدريد. وكذلك نيكسون الذي حاول تطبيق معادلة رفع سقف الدعم الاقتصادي لإسرائيل في مقابل خفض سقفها الاستراتيجي. وصحيح أن البعض يربط بين نظرية المؤامرة وتضخيم الدور اليهودي، وبين هذا الطريق الثالث، إلا أن المعطيات المتوافرة حول صراع هؤلاء الرؤساء الخفي مع اللوبي اليهودي تثبت واقعية هذا الاحتمال. وإن كنا نرجح أن يكون مستقبل الرئيس الجديد عرضة للتأثيرات المتداخلة لكل الاحتمالات الثلاثة المعروضة أعلاه. بما فيها احتمال تحوله لاسترضاء اللوبي اليهودي إذا ما تعرضت خططه الاقتصادية للإحباط. وهو إحباط يبدو مؤكداً في نظر العديد من المحللين الأميركيين. وهو يزداد تأكيداً في حال توج سوء طالعه بوفاة والده وديك تشيني.

الفصل الخامس

الولايات المتحدة في الزمن الصعب

نستعيض عن التمهيد لهذا الفصل بالمقالة التالية المنشورة في ٢١ /٩/٢٠٠١م نظراً لتسارع الأحداث في هذه الفترة. حيث الأسئلة المطروحة في هذه المقالة هي أسئلة عشرة أيام بعد الحوادث. وهي حكماً مختلفة عن أسئلة المقالة التالية لها، والمشكلة لهذا الفصل الخامس.

٢٩- قراءة في الكارثة الأميركية الجديدة وانعكاساتها

٢١/٩/٢٠٠١م

عندما تبلغ أمة ما هذا المستوى من القوة فإنه من غير المستبعد أن تفقد حكمتها وعدالتها واتزانها لتصبح خطراً على البشرية.

فتفقد قوتها، لكنها قد تستعيدها لو هي عادت إلى هذه الفضائل.

جون آدامز ١٧٧٨م.

إن ماجرى صبيحه الثلاثاء ٢٠٠١/٩/١١م يقدم نموذجاً مميزاً للدراسات النفسية للكوارث. إذ تتوافر في هذه الكارثة كافة شروط الكارثة الصاعقة من وجهة طبنفسية. وأهم شروطها التالية:

- **أنها غير متوقعة:** حيث التوقع يتيح الوقت للاستعداد لمواجهة الكارثة، ولتخيل أضرارها، بما يساعد لاحقاً على سرعة تعقيلها، واستيعاب أبعادها، وبالتالي سرعة التعامل معها.

- **أنها غير ممكنة التجنب:** وهنا تلعب سرعة التنفيذ، وتسلسل الأحداث والتخدير الحسي أدوارها، في العجز عن تقليص آثار الكارثة، أو التخفيف من انعكاساتها المباشرة.

- **جمعها بين التهديد الفردي والتهديد المعنوي:** حيث طاولت الكارثة رموزاً ذات طابع معنوي ورمزي، إضافة إلى ضحاياها بالآلاف وتهديدها التوقعي لكافة السكان في نيويورك وواشنطن.

- **عجز ممثلي القانون والسلطة عن التدخل لمنع الكارثة أو الحد من آثارها.**

- **كونها اصطناعية:** حيث تتجه انفعالات الجمهور المتعرض للكارثة باتجاه صانعها. ويتحول هذا الاندفاع إلى الفوضى العارمة في حال عدم تحديد الفاعل.

- **كونها كارثة ذات طابع وطني عام:** بحيث يطاول التهديد الانتماء نفسه. ويطرح مشكلة اغتراب المواطن داخل مجتمعه. فيشجع احتمالات الانقسام والتفكك. بحيث تجتمع الانتماءات الضيقة (العرقية والدينية والعائلية ...إلخ) لتحتمي بانتمائها. وأحياناً لتصادم الانتماءات الأخرى، وتتبادل التهم معها. ويتعمق هذا التفكك بغياب معرفة العدو المتسبب بالكارثة.

- **إحياء ذكريات الكوارث السابقة:** لم تتعرض الولايات المتحدة في تاريخها لكارثة بهذا الحجم. إلا أنها تعرضت لكوارث متعددة من طبيعية، انهيار سد بوفالو كريك، وزلزال سان فرنسيسكو، والأعاصير الكثيرة ...إلخ، واصطناعية كان آخرها تفجير أوكلاهوما. وفي مناسبة مثل الثلاثاء الأسود، فإن الذاكرة الجمعية تستجمع بمجمل هذه الذكريات الصدمية، وتعيد إحياءها. مما يتسبب بمضاعفة الانفعالات.

مهما يكن فإن أحداث الثلاثاء الأسود ليست بالكارثة العابرة. فهي من نوع الكوارث التي تدخل في الذاكرة الجمعية للشعوب،

وتسطر في تاريخها. وذلك بغض النظر عن متغيرات الراهن السياسي والدوافع العابرة لتبريرها الرد فعلي، ومحاور الصراع الآنية.

من هنا، فإن دراسات هذه الكارثة ستتجاوز العلاج النفسي للضحايا، إلى دراسة التحولات في سلوك الجماعات الأميركية. ومنها إلى المتغيرات السياسية والفكرية الأميركية عقب الكارثة. فعلى صعيد الاختصاص، فإن مراجعة الدليل الأميركي لتشخيص الاضطرابات العقلية سوف تضم تعديلات أساسية على الآثار النفسية للكارثة وملحقاتها. بحيث لايعود التشخيص الأميركي للحالات الكارثية سطحياً، كما هو لغاية الآن، مما جعلنا نوجه النقد إلى سطحيته في مناسبات اختصاصية عديدة.

ولكن ماذا عن المراحل التي تمر بها ردود الفعل الكارثية؟.

يحدد الطب النفسي هذه المراحل بتقسيمها اصطناعياً إلى المراحل التالية:

١- **قبل الكارثة**: حين يتم تدريب الجمهور على السلوك تجاه الكارثة، وانتقاء أعضاء فرق الإنقاذ والقوى الأمنية المسؤولة عن تقنين انفعالات الجمهور وتوجيهها بالاتجاهات الصحيحة، منعاً للأخطاء التي يمكنها أن تؤدي إلى زيادة أضرار الكارثة. وفي حالة

الثلاثاء الأسود تلغى هذه المرحلة لكون الكارثة فجائية من دون إنذار مسبق.

٢- أثناء الكارثة: ويتم خلالها توجيه الجمهور، واتخاذ جملة الخطوات الآيلة إلى الحد من أضرار الكارثة قدر الإمكان.

٣- ما بعد الكارثة: وتقسم بدورها إلى أربع مراحل هي:

- مباشرة بعد الكارثة: حيث يجري تقنين انفعالات الجمهور، ورغبته الانتقامية من المتسببين بالكارثة، بحيث يتولى ممثلو السلطة مسؤوليات إعادة مشاعر الأمان للجمهور، وإظهار قدرتهم على السيطرة على الوضع، ومنع تكرار الكارثة، كما القدرة على الانتقام من المتسببين بها. مع تقديم العلاج للحالات المتضررة جسدياً ونفسياً من الكارثة.

- في الأسابيع التالية: بعد أن تم التحكم بالانفعالات وتقنينها في السبل السليمة يبقى على مسؤولي الأمن، تأكيد سيطرتهم على احتمالات تكرار الكارثة وطمأنة الجمهور إلى وجود خطوات أمنية كافية للحماية. مع القدرة على إصلاح آثار الكارثة، وتعقب المتسببين بها، وإخضاعهم للقانون.

- في الشهور التالية: وهي فترة كافية ليستوعب الجمهور أحداث الكارثة ونتائجها وأضرارها، بحيث تتحول معايشتها من

قبل الجمهور إلى معايشة فردية. في مقابل تحول الكارثة إلى حدث تتحمل السلطة مسؤولية متابعته وإزالة عواقبه. مع استمرار تقديم العلاج للحالات المتضررة.

هذا من الناحية الاختصاصية النظرية، أما عن تطبيقها في حالة الثلاثاء الأسود، فإنه يثير العديد من الأسئلة، ومن ضرورة مناقشة التفاصيل وأهمها:

- المسارعة لاتهام العرب بالكارثة، فالجمهور الأميركي يعتقد أن كل العرب مسلمون، وأن كل المسلمين عرب. وعليه فإنه لايفرق بين العربي وبين المسلم، مع استبدال كلمة عربي بمصطلح الشرق أوسطي. وذلك على غرار ما جرى في حادثة أوكلاهوما ١٩٩٥م. بما يدفعنا إلى السؤال عن أسباب بقاء العرب المتهم الجاهز في لاوعي الجمهور الأميركي.

- كانت السلطات الأميركية مضطرة لقبول اتهام الجمهور، لعدم إمكانية توفير معلومات مضادة بالسرعة اللازمة. والجمهور يحتاج إلى تعريف للعدو. فبقاؤه مجهولاً يضاعف ذعر الجمهور. وهنا استغلت السلطات الحملات الإعلامية للإدارة السابقة، كان كلينتون يصنع الأعداء ويخترعهم لتبرير سياساته، ضد بن لادن فوجهت الأنظار باتجاهه.

- نتيجة لهول الكارثة والذعر المرافق لها، وعدت السلطات بتبني رغبة الانتقام عند الجمهور، واتخذت خطوات دبلوماسية، وأجرت تحركات عسكرية في هذا الاتجاه.

- جاءت الكارثة لتعزز العديد من توجهات الإدارة الجمهورية الجديدة. التي كانت تهيئ نفسها لمواجهات من نوع آخر. لذلك فهي استقبلت الكارثة بالجهوزية اللازمة لمواجهة احتمالاتها. بما يستتبع السؤال عن توظيف الكارثة لدعم توجهات الإدارة الجديدة. وتصوراتها لتعزيز موقع الولايات المتحدة في العالم.

- شكل الاقتصاد نقطة الضعف الأولى في مشروع الإدارة الجديدة. بحيث مالت التوقعات الاقتصادية إلى التشاؤم. ولاشك أن الكارثة قد ألحقت أضراراً بليغة في الاقتصاد الأميركي. لكن التعاطف المصاحب للكارثة قادر على إصلاح هذه الأضرار. وهذا ما أثبتته تعليقات المسؤولين الاقتصاديين العالميين من رسميين ومصرفيين. لكن تجربة قطع التيار، إيقاف التعامل في بورصة وول ستريت، لغاية الإثنين في ١٧/٩/ ٢٠٠١م ستكون الحكم. فإذا ما كان تدني المؤشرات، يستدعي إعادة توقيف البورصة، فإن ذلك سيكون عائقاً في وجه التحرك العسكري، وربما مانعاً له ودافعاً لاعتماد خطة طوارئ اقتصادية. فمن الطبيعي أن تحظى وول ستريت بدعم الأصدقاء وأصحاب المصالح في البداية. إلا أن هذا

الدعم لايمكنه أن يكون مستمراً فيما لوعجزت البورصة عن استعادة قدرتها على ضبط مؤشراتها. وهنا يطرح السؤال عن إمكانية جعل البورصة بمنزلة الضربة الثانية بعد ضربات الثلاثاء الأسود.

- هل تستمر الولايات المتحدة في قرع طبول الحرب، لو استمر تعثر بورصتها؟.

- هل تستغل الإدارة الجمهورية، حركة الجمهور، لدفعه باتجاه سياساتها غير الشعبية؟.

- هل يحمل الجمهوريون مسؤولية ثغرات النظام الأمني لكلينتون، بسبب إهماله للناحية المخابراتية، وبسبب تهربه من المواجهات؟.

- هل كانت الولايات المتحدة لتصنف إسرائيل دولة إرهابية لو كان منفذو الهجوم يهوداً؟. وقد يكون من المجدي التذكير هنا بحكاية الملياردير اليهودي مارك ريتش، حيث أصدر كلينتون عفواً خاصاً عنه.

- إن الحجم المعلن عنه أميركياً للضربة لايحتمل خطأً شبيهاً بخطأ ضرب مصنع الأدوية السوداني.

٣٠- الولايات المتحدة في الزمن الصعب

٢٠٠١/١٠/٢٣م

.. على أعداء الولايات المتحدة أن يدركوا أننا نتحول إلى حمقى إذا ضربت مصالحنا.. بحيث سيصعب التنبؤ بما قد نقوم به بما لدينا من قوة تدميرية غير تقليدية. وعندها فإنهم سوف ينحنون خوفاً منا..

الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون

تبدو هذه الكلمات وكأنها لسان حال بوش بعد تعرضه لصدمة الثلاثاء الأسود. بل إنها تلخص كامل سلوكه وتصرفاته بعدها. حتى يصعب التصديق بأنه لايعرفها، وبأنه لايتصرف وفقها. فإذا صدقنا ذلك تصبح رعونة بوش من النوع الولادي. إلا أننا وجدناه يعود فيضبط انفعالاته ويعلن، أن العداء ليس موجهاً للإسلام، وأن الحرب التي يدعو إليها ليست صليبية، وأن على الأميركيين أن يحسنوا معاملة مواطنيهم ذوي الأصول العربية... إلخ.

علماء نفس السياسة في أميركا يصنفون نيكسون وبوش الابن في خانة واحدة. هي خانة (المنفعل السلبي) العاجز عن كبت انفعالاته وعدائيته. وهو عجز يولد لهذا النمط مشاكل كثيرة. منها ما يتعرض له بوش راهناً نتيجة لتسرعه، وعجزه عن التحكم بعدائيته، نحو جماعات تمثل ثلث البشرية، وتؤثر في قسم لابأس به من الباقي. بل تتحكم بهم إذا ما أتيحت لها حرية الاستفادة من ثرواتها. وبقية هذه الشعوب مستفزة ليس لاتهام بن لادن، ولكن للتعجل باتهام الشرق أوسطيين وبعدها بن لادن. فهذا التعجل يأتي بعد تجربة أوكلاهوما وبراءة الشرق الأوسط منها. وهو يدفع لطرح قائمة طويلة من الأسئلة، لم تكن لتطرح لو تريث المسؤولون الأميركيون في إلقاء التهم وأهمها:

١- كشفت المخابرات الأميركية في العام الأخير عن عدة شبكات تجسسية. منها الصيني والروسي والإسرائيلي..إلخ من الاختراقات المنشورة في الصحافة الأميركية. وهي تعدّ فضائح ناجزة لهذه المخابرات، ودلائل دامغة على اختراقها. بحيث كان من الواجب أن يبدأ التحقيق بحوادث الثلاثاء من هذه الاختراقات، وليس من الشرق الأوسط ودوله.

٢- هل كان من المناسب قطع الطريق أمام الشرق الأوسط للإعراب عن مشاركته الوجدانية للشعب الأميركي بتحويله إلى

المتهم الجاهز ،على طريقة الكبش، لمثل هذه العمليات. مع ما تلا ذلك من تجاوزات بحق الأميركيين العرب والشرق أوسطيين.

٣- كيف تحولت التحقيقات الأميركية إلى مثل هذه الدرجة من الجهوزية والقدرة على التعرف إلى الجناة في أقل من أربع وعشرين ساعة!؟. وهي التي، أخطأت في أوكلاهوما وفي لوكربي وعجزت عن كشف ملابسات انفجار أتلانتا ١٩٩٤م، وسقوط طائرة الركاب المصرية ٢٠٠٠م، وحتى اغتيال الرئيس كينيدي!.

٤- أمام القدرة التنظيمية والاختراقية للعمليات كان من الواجب تقنين انفعالات الجمهور باتجاه جانٍ أو مجموعة جناة لاستيعاب الذعر والغضب. وربما جاء اختيارنا كضحية جاهزة نتيجة تقصيرنا في تعريف الأميركي العادي على ثقافتنا وقضايانا. بل ربما كان لسيل الكتب المسيئة للعرب وللمسلمين دورها في هذا الاختيار. وكنا نحن مقصرين في توضيح الحقائق. إلا أن كل تقصيرنا هذا لايعني بحال تهديدنا وإرهابنا بالجملة.

٥- أليس من المضحك تخصيص جائزة ٥ ملايين دولار للقبض على ميلياردير مثل بن لادن؟. وهو القادر على دفع هذا المبلغ كبقشيش لو أراد!. في حين تنفق ٦ مليارات دولار على مكافحة الإرهاب الداخلي الأميركي؟.

٦- حتى في حال ثبوت التهمة على بن لادن، فهل يبرر ذلك اتجاه معاداة العرب. وصولاً إلى قتل قبطي مصري لأنه عربي؟.

٧- ماذا يعني الاستمرار في حشد القوات الأميركية في المنطقة المحيطة بأفغانستان. بما يرافقه من تهديد لكافة دول الجوار بما فيها روسيا والصين؟.

٨- ماذا عن مستقبل الولايات المتحدة وعلاقاتها الدولية والعربية خاصة؟. وهذا هو السؤال الأهم الذي لايدعي أحد قدرة الإجابة عنه. لأن الولايات المتحدة قد دخلت في الزمن الصعب. الذي غالباً ما يكون مليئاً بالمفاجآت غير المتوقعة العصية على الاستبصار.

وسط هذه الأسئلة والغموض الذي يلفها، نحاول مقاربة الموضوع عبر المحاور التالية:

١- المحور السياسي

يتفق الباحثون والمحللون على كون العالم تعرض لتغيير جذري في اليوم التالي للثلاثاء ٢٠٠١/٩/١١م، وهذا الاتفاق يقودنا لمحاولة استبصار هذا التغيير، وتحديد احتمالاته واتجاهاته الممكنة. عبر قراءة تحليلية تكاد تكون فاقدة للمعلومات الخاصة بالحدث نفسه. لكنها تستند إلى معرفة كافية بالظروف والملابسات السابقة لليوم للحدث.

واستناداً إلى هذه المعرفة نفترض أن معرفة الخفايا إنما تبدأ من القدرة على طرح الأسئلة. التي نبدأها على المحور السياسي بالسؤال التالي:

أ - توظيف الحدث لاستكمال استراتيجية المصالح المحددة سابقاً

إن البراغماتية الأميركية تقوم على مثل هذا التصرف. وعليه فإنها ستحاول، دون شك، استثمار الحدث وتوظيفه لخدمة مصالحها. لكن هذه البراغماتية ليست بالغباء الذي يجعلها مصرة على استراتيجياتها السابقة. فهي تملك المرونة الكافية لتعديل هذه الاستراتيجيات وفق الشروط المستجدة راهناً. حتى لو اقتضى ذلك إحداث تغييرات أساسية في التحالفات والتوجهات. إذ إن المهم هو خدمة المصالح. لكن الأصعب في الموضوع هو تحديد وجهة هذه المصالح. وهنا يبلغ التردد الأميركي مداه. وهو قد تظاهر منذ بداية الأزمة ولايزال يتفاقم. حتى بات من الصعب التنبؤ بالخطوة الأميركية التالية. فقد تحولت باكستان من دولة مارقة محاصرة إلى حليفة مؤهلة لمعاودة جدولة ديونها. وتركز الإرهاب العالمي مؤقتاً في أفغانستان. وتحولت الحرب من ضربة ساحقة إلى حرب ممتدة تدوم عشرة سنوات، وتقتضي مكوث القوات الأميركية في المنطقة، وحلولها ضيفة على أصدقائها فيها.

لتعود فتهدد باحتمالات الحمق باستعمال أسلحة الدمار الشامل. وغيرها من مظاهر التردد المنتظر تحديداً أفضل للوجهة الجديدة لمصالح أميركا في المنطقة. الأمر الذي يشجعنا على الاستمرار في محاولة تبين العوامل الموجهة لهذه المصالح.

ب - دعم المخابرات الأميركية وتفعيلها

وهو هدف معلن لكافة الرؤساء الجمهوريين. لكنه يتحول إلى غاية مع بوش الذي بنى مشروعه الرئاسي على هذا الأساس. حيث بدأ منذ دخوله إلى البيت الأبيض السعي لاستبدال سفراء من المخابرات بالسّفراء الأميركيين في المناطق الحساسة. وهو قد وظف الأحداث لخدمة هدفه هذا. إذ تضمنت الـ ٤٠ مليار دولار التي أقرها الكونغرس لمواجهة الكارثة ١٠ مليارات للمخابرات. تلاها زيادة ثلاثة مليارات دولار سنوياً لدعم مكافحة الإرهاب الداخلي، (أصبحت ميزانيته ٩ مليارات دولار). عداك عن رغبة بوش الواضحة (شبه المعلنة) في عودة المخابرات، للقيام بعملياتها السوداء لتأمين موارد إضافية تتيح لها توسيع نشاطاتها وتطويرها. بدلاً من تلزيم هذه العمليات المربحة للآخرين. وتفعيل المخابرات لايعني فقط عودة نفوذها وتدخلاتها الفاعلة في الداخل والخارج، لكنه يعني أيضاً **نهاية العولمة**، حيث لن يعود هنالك وجود

لحريات الاتصال ولسرية انتقال الأموال. وحيث الحصار سينتقل من مستوى الدول إلى مستوى الأفراد، فينفي حرية السوق ويقيدها، ويقضي على مفهوم السوق الذي استندت إليه نظرية العولمة. وبالنظر إلى هول الصدمة الأميركية، فإن الإدارة لن تجد أمامها غير المخابرات، لتعينها على استعادة زمام الأمور. بما يؤكد عودة التنصت على الأشخاص، حتى يُبرّأ نيكسون من ووترغيت، والتدخل المباشر في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، وصولاً إلى عودة المخابرات للتورط في الاغتيالات والانقلابات. مع فارق بسيط هو القانون الذي يسمح بتنفيذ هذه العمليات بمعرفة الرئيس، ولكن من دون إذنه. فإذا ما انكشفت إحدى هذه العمليات السوداء أمكن للرئيس نكران معرفته بها.

جـ - القواعد الأميركية في الشرق

كان غياب الاتحاد السوفياتي مثاراً لسؤال، عن فعالية القواعد العسكرية الأميركية المعدة خصيصاً لمواجهة الشيوعية. وتفرع عنه سؤال أميركي عن دواعي الإنفاق على قواعد من دون دور أو هدف. ونجم عن هذه الأسئلة تقليص لبعض القواعد، مما عزز مطالبة بلدان أخرى بإزالة القواعد الموجودة لديها. فإذا كانت قواعد النفط مبررة بدور استراتيجي، فإن قواعد اليابان لاتملك

مثل هذا الدور. عداك عن تجاوزات جنود هذه القواعد للتقاليد اليابانية والإحراج الناجم عنها. بما أدى إلى بحث مسألة إنهاء هذه القواعد جدياً خلال عهد كلينتون. ولم يحل دون ذلك سوى تحركات كوريا الشمالية في مجال إنتاج وبيع الصواريخ طويلة المدى. وزادت الأمور تعقيداً مع مجيء بوش بسبب اصطدام باخرة صيد يابانية بمدمرة أميركية. لكن سياسة بوش ومشروعه يطمحان إلى استعادة القواعد الفيليبينية، ويستبعدان أي تقليص للحضور الأميركي في الشرقين الأدنى والأقصى. ولعل حوادث الثلاثاء واندفاع بوش وراء اتهام بن لادن يبرران هذه العودة، ويضيفان إليها قواعد جديدة لم تكن في الحسبان. حيث القواعد في باكستان طليعة هذه الموجة الجديدة من القواعد الأميركية.

د - النفط .. النفط

رفضت الولايات المتحدة ، ومعها الدول المستفيدة من النفط العربي، خاصة دول الاتحاد الأوربي، مجرد مناقشة فكرة إدراج النفط كسلعة من سلع منظمة التجارة العالمية أسوة بالمواد الأولية والصناعية الأخرى. فهذا الإدراج يرفع سعر النفط بصورة شديدة الضرر على الدول السبع الكبرى أولاً. أما إدارة بوش فهي تولي للنفط وأسعاره أهمية غير مسبوقة. إذ تعدّ أن التحكم بسعر النفط

هو صمام الأمان للاقتصاد الأميركي. وسرعان ما أثبتت هذه الإدارة صحة توجهها. فبعد حوادث الثلاثاء، كان من الطبيعي أن يرتفع سعر البرميل بما بين (٦ و١٠ دولارات). لكن الأوبك أصدرت بياناً أعلنت فيه عدم رفع الأسعار. ثم جاءت عودة وول ستريت، بعد أسبوع من إقفالها، الإثنين في ٢٠٠١/٩/١٧م يوم خسر مؤشر (داو جونز) ٦٨٤ نقطة، (أكبر خسارة له كانت ٥٠٨ نقاط في ١٩٨٧/١٠/١٩م بما اعتبر يومها كارثة اقتصادية). ونتيجة للاستعدادت المسبقة توازن السوق في اليوم التالي كي يعود إلى فقدان توازنه مجدداً. وهنا بدأ دور النفط، حيث وجهت المضاربات باتجاهه، فتدنى سعر البرميل تدريجاً حتى وصل هذا التدني إلى ٤ دولارات في يوم واحد هو يوم ٢٠٠١/٩/٢٤م، وعندها فقط سجل مؤشر داو جونز أول ارتفاع له. وذلك دون إلحاق الضرر بالأسواق الأوربية واليابانية. لأن هذه الأسواق تستفيد من انخفاض السعر، وتتضرر من ارتفاعه، بصفتها مستهلكة. وهذه التجربة ترسخ تشبث الولايات المتحدة بالنفط وبحيوية سيطرتها على منابعه وأسعاره. بحيث يمكن القول: إن صراعها القادم سيكون في هذا الاتجاه تحديداً. لذلك فإنها ستسعى لكي تكون تعويضات الثلاثاء تعويضات نفطية.

هـ - مناعة الاقتصاد الأميركي

الركود الاقتصادي الأميركي بسبب السياسات الجمهورية كان متوقعاً. وهو قد بدأ بمجرد إحساس الجمهور بأن بوش الجمهوري قادم إلى البيت الأبيض، بدأ الركود في النصف الثاني من العام ٢٠٠٠م. وجاء بوش بالفعل ومعه مشاريع ورؤى اقتصادية مستحيلة. مما عزز توقعات الركود. لكن معركة بوش كانت في أيدٍ أمينة. إنه ألان غينسبرغ الخبير الاقتصادي البارع والعارف بدواخل الاقتصاد الأميركي وخباياه، عبر المدة التي قضاها في منصب مدير البنك المركزي الأميركي منذ أيام ريغان حتى بوش الابن. وتصل خبرة غينسبرغ إلى حدود مسايرة الرؤساء في تصورات يعرف مسبقاً فشلها. لكنه في المقابل يملك حرية التصرف بما تمليه مصلحة الاقتصاد الأميركي.

ولكن ماذا تستطيع عبقرية مثل غينسبرغ فعله أمام كارثة من نوع ذلك الثلاثاء؟. الخسائر تقدر بتريليون ونصف من الدولارات، ثقة المستثمر بالاقتصاد الأميركي تهاوت إلى أدناها، نفقات تحريك الجيوش وقرع طبول الحرب تزيد الأمور تعقيداً، البطالة تتفاقم، والخوف من تكرار الكارثة يشل كل حركة اقتصادية. مما يجعل الاستمرار في هذا الوضع مستحيلاً، ويدخل الاقتصاد الأميركي في غرفة العناية المركزة. بحيث يمكن القول: إنه لم تعد هنالك حلول تقليدية لإنقاذ الاقتصاد الأميركي.

و - السياسة الأميركية والمراجعة الشاملة

ابتداءً من اليوم التالي للثلاثاء الأسود، لم يعد بإمكان العالم أن يبقى على ما كان عليه في الاثنين الذي سبقه، لقد تغير العالم. وعادت صرخات هنتنغتون لتلقى آذاناً صاغية. فقد تآكلت المصالح الأميركية طيلة العقد الفاصل بين سقوط جدار برلين وذلك الثلاثاء. وكان هذا التآكل بسبب عدم إعادة توجيه المصالح الأميركية وفق مستجدات واقع ما بعد الشيوعية. أما الآن، فإن إعادة توجيه المصالح لم تعد قابلة للتأجيل، بالرغم من الجراحات العسيرة التي تقتضيها. خاصة وأن مبدأ الصدام ممنوع بضغط الاقتصاد، فكيف يمكن للولايات المتحدة تعديل وجهة مصالحها؟ وما نوعية الانقلابات الاستراتيجية التي ستقوم بها؟ ومن شركاؤها في النظام العالمي الأجدد من جديد بوش الأب؟.

٢ - المحور الاقتصادي

كان مشروع جورج ووكر بوش يطمح للجمع بين الخفض الضريبي والإنفاق على برنامج تسلحي ضخم، هو الجدار الصاروخي. وكان هذا الطموح قائماً لغاية الثلاثاء، فهل استمر بعده؟.

قد يكون من المبكر إعطاء الأجوبة وركام مركز التجارة العالمي لم يُزَلْ بعد. الا أن طرح الأسئلة متاح كخطوة لتبين الأجوبة واستعراض الاحتمالات. ومن الأسئلة المطروحة بإلحاح وعلى مختلف الصعد، بما فيها الجمهور، الأسئلة التالية:

أ - التهديد الداخلي تحول إلى حقيقة واقعة تمثل كابوس المواطن الأميركي العادي. الذي لم يعد ليقتنع بأهمية درع صاروخي تنحصر حمايته باعتراض الصواريخ. فقد قلب الثلاثاء مفهوم الصراع، كما قلب معه تخيل مصدر التهديد المحتمل. وإذا كان للمشروع معارضيه قبل الثلاثاء فمن المتوقع أن تعم هذه المعارضة الجميع بعد ذلك الثلاثاء.

ب - مشروع الخفض الضريبي بدوره أصبح يحتاج للمراجعة. فالإنفاق على أضرار الثلاثاء، ونفقات الوقاية والتحسب من ثلاثاء جديد، إضافة إلى نفقات جلب مشاعر الأمان للجمهور، كلها عوائق تحول دون مجرد التفكير بأي خفض ضريبي؟.

جـ - كيف يمكن لسقوط مشروع بوش، بشقيه التسلحي والضريبي أن ينعكس على مستقبل ولايته؟. لقد طرحنا هذه الاحتمالات وإمكانيات الحلول التالية[1]:

---

(١) راجع مقالتنا (بوش يحكم في الزمن الأميركي الصعب).

- إن بوش الابن، شأنه شأن الرؤساء الفائزين بفوارق أصوات ضئيلة، سيعيش ولاية مضطربة. قد تودي به إلى الاستقالة مثل نيكسون، أو إلى الاغتيال مثل كينيدي. وفي جميع الأحوال، فإن اضطراب ولايته كان قد بدأ مبكراً مع حادثة سفينة الصيد اليابانية. لكنه بلغ ذروة غير مسبوقة يوم الثلاثاء.

- إن اعتماد بوش على النفط كصمام أمان للاقتصاد الأميركي يستوجب إيجاد تسويات وحلول للخلاف الأميركي مع إيران والعراق وليبيا والسودان. فهل يغير الثلاثاء منطلقات هذه التسويات وشروطها؟.

- إن الغموض يكتنف موقف بوش في حال تعرضه لمفاجآت غير مستحبة، مثل موت والده، أو ديك تشيني، أو مواجهة إثنين أسود جديد في البورصة، أو مواجهة اضطرابات في الداخل الأميركي.

وها هو بوش يواجه أياماً أكثر سواداً من الإثنين الأسود، واضطرابات داخلية أسوأ من المتصور. ليصل موقفه ومستقبله إلى أقصى درجات الغموض. فإذا ما أضفنا إلى ذلك عجزه النفسي عن تحمل الإحباطات، أمكننا أن نتوقع منه الحلول الملتوية وغير المنتظرة، بما فيها حلول الحماقة على طريقة نيكسون.

- احتمال العودة إلى سياسة كلينتون المتلخصة بالهروب من دفع أي ثمن استراتيجي، وتوريط الأصدقاء للحصول على المكاسب الاقتصادية. وهذه العودة تستوجب الاستعانة ببعض البارزين من فريق كلينتون، وربما بكلينتون نفسه. بما يشكل انهياراً لمصداقية الجمهوريين ولجدارتهم.

د - التعامل مع الأزمة الاقتصادية التالية للثلاثاء.

كانت سياسة قطع التيار، من اختراع ريغان عقب الإثنين الأسود، هي الخطوة الأولى للبنك المركزي الأميركي. وأعيد افتتاح البورصة بعد اتصالات أمنت السيولة فيها عن طريق أصدقاء أميركا. حتى تمكنت من استيعاب صدمة هبوط ٦٨٤ نقطة في يوم واحد. وبالرغم من حجم الخسائر الهائل، فإن الولايات المتحدة تمكنت من التعامل مع هذه الكارثة لأنها تملك خطة طوارئ اقتصادية لمثل هذه الأزمات. دون أن يعني ذلك أن السوق الأميركية قد استعادت استقرارها وأصبحت آمنة. وبحسب خطة الطوارئ الأميركية، فإن التصرف خلال الفترة القادمة سيكون على الوجه التالي:

- على المدى القريب خوف على أسعار الدولار والأسهم الأميركية، يمكن أن تطبق سياسة قطع التيار، وتحويل المضاربات

باتجاه النفط والذهب وسلع أخرى غيرها، لإبعاد الأسهم عن جحيم المضاربة.

– على المدى المتوسط يواجه الاقتصاد الأميركي خطر السحب التدريجي للاستثمارات، وكذلك الأرصدة المودعة بالدولار. بما قد يجبر الإدارة على ترك بعض البيوتات المالية الأميركية تواجه مصيرها بنفسها.

– على المدى البعيد ستحاول الولايات المتحدة تعويض خسائرها برفع النفط، أو بافتعال صراعات لتوظيف قدراتها العسكرية على طريقة (كوسوفو).

٣ – المحور الديموغرافي

المسألة الديموغرافية لم تكن يوماً هامدة في الولايات المتحدة. فاتفاق الأميركيين على نمط الحياة الأميركية، وعلى حياة الرخاء، لم يكن كافياً لتجاوز الاختلافات العرقية بين المزيج الأميركي المعقد. خاصة وأن البراغماتية الأميركية تصنف الطبقات الاجتماعية وفق مستوى الدخل السنوي. بحيث تنشأ جزر خاصة بكل طبقة على حدة، وتهيمن على كل جزيرة فئة عرقية معينة. بما يكرس النزعة العرقية وميول الخصوصية.

ولقد تعرضت الولايات المتحدة لهذه الاضطرابات العرقية منذ الحرب الأهلية الأميركية. التي لم تنه هذه الاضطرابات. حيث نلاحظ اندلاعها على فترات متباعدة بصورة مهددة تقتضي التدخل الحاسم من السلطات الأمنية. ومن هذه المحطات نذكر انفجاراً حصل في وول ستريت العام ١٩٢٠م، ونسبته السلطات الى مجموعة فوضوية. ثم جاءت سلسلة من الإضرابات العمالية، لتأتي بعدها حوادث ليتل روك العنصرية ١٩٥٧م، وبعدها إضرابات أخرى، ثم حوادث لوس أنجلوس، وأخيراً وفي استقبال بوش الابن حوادث سينسيناتي ٢٠٠١م، ليبقى تفجير أوكلاهوما الأخطر والأهم ١٩٩٥م وقبله تفجير أتلانتا ١٩٩٤م.

والانقسام في الرأي وتضارب المصالح، بعد تراجع الوفرة بسبب حوادث الثلاثاء سيؤديان حكماً إلى تضارب مصالح هذه الإثنيات. حيث ستواجه الإدارة الأزمات مع الجهات التالية:

أ - تنامي قوة الميليشيات البيضاء./ مرشحها بوكانان، الذي تحولت أصواته لبوش بسبب تحدي ترشيح اليهودي ليبرمان.

ب - تفعيل دور العرب الأميركيين لحماية أنفسهم من تهم لاحقة.

جـ - اضطرار الحكومة الفيديرالية للتساهل في دمج الأعراق وفي السماح بثقافاتهم.

د - تنامي احتمالات التجسس من قبل المجنسين لصالح بلدانهم الأصلية/ اليهود بادئون.

هـ - تنامي قوة اللوبيات العرقية، ونشوء لوبيات أخرى منظمة بما يزيد احتمالات الصدام بينها مع لجوئها لطلب دعم بلدان المنشأ.

و - ازدياد نفوذ وخطر الجريمة المنظمة في ظل الأوضاع الجديدة.

٤- مسؤولية الثلاثاء الأسود

تشير سوابق التحقيقات الأميركية إلى إعلانها عدم التوصل إلى أدلة قاطعة. سواء كان ذلك صحيحاً أو لدواعٍ أمنية. حتى يمكن القول: إن المحققين الأميركيين لم ينشروا نتائج تحقيقاتهم في أية مسألة معقدة. وعندما نشروها تبين أنها خاطئة سواء من دون قصد أو عن عمد بقصد التوظيف السياسي. وعلى هذا الأساس يمكننا أن نتوقع عدم التوصل إلى إعلان أميركي عن الجهة الحقيقية المسؤولة عن تفجيرات الثلاثاء الأسود. بما يعيدنا إلى مناقشة الفرضيات والشكوك والاحتمالات، وفي طليعتها التالية:

١- القطب الثاني الخفي

كان أكاديميو المخابرات الأميركية والسوفياتية متفقين على استحالة تفرد أحد القطبين بالعالم. وكانوا يعارضون عسكريي المخابرات من هذا المنطلق. وعندما انهار جدار برلين تحولت الأحادية القطبية إلى واقع عالمي. لكن وطأة هذه الأحادية كانت شاقة على أميركا التي بدأت تبحث عن عدو لها. وأحياناً راحت تخترع الأعداء. في المقابل فإن الأكاديميين نظروا بتشكك لهذه الأحادية، إذ اعتبروها أحادية وهمية من منطلق وجود قطب مقابل خفي لامصلحة له بالإعلان عن نفسه. وإن كان يمارس دوراً ضاغطاً أثقل في وطأته على أميركا من الاتحاد السوفياتي السابق. ويضم هذا القطب في عضويته أعضاء ثابتين أهمهم:

- بقايا الشيوعيين والأنظمة الشيوعية، وضباط المخابرات الشيوعيين الفارين.

- أصدقاء الاتحاد السوفياتي والدائرين في فلكه قبل سقوطه.

- الجريمة المنظمة بفروعها المتعددة، ثبتت عضويتها عقب حرب المخدرات الكولومبية التي بينت مقدارالضرر الأميركي منها.

- مجموعة الدول المارقة وهي بحسب (تشومسكي) المخالفة لآراء أميركا.

- الأصوليات الدينية اليهودية والبوذية والمسيحية والإسلامية وغيرها.

- القوميات المنبعثة بعد سقوط الاتحاد السوفياتي. سواء في الجمهوريات السوفياتية السابقة، أو في النمسا والصين وغيرها.

وهذه الجماعات تلتقي لقاء مصالح أمام عدو مشترك هو القطب الأميركي الأوحد المهدد لمصالحها وطموحاتها. على تباين واختلاف هذه الطموحات. وذلك بحيث يمكن ترشيح أي طرف من أطراف القطب الخفي ليكون منفذاً لعمليات الثلاثاء. دون استبعاد احتمال تعاون أكثر من طرف منها في التنفيذ. حسبنا هنا التذكير بإعلانات الولايات المتحدة عن كون هذه الأطراف مهددة للمصالح الأميركية.

٢- هل هو بن لادن؟

كانت مسارعة السلطات الأميركية لاتهام بن لادن مقدمة لطرح هذا السؤال بإلحاح على الصعد العالمية. التي تحولت من مناقشة السؤال كاحتمال إلى مناقشته كحقيقة واجبة البحث عن

خلفياتها ودعائمها. ومع ذلك فإننا استبعدنا بن لادن منذ أول مقابلة تلفزيونية أجريت معنا على الفضائية السورية في ١٥/٩/٢٠٠١م، وذلك للأسباب التالية:

- الجائزة التي خصصتها المخابرات الأميركية لمن يساعد في القبض عليه هي ٥ ملايين دولار مقابل ٦٠٠٠ مليون للإرهاب الداخلي. فإذا صح احتمال كونه المسؤول، فإن ذلك يعني سوء تقدير قاتل من هذه المخابرات.

- السلطات الأميركية تعرف تحديداً قدراته، لكنها تريد استيعاب صدمة الجمهور.

- السلطة تستغل السيطرة الإعلامية لتقنين غضب الجمهور وصرفه عن احتمال تكرار حوادث مشابهة.

- وجود دلائل عربية لايعني شيئاً. فالتزوير أبسط التخطيط.

- عجز بن لادن عن تخطيط الثلاثاء الأسود لا يعني عجزه عن الرد داخل أميركا بطرق أقل تعقيداً في حال ضربه. وهو احتمال لابد من حسبانه.

- أخطاء التقدير السابقة في ضرب معمل الأدوية السوداني، وفي حوادث مثل (لوكربي) وغيرها...

٣- الأطراف غير المتوقعة

جهات عديدة محتملة وذات سوابق، الميليشيات الأميركية البيضاء/ النازية، وأخرى متوقعة لأنها صاحبة مصلحة كارتيل المخدرات وبعض الدول، عداك عن الجهات العشوائية، كمناهضي العولمة وقراصنة الكومبيوتر، والهامشية بما فيها احتمالات اختراقات في المخابرات الأميركية نفسها كلها استبعدت، وأخرجت من التداول، كي يتم التركيز على بن لادن، وعلى منطقة من أهم المناطق الاستراتيجية الأميركية. فهل تأكدت أميركا من عدم احتمال تكرار الكارثة، حتى تمعن في هذا السبيل الذي لا يخلو بدوره من الأخطار؟.

٥- احتمالات التصرف الأميركي

منذ ذلك الثلاثاء وحتى اليوم، فإن السؤال الأبرز المطروح هو: كيف يمكن للولايات المتحدة أن ترد على هذه الاعتداءات، ومن الضحايا المحتملون للانتقام الأميركي؟.

وتتراوح السيناريوهات المحتملة وتتوزع كالتالي:

١- نمط حرب المخدرات الكولومبية/ خسرتها الولايات المتحدة، لكنها قتلت زعماء الكارتيل. مقدمة خدمة جليلة لزعماء الصف الثاني الذي أظهر كونه أكثر خطورة.

٢- نمط حرب الخليج يفتقد للتبريرات اللازمة لتوريط أصدقاء الأميركيين.

٣- نمط اختطاف (نورييغا) غير قابل للتطبيق. بسبب وعورة الجبال الأفغانية هزمت روسيا وبريطانيا.

٤- نمط ضربات (كلينتون) ضربات تستوعب غضبة الرأي العام، ولكن من دون ثمن استراتيجي. وهي تتعارض مع شخصية (بوش) ورغبته. لكن الفاعلين في الإدارة قد يقنعونه بها. وفي رأينا أن خروج (بوش) من مأزقه الحالي لا يتم إلا بهذه الطريقة. كونها الأقل كلفة وخطورة.

٦- بين (بيرل هاربر) والثلاثاء الأسود

هيبة الولايات المتحدة وعنفوانها تعرضا لتحدٍ واحد هو (بيرل هاربر) ١٩٤١/١٢/٧م، وكان ردها عنيفاً ونووياً بحيث لم يجرؤ

بعدها أحد على معاودة التجربة. وهي أظهرت استعدادها لرد أعنف في أزمة خليج الخنازير حين اضطر السوفيات للتراجع؛ لتبقى هيبة أميركا فوق كل اعتبار، إلى أن كان يوم الثلاثاء ١١/٩/٢٠٠١م عندما تعرض تاريخ الهيبة الأميركية للتحدي. فكان دافعاً للنكوص إلى بيرل هاربر. حيث لم يجد المحللون محطة أخرى مشابهة في التاريخ الأميركي. ومع ذلك فإن فوارق أساسية تمنع هذا التشبيه، وهذه المقارنة. أهم هذه الفوارق:

١- كانت أميركا ،أيام بيرل هاربر، مطمئنة لملكيتها للضربة القاضية.

٢- كانت الضربة القاضية مسموحة باستعمال القنابل النووية الجديدة في ظل حرب عالمية.

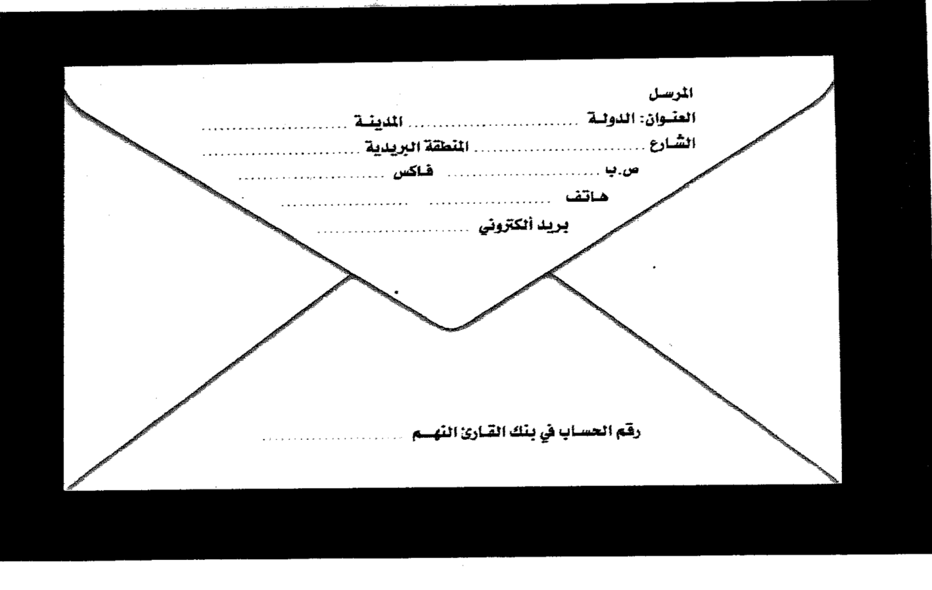
٣- كان العدو محدداً ومعروفاً بدقة.

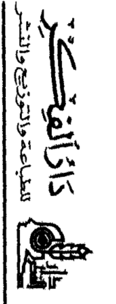
٤- الولايات المتحدة براغماتية، ولا تنتقم لمجرد الانتقام. ولا تدع رغبة الانتقام تهدد مصالحها.

٥- كانت ظروف حرب عالمية سبقها إليها حلفاء يرجون دخولها ويتمنونه.

خلاصة القول: إن الولايات المتحدة قد دخلت في نفق زمانها الصعب. وهو لايسمح بأي خطأ، لأن لكل خطأ في هذا الزمان عواقبه المميتة. لذلك نكرر السؤال الذي طرحناه في مقالتنا المذكورة من قبل وهو[1]: هل ينجح بوش في إعادة ترتيب أميركا والعالم من دون كوارث؟.

(١) انظر مقالة ١/٣/ ٢٠٠١م، مقالتنا: بوش يتسلّم الرئاسة في الزمن الأميركي الصعب، في هذا الكتاب.


المرسل
العنوان: الدولة .... المدينة ....
الشارع .... المنطقة البريدية ....
ص.ب .... فاكس ....
هاتف ....
بريد ألكتروني ....
رقم الحساب في بنك القارئ النهم ....


دار الفكر
للطباعة والتوزيع والنشر

THE BLACK TUESDAY
The Background of the Attack Against USA

Al-Thulāthā' al-Aswad
Khalfīyat al-Hujūm 'alá al-Wilāyāt al-Muttaḥidah

Muḥammad Aḥmad al-Nābulsī

لقد كان للهجوم على الولايات المتحدة الأمريكية في الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ وقع الصاعقة على المجتمع الأمريكي والدولي.

ذلك أنها المرة الأولى التي تتعرض فيها الولايات المتحدة إلى هجوم على رموزها الاقتصادية والعسكرية المتمثلة في مركز التجارة الدولي والبنتاغون وكادت طائرة من الطائرات المهاجمة أن تصل إلى البيت الأبيض لولا أنها أُسقطت قبل وصولها إلى واشنطن.

والغريب أن وسائل الدفاع الجوي والاستخبارات الأمريكية وقفت عاجزة عن التنبؤ مسبقاً بهذه الضربات.

هذه الحادثة المروعة تحدث من فراغ وإنما سبقها توتر أمريكي داخلي وتصدير لفوضى سياسية على الصعيد الخارجي.

وقد استطاع الدكتور محمد أحمد النابلسي الخبير بالتحليل السياسي التنبؤ بما جرى نتيجة تحليله لما سبق من تحولات وتغيرات سياسية على الصعيد الأمريكي، والدولي.

وهذا الكتاب دراسة بانورامية لمجمل العوامل التي لعبت دوراً في الوصول إلى وقائع الثلاثاء الأسود.

DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel:(412)441-5226
Fax:(775)417-0836
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/

ISBN 1-57547-990-7



SROUR ALWANI 2001